عيسى ناصري

# الفسيفسائي

رواية

مسكلياني

ضياء
t.me/twinkling4

الفُسَيفِسائُ

الكاتب: **عيسى ناصري**

عنوان الكتاب: **الفسيفسائي**

خط الغلاف: **الفنّان سمير بن قويعة**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**

صورة الغلاف: **Lilian broca** ©

ر.د.م.ك: **978-9938-979-37-4**

**الطبعة الأولى: جوان 2023**

حقوق الطبع محفوظة للناشر ©

**منشورات ميسكلياني**

**تونس:** 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس

الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

**الإمارات:** مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات

الهاتف: 569136632(971+) أو 504731882(971+)

**جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد الإلكترونية.©**

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

تحرير وتدقيق:

**▪ شروق مجدي ▪**

ترتيب وتصميم:

**▪ أشرف غالب ▪**

t.me/twinkling4

# مُستهَلّ

دفع ثمنَ الكتاب، وتوجّه إلى مقهاه المفضّل الواقع في أوّل جادّةٍ متفرّعةٍ عن الشارع الرئيسِ. طلب قهوته الصّباحيّة المركّزةَ، وغرق في قراءة الرواية الجديدة المؤلّفة من أربعمائة وثلاثٍ وخمسين صفحة. ظلّ يقرأ طوال أربع ساعاتٍ لم يُنبّهْهُ إلى مرورها السّريع سوى شعورِه بالجوع. عندئذٍ، خرج إلى أقرب سناك، فتناول سندويتشًا، ثمّ عاد لإكمال الكتاب.

كان أذان صلاة العشاء قد ارتفع من مآذن الحَيِّ عندما بلغ الصّفحة الأخيرة. هذه أوّل مرّةٍ يقرأ فيها روايةً بحجمٍ كهذا في حيّزٍ زمنيٍّ يقارب تسع ساعات. بل هذه أوّل مرّةٍ يقرأ لكاتبٍ مغربيٍّ فيفحِمُه ويُمتِعُه ويُربكه في آنٍ واحد. شعر بوخزٍ في عينَيه وبِطَنينٍ ضاجٍّ يملأ رأسه وأذنيه. ومع ذلك ظلّ عاجزًا عن الإشاحة بنظره عن صفحات الرّواية وغلافها. كان دوار الإعجاب بما قرأ قد اختلط لديه برهبةِ جريمةٍ وردتْ طَيَّ الكتاب. هي جريمة قتْلٍ تتطابق تفاصيلُها الدّقيقة مع جريمةٍ واقِعيّة حدَثَتْ قبل سنتين ببَلدةِ زرهون المجاورة.

إنّها جريمةُ القتلِ عينُها الّتي ذهبتْ ضحيّتها امرأة أمريكيّة. جريمةٌ غامضةٌ شعَرَ في قرارة نفسه، وهو يُحقِّقُ فيها شهورًا طويلة، أنّها حُبِكتْ بدهاءٍ كبيرٍ، وتمَّتْ من دون أن يترك له مُرتكبُها أيَّ دليل ملموس. فكلُّ ما كان هناك، في مسرح الجريمة، جثّةٌ وظلالٌ واهيةٌ لعبورٍ محتملٍ لقاتلٍ داهية. لقد حلّ جرائم كثيرة معقّدةً في مسيرته المهنيّة، لكنّه

وجد نفسه عاجزًا أمام هذه الجريمة، فلم يجد رأسَ خيْطِها قَطُّ. واليوم يظفر بحلّها مَسطورًا في روايةٍ صدرتْ حديثًا.

قام من مقعده، وغادَر المقهى متأبّطًا الكتاب، وسار في الجادّة المقفرة عائدًا إلى شقّته. وهو يمشي بخطواتٍ وئيدةٍ، ظلّ رأسُه يزدحِم بمشاهد التّحقيق الّتي فاضتْ بها خَزّانات ذاكرته، مشاهد وصُوَر اتّضحت له الآن بجلاءٍ بفضل هذه الرّواية «الخطيرة» كما وَصَفَها. طفَقَ ذهنُه يستدعي فضاءَ الجريمة وملابساتِها المنقولة في الكِتاب بشكلٍ دقيق وصادمٍ. شرَع يستحضر، بذُهولٍ، تطابُقَ شخصيّاتِ الرّواية مع شخوصٍ واقعيّة سبق له أن عَرَفَ بعضَها واطّلعَ على سجلّاتِها.

أمامَه الآن كتابٌ ينقل تفاصيلَ لن يكتبها سوى مُبدِعِ جريمة «زَرهون». والأدهى في الأمر، كما تقول الصفحاتُ الأخيرة، أنّ الرّجل الّذي تَتَّجِه إليه أصابِعُ الاتِّهام هو نفسُه جامِعُ المخطوطات الثّلاث المشكِّلة لهذه الرّواية.

هذه المخطوطات هي: ***ليالي وَلِيلي، والفتى الموريّ، وباخوس في العيادة.***

# ليالي وَلِيلي

## (رواية)

## أريادنا نوِيل

الأدب هو موهبةُ أن نحكي حكايات الآخرين كما لو كانت حكاياتنا الخاصّة.

*أورهان باموق*

إنّ أصل كلّ عملٍ إبداعيٍّ يكمن في حلم.

*جول فيرن*

الأدب مكمِّل للتاريـخ وليس نقيضه.

*جون بوين*

# أريادنا

**السبت 3 شتنبر 1994**

أعرف أنّه كان مقدّرًا لنا أن نلتقي. وكان ذلك البيت نقطة تقاطعٍ حتميّةٍ لِقدَريْنا أنا وجواد. أكانتْ مصادفة؟

أنا أريادنا نويل البوسطنيّة. قَدِمتُ إلى هذه الأرض مسحوبةً خلف حلمٍ من فسيفساء. وتلك هي المرّة الأولى الّتي تطأ فيها قدمايَ بلادَ المغرب العجيبة. محظوظةٌ أنا لأنّ جوادًا الأطلسيَّ كان في انتظاري هناك على أعتاب مدينة فوليبيليس الأثريّة. فلولاه لضعتُ في أنقاضها وهلكتُ بين فسيفساءاتها المُلغِزة. لولاه لما استرجعتُ دفقَ الكتابة الّذي هجَرني. لقد كان كاتبًا واعدًا، ومرشدًا موثوقًا في متاهة الفسيفساء. لم أنسَ شيئًا من يوميّات جواد كما حكاها لي. لم أنسَ شيئًا من لياليه وأحلامه الغريبة بذلك البيت العتيق. ومنذ أن التقيتُه لم أتردّد في كتابتِه، كتابةِ قصّتهِ. كانَ فيه شيءٌ من شخصيّاتِي الحبريّة البوهيميّة المكابِرة. كان فيه شيءٌ منّي. لذلك صادقته.

نبتَتْ بيننا صداقةٌ شفيفةٌ جعلتْه يحكي لي تفاصيلَ غريبة من حياته. هي مزيجُ وقائع وأحلامٍ وسرنمات تبعث على الدهشة. وَلَم تكن طريقته في الحكي عاديةً. إذ امتلَكَ قدرة باهرة على النفاذ إلى هذه الوقائع ونقلها مغموسةً في مشاعره، مغمورةً بعاطفتِه، فأتلَقّفها بدوري، بحاسّة كاتِبةٍ، بذائقةِ قارئة، لأُسكنَها ذاكرتي، قبل أن أُسرِّبها حِبرًا إلى واقِع الورق.

هكذا انطلقتُ أكتُبُ جوادا وقد أحطتُ بمشاعره وهواجِسه. طفقتُ أسردُه، أرسمُه حبرًا، أدلِج إلى عالمه الدّاخلي. تارةً أسردُه بصوتي، وطورًا أُسلِم إليه دفّةَ السرد ليتولّى زمامَ الحكاية.

هل كان مصادفةً أن يقذف به تعيينُ الوظيفة الماكر إلى ذلك السهل الوسيع ليجاور موقعًا أثريًّا مفخّخًا بالتاريـخ؟

فتح مساعدُ سائق الحافلة صندوقَ البضائع، وسحب من جوفه ثلاثَ حقائب فيها ملابسُ وأغطية. بعدها أخرج أربعَ علب كرتون كبيرة كان جواد قد أحكم إغلاقَها بشريطٍ لاصقٍ بعد أن ضمّنها كُتُبًا وأدواتٍ منزليّةً وأوانيَ وقنّينةَ غازٍ فارغة. لم يَحتَجْ صديقي إلى أثاثٍ كثير. فقد كان محظوظًا وهو يعثر على بيتٍ مجهّز بفرُش قديمةٍ وطاولتَين وكراسٍ وسريرٍ وأريكتين ودولاب ومكتبٍ وأغراض أخرى صالحةٍ للاستعمال. لقد أعفاه جبيلّو، حارس المدرسة، من البحث في بلدة زرهون المجاورة عن بيتٍ يكتريه، ثمّ يتجشّم عناء التنقّل يوميًّا إلى المدرسة قاطعًا مسافةَ كيلومترين ونصف في اليوم جيئةً وذهابا. في زيارته الأولى إلى المدرسة، دلّه جبيلّو على البيت الّذي كان هناك شاغرًا كأنّه لا ينتظر سواه. كان بيتًا من الطراز القديم يقع وسط المسافة الفاصلة بين المدرسة والموقع الأثريّ.

هي ذي السيّارة تتسلّق المرتفعَ المفضي إلى مدينة زرهون. تعبر براكبيها بيوتًا متناثرةً على قارعة الطريق الأفعوانيّة. تخترق كرومًا معتصمة بخضرتها، ثمّ تغرق في غابة زيتونٍ مترامية الأطراف. لم يكن جواد يلقي بالًا لأحاديث السائق المتأفّف من حدبات الإسفلت وحُفر الطريق المزعجة. فكان يلصِقُ وجهه الوسيم الفاتح السمرة بزجاج النافذة ويُرخي عينَيْه في اتّجاه المنحدر الآهل بشجيرات الزيتون. يرمي العينَ

صوب السهل الفسيح بحثًا عن موقعِ وَلِيلي الأثريِّ، فتلوح له المدينة القديمة راقدةً هناك بأطلالها وأبوابها المفتوحة على زمنٍ بعيد.

أرض وَلِيلي ترفل في زيٍّ خريفيٍّ لا تفارقه الخضرة. سماؤها تتلفّع بلونٍ لازورديٍّ فريدٍ. وسهلها يمتدّ ملتهمًا منبسطًا شاسعًا أغلبُ أراضيه مزارعُ وضيعاتٌ تتخلّلها كرومٌ وفائضٌ من أشجار الزيتون.

البيت العتيق هناك، قربَ أطلال وَلِيلي، يُشهر واجهتَه نحو الجنوب. أعزلَ، ليس ببعيدٍ عن بيوت قرية فرطاسة المُعتصِمة بخاصرة جبل زرهون. كان جواد محظوظا وهو يعثر على بيتٍ للإيجار متاخمٍ لمدينةٍ أثريّة، لا شكّ أنّه أحسنُ بيتٍ يمكن أن يسكنه معلّمٌ أعزب في منطقةٍ قرويّة كهذه.

في زيارته الأولى إلى مقرّ العمل لإمضاء محضر الدخول برسْم الموسم الدراسي 1994 - 1995 كان حارس المدرسة جبيلّو دليله إلى البيت. وهو المسؤول عن إيجاره. قال الحارس إنَّ البيت يعود لامرأةٍ أمريكيّة اقتنته عندما استطابت مُكوثَها بالمنطقة. فخلعت ثوبَالسائحة لتصير قاطنةَ البيت بضعةَ أشهر وحسْب. ثمّ رحلت وتركته في عهدة جبيلّو.

توقّفت السيّارة بجوار البيت. تأمّل جواد واجهتَه مليًّا: حوش قصبيّ يطوّق الفناء الأماميّ، نافذتان متباعدتان ارتفعت إحداهما إلى أعلى قليلًا، وباب حديديّ خفيضٌ يجثم بينهما منحدِرًا إلى أسفل كفَمٍ مفغورٍ على وقع دهشة. بدا للساكن الجديد كما لو أنّ هذا البيت يحدّق في العالم بطريقته الخاصّة. (هكذا بدا لي البيتُ أنا أيضًا يومَ وقفتُ أمام واجهته أنتظر ظهور جواد في الحوش، لقد بدا لي كما لو أنه يصدّني). كان البيت يعطي الزائرَ انطباعًا بأنه ينطوي على أسرار.

أخذ يخطو خطواتٍ في الباحة الأماميّة الّتي امتلأت بالحشائش وأوراق الأوكاليبتوس وأغصان الزيتون اليابسة. سارَ بمحاذاة الحوش وهو يمرّر أصابعَ يده اليسرى على سياجه القصبيّ. وقف على مقربةٍ من البيت والتفَت جنوبًا لينظر إلى حيث ينظر البيتُ. أمامه يمتدّ مشهدُ السهل الأخضر بلا نهايةٍ وطرقٌ متشعّبةٌ بين الحقول نحتتها الأرجل وقوائم الدوابّ. كان موقع وَلِيلي الأثريّ يستولي على المشهد: قوس النصر وأعمدة الكابّيتول وبقايا أبنيةٍ حجريّةٍ أخرى ترتدي زيًّا رومانيًّا عتيقًا وتنتصب بمهابةٍ ليلتقط لها الزمن صورةً تذكاريّةً مع خلفيّة السهل الخضراء. ورغم صخب الصورة التاريخيّة المعلّقة في عنق السهل كجرسٍ هنديٍّ يرنّ بأصداء الماضي، بدا كلّ شيءٍ هنا هادئًا، بطيئًا ودافئًا.

أدخلَ أمتعتَه من باب الحوش القصبيّ. وضعها جانبًا، إلى جوار أُصُصٍ مصفوفةٍ لِصقَ الجدار، وبحث في جَيبه عن المفتاح. ولمّا فتح الباب الحديديَّ الأسود استقبلته رائحة موادّ التنظيف. فقد وعدَه جبيلّو بأن ينظّف البيت، ويتخلّص من الأمتعة القديمة غير الضروريّة، فيجعله لائقًا ومريحًا.

عندما زار جواد البيت أوّلَ مرّةٍ رفقةَ جبيلو، وجدَه مُهمَلًا. فرغم أثاثه المنتقَى بعنايةٍ وحسن ذوقٍ، بدا يومَها مهجورًا. كانت تعلو أرضيّتَه وجدرانَه طبقاتٌ سميكةٌ من الغبار. وقد جُمِع به حشدٌ كبيرٌ من الفُرُش البالية نصف الممزّقة وكثيرٌ من الأثاث المغبرّ المحطَّم. في ركن البهو، كانت هناك شمّاعةٌ تتدلّى منها ثيابٌ غبراء. وعلى الجدار طالعته مرآةٌ مهشَّمَةٌ رأى فيها وجهَه يومَها متشظّيًا بلا ملامح. وكانت هناك ساعةٌ

حائطيّةٌ محطّمَةٌ فقدتْ عقربَ الثواني والدقائق معًا، وظلّتْ تشير بعقربها اليتيمة إلى الثانية عشرة.

لقد حاول أن يتخيّلَ زمن توقُّفِ هذه الساعة، وتساءَلَ مع نفسه أكان الوقتُ زوالًا أم منتصف ليلٍ من ليالي وَلِيلي؟ وهل تؤشّر هذه العقرب على لحظة تحطيمها وتؤرّخ لها؟ ومن كان مُحطّمَها؟ وما دافعُه إلى اقتراف فعله ذاك في حقّ آلة الزمن الخرساء؟ هكذا نقَل إليّ إحساسه في تلك اللحظة، لحظة طالعتْه ساعة الجدار المحطّمة.

كانت على الجدران، أيضًا، لوحاتٌ تعود لشخصيّاتٍ تاريخيّةٍ منها السلطان مولاي إسماعيل بزيّه الملكيّ الفاخر ونظرته النفّاذة والصارمة، وبورتريه للملك يوبا الثاني، وبورتريهان آخران للامبراطورَين نيرون وماركوس أوريليوس في عزّ شراستهما وحِكمتهما. كانت اللوحات مؤطّرةً بإطارٍ أسودَ رفيعٍ منقوشٍ بخطوطٍ مائلة. غير أنّ أبرز ما أثار انتباهَ جواد يومها، هو وجودُ مكتبٍ متوسّط الحجم مصنوعٍ من خشب الصنوبر فوقَه أوراقٌ مبعثرةٌ وهاتفٌ ملفوفٌ في كيسٍ بلاستيكيٍّ شفّافٍ لحمايته من الغبار. نفضَ الغبارَ عن الكيس، بدا له الهاتف الأسود جديدًا، وإلى جانب المكتب تدلّى خيطه الّذي فُصِل عنه منذ مدّة. كانت في زوايا السقف أنسجةُ عناكب، وعلى الأرضيّة بُقَع الرُّطوبة وأتربةٌ وأكوامٌ من خلايا العثّ. والآن لا شيء من تلك الحشرات ولا أثَرَ من ذاك الغبار.

لقد نظّف جبيلّو كلَّ شيء. صارت الجدران الآن ناصعة البياض، إذ نُظّفت بعنايةٍ وأزيلت من زوايا السقف أنسجةُ العناكب، حتّى البورتريهات الأربعة المعلّقة نُظِّفَتْ وصارتْ تلمَع. توقّف جواد بالمدخل لَحظاتٍ متأمّلًا فضاء البيت: مكتبٌ ودولابٌ مركونان في

الجهة اليسرى من الردهة بمحاذاة باب غرفة النوم. سطح المكتب نظيفٌ يتربّع فوقه الهاتف الأسود اللّامع. الدولاب عتيقٌ لكنّه مقبول. كان مصنوعًا من خشب الصنوبر، وفي أحدِ أرففه رُتِّبتْ كُتبٌ قديمة. ومقابلَ الدولاب، على الجهة اليمنى للردهة، تقع غرفة المعيشة. دلف إليها جواد، فوجدها مؤثّثةً بأريكتَين وطاولةٍ خشبيّةٍ ممتازة. في الزاوية المقابلة للأريكتين كانت ثمّة مدخنة حائطيّة. فقال جواد لنفسه وهو يتّجه صوبَ غرفة النوم: «ستكون هذه الغرفة مكانًا مثاليًّا لمشاهدة التلفاز وتناول الطعام».

كان هناك بساطٌ مطرّزٌ بغرفة النوم المستطيلة، مصنوعٌ من الصوف والدوم، يغطّي نصف مساحة الغرفة، والنصف الآخر يشغله سريرٌ حديديٌّ بقوائم خشبيّةٍ إلى جانبه منضدةٌ وخزانةٌ صغيرةٌ يبلغ ارتفاعُها مستوى النافذة. كانت خزانةَ ثيابٍ، فوقَها رُتِّبَتْ بعض الأغطية. ترَكَ غرفةَ النوم وأطلّ على غرفةٍ أخرى في عمق البيت، فوجدها فارغةً إلّا من حصيرٍ مكوَّمٍ جنبَ الباب. ثمّ اتّجه إلى المطبخ الواقع لِصْقَ غرفة المعيشة يمينَ الردهة. فألفى جدرانه الزليجيّة نظيفة. الكونطوار نظيفٌ، وبزاويتِه صنبور فتحَهُ فاندلق منه الماء باردًا. الجدران الزلّيجيّة الأربعة مزيّنةٌ بصُوَر فاكهةٍ وأباريق وكؤوسٍ وبراريدَ بيضاء جميلة. عُلّقت في منتصف الجدار، الّذي يعلو الكونطوار، مِقلاتان ومغارف خشبيّة وكسرولة ألومنيوم. راقه المطبخ. لم تكن تنقصه إلّا ثلاّجةٌ وقليلٌ من الآنية. لذلك فكّر أن يجهّزه بما يلزم في أوّل زيارةٍ يقوم بها إلى معارضِ حيِّ الهديم بمكناس. وهو ما فعله بعد أسبوعٍ من قدومه.

منذ أوّل ليلةٍ قضّاها بالبيت القرويّ، ازدهرَ منامُ صديقي بحُلمٍ غريبٍ شغَل ذهنَه طوال النهار، حُلمٍ يرسله ليحلَّ ضيفًا على وَلِيلي، حلمٍ من

النوع الّذي يصيب رائيه بِحيْرةٍ ودهشةٍ بالغتَين، حُلمٍ يقوِّض مسلّمات الإدراك الواعي عند أيّ شخصٍ عاقلٍ يعرف جيّدًا الحدودَ الشاهقة بين الواقع والمتخيّل الحلميّ.

# جواد

السبت 3 شتنبر 1994

كان شكل البيت من الخارج مثيرًا. بدا لي كما لو أنّه يحدّق في العالم بطريقته الخاصّة. يومَ دفعتُ أجرَ كرائه الشهريّ، وأنا ألج إلى حوشه، أحسستُ كأنّه يصدّني ويخيفني. بل كما لو أنّه ينطوي على ذاكرةٍ من أسرار.

إنّها ليلتي الأولى بالبيت القرويّ. ورغم أنّي لم أستأنس بعدُ بجوّ البيت، شعرتُ بنعاسٍ لا يُقاوم. كانت ساعة المنبِّه الصغيرة، الّتي أحضرتُها معي، تشير إلى الحادية عشرة ليلًا. وَطِئْتُ بقدميّ البساطَ المطرّزَ المصنوع من الصوف والدوم، ولذت بالسرير الحديديّ ذي القوائم الخشبيّة. كان مرتّبًا بعناية. سحبت من فوق الخزانة الصغيرة الجانبيّة غطاءً جديدًا ماركة «مازافيل»، بسطته فوقي، ثمّ أغمضت عينيَّ ونمتُ على الفور. وازدهر منامي بحلمٍ غريبٍ شغَل ذهني طوال النهار الموالي:

**حلم الليلة الأولى - 3 شتنبر 1994**

رأيتني في المنام خارجًا من البيت ليلًا تحت ضوء قمرٍ شديد السطوع. كنت متّجهًا نحو بوّابة وَلِيلي الشماليّة. وعندما دنوت منها لمحتُ طيفَها. رأيتها تركض بمحاذاة السور: امرأة طويلة، فاتحة السمرة، شاهقة الأنوثة، بشعرٍ أسودَ يسطِّر استدارةَ وجهٍ طفوليٍّ عذريّ التقاسيم. وقد التحفتْ رداءً أبيضَ تتطاير أطرافُه على وقع الريح الغربيّة الباردة.

كانت تركض وسحابةٌ سوداءُ من الخفافيش تحلّق خلفَها بجنون. دلفتْ من البوّابة، ودلف خلفها السرب الأسود. أسرعتُ وأطللت من البوّابة المفتوحة على مصراعَيْها، فرأيت المرأة تنعطف إلى اليمين، وهناك كان رجلٌ طويلٌ في انتظارها. هرعتْ إليه. وارتمت في حضنه. فتلقّفها بين ذراعيه وعانقها بقوّة. طال عناقهما حتّى إنّهما لم يكترثا لأسراب الخفافيش الّتي احتشَدَتْ بأعدادٍ مضاعفةٍ. الشبحان المتعانقان صارت تلفّهما سحابة الخفافيش القاتمة.

السحابة بدأت تتكاثف وتتصاعد إلى السماء كخيوط دخان. وكنت أنا عند البوّابة الشاهقة أتابع المشهد. وشيئًا فشيئًا بدأت الخفافيش تتلاشى، تتبدّد، حتّى اختفتْ تمامًا، واختفى معها الشبَحَان. لم أستوعب اختفاءَ الرجل والمرأة، فاقتربتُ من مكان التحامهما. في المكان كانت هناك حفرةٌ عميقةٌ مظلمةٌ كبئرٍ منسيّة لا قرارَ لها.. وهنا استيقظت.

# جواد

**الأحد 4 شتنبر 1994**

وفي الليلة الثانية، وبينما كنتُ أرتّب كتبي على رفوف الدولاب القديم، حوالي الساعة العاشرة ليلًا، تلقّيتُ مكالمةً هاتفيّةً غريبة.

كنت واقفًا بمحاذاة المكتب الّذي ينام فوقه الهاتفُ الأسود اللمّاع. قفزت جفِلًا من الرنّة القويّة المفاجئة. كانت المرّةَ الأولى الّتي أسمع فيها رنينًا مثل ذاك. وتذكّرتُ في الحين جبيلّو الّذي وعدني، يومَ سلّمني المفتاح، بأنّه سيشغِّل الهاتفَ ويُسدّد فواتيره وفواتير الكهرباء المتراكمة. رفعتُ السماعة إلى أذني، وبتردّدٍ وترقُّب قلت «ألو».

من نبرة صوته خمّنتُ أنّ من يخاطبني رجلٌ شارَف على أواخر أربعيناته. خاطبني بصفة «أستاذ» وقال إنّه اطّلع على روايتيَّ ويتابع كتاباتي في الملاحق الثقافيّة. بدا لي، من جمله الأولى، أنّ الرجل واحدٌ من المتملّقين والمتلعّقين بأذيال الأدب، الذين يكتفون بإصدارٍ شعريٍّ أو قصصيٍّ واحدٍ لحجز مقعدٍ في الساحة الأدبيّة الوطنيّة فيواظبون على حضور الملتقيات لقراءة نصٍّ واحدٍ لا يغيِّرونه حتّى يصير محفوظًا عند الحاضرين من أشباههم. شكرته على الاهتمام. وانتظرتُ أن يدخل في الموضوع. فشرع يتحدّث عن نفسه. وقال إنّه رجلُ أعمالٍ مهاجرٌ يعيش بأمريكا. سبق له أن أقامَ بجوار مدينة وَلِيلي الأثريّة وبدأ كتابة نصٍّ روائيّ لكنّه لم يذهب فيه بعيدًا. لذلك يدعوني إلى أن أكتبَ له روايةً أستلهم فيها فضاءَ الموقع الأثريّ الأشهر بالمغرب.

من يكون هذا الأخرق الّذي يتّصل ويدعوني، بلهجةِ الواثق، إلى أن أكتب له رواية؟ وهل يعرف أنّي حديث الإقامة بجوار المدينة الأثريّة؟ ولماذا يختارني أنا بالذات لهذه المهمّة؟ ومن أين له كلّ تلك التفاصيل عنّي وعن مُنجَزي الأدبيّ المتواضع؟

هل ثمّة صفاقةٌ أكبر من أن يحْسبَني كاتبًا تحت الطلب مستعدًّا لأكتب له روايةً هكذا، ببساطة؟ المهمّة، كما اقترح، تتلخّص في أن أكتب له روايةً متخيّلةً تستدعي حقبةَ الرومان في مدينة وَلِيلي الأثريّة، وتستلهم فنَّ الفسيفساء الرومانيّ، روايةً تلحم الماضي بالحاضر في بناءٍ فارق، بشخوصٍ مسافرةٍ في الأزمنة. قال إنّه يؤمن بنجاح هذه الرواية مثلما يؤمن بكفاءتي الروائيّة. وأضاف أنّي أمتلك ما يفتقده هو من «جموح الخيال»، هكذا قال، لذلك لم يصلح في أيّ يومٍ من أيّامه ليكتب نصّ الرواية، الرواية الحلم الّتي أرادها أن تكون باسمه. كان حُلمًا لازمه منذ الصغر، لكنّه لم يُرِدْ كتابةَ نصٍّ عاديّ. فالمكتبات، حسب تعبيره، لا تنقصها الإصدارات المغمورة الّتي تظلّ حبيسةَ الرفوف إلى أن تهرأ أوراقُها ويُنسى أصحابُها فيموتون ولا أحدَ استمتع بما كتبوا. أضاف أنّه يريد للرواية الّتي ستحمل اسمَه أن تكون فارقة، فتُزاوج بين التاريخ والفنتازيا، وتَمتح من الغموض والإثارة، وتَقلب طاولة التوقّعات على قارئها. قال إنّه يريدها أن تكون مكتوبةً على غرار روايتي الفنتازيّة الأولى «عشّ الدبابير» الّتي بلغت اللّائحة النهائيّة لجائزةٍ عربيّةٍ مرموقة، وأن تكون بها وثباتٌ جريئةٌ على شاكلة روايتي الأولى «عمى الحُبّ» الّتي فازت بجائزة اتّحاد الكتّاب المغاربة. لقد اقترح أن أكتبَ عن واقعة مقتل سائحتَين في أنقاض معبد الكابيِّتول بعد اغتصابهما وتجريدهما من ملابسهما وطرحهما على أرضيّة فسيفساء منزل فينوس، أو أن أكتب عن سرقة ألواحٍ فسيفسائيّةٍ نفيسةٍ وتهريبها إلى متاحف باريس

زمنَ الاحتلال الفرنسيّ. ونبّهني إلى ألّا أنسى سرقةَ تمثال باخوس الرخاميّ النادر سنة 1982، السرقة الّتي أغضبت الملك الحسن الثاني ودفعت بأجهزة الأمن والدرك إلى اعتقال أهالي فرطاسة وتعذيبهم في محاولةٍ يائسةٍ للوصول إلى سارق باخوس. قال إنّ وَلِيلي غابةٌ من الأسرار، وسوف توفّر ليمادّةً غنيّةً لكتابة روايةٍ منقطعة النظير. حاولتُ الاعتذار، لكنّه واصل كلامَه كما لو أنّه يوجّه أوامرَ إلى تلميذٍ صغيرٍ لا يُنتَظر منه غير الإصغاء لِما يُقالكي ينفّذَه بالحرف. قال:

- سيكون كتابًا مميَّزا، روايةً سوف يسجّلها التاريخ. أنا متأكّدٌ من ذلك، لأنّك كاتبٌ نابغة، وفي كتاباتك نضجٌ مبكِّرٌ وخيالٌ رهيب.

توقّف عن الكلام، فسمعتُ طقطقة الولّاعة. وخمّنتُ أنّه يشعل سيجارة. سمعت صمتَه لحظةً قبل أن يتكلّم. ورأيت في خيالي سحابةَ دخانٍ امتزجت بكلماته الثلاث:

- ستّون ألف درهم.

نطقَ كلماته الثلاث كطلقاتٍ صوّبها نحوي عبر السمّاعة فسال لعابي. وقد حملت إليَّ السماعةُ قرقرةَ ملعقةٍ داخل كأسٍ أو فنجان. وخمّنت أنّه يتناول قهوة المساء.

فكّرت مليًّا. لو أنّي أكتبُ روايةً وأهرقُ فيها عصارةَ أعصابي وأهدرُ عرَقي ووقتي وأنشرها لدى دار نشرٍ وطنيّة، فلن أحصل من إيراداتها، إن وُجِدَتْ إيراداتٌ أصلًا، على ربع المبلغ الّذي ما زال وقع رقمه يرنّ في أذني. ستّون ألفًا!

وأضاف بنبرةٍ حاسمة:

- سوف تسلّم النَّصَّ في الموعد المحدّد، بعد سنةٍ من الآن، وتنسى أنّك كتبته.

من كلامه الواثق، ومن عرضه، خمّنت أنّه لا بدّ أن يكون رجلاً غنيًّا ليعرض عليّ مبلغًا يعادل مرتَّبي الشهريّ الهزيلَ مدّةَ سنتَين.

- نصف المبلغ تأخُذُه مقدَّمًا، والنصف الباقي يأتيك عندما تُسلِّم النصّ كاملًا.

قال هذا وأقفل الخطّ.

بقيتُ وهلةً أفكّر في المحادثة الناشِزة وأنا لا أزال أمسك بالسمّاعة، منكفئًا على المكتب. ولم ينقذني من دوّامة أفكاري سوى نداء النوم. فوضعت السمّاعة وقمت مجرجِرًا قدَمَيَّ نحو السرير. كانت عقارب المنبِّه، الموضوع على منضدةٍ جانبيّة، قد شارفتْ على الساعة الحادية عشرة عندما استسلمت لنومٍ مشوَّش. ومن لُجّة المنام انتشلَني ذلك الحلمُ، حلمُ الليلة السابقة نفسه، بالتفاصيل نفسِها. لكنّه لم يتوقّف حيثُ توقّفَ في الليلة الأولى، بل واصل ضخَّ أحداثٍ جديدةٍ في دماغي:

**حلم الليلة الثانية - 4 شتنبر 1994 (النسخة الثانية من الحلم)**

رأيتُني أخرج من البيت وأقصد البوّابة الشماليّة للمدينة، وهناك لمحتُ المرأة السمراء تطاردها الخفافيش. وعندما دلفتْ من البوّابة، وانعطفتْ إلى اليمين، تلقّاها الرجل الضخم ليغيبَا في العناق وتلفّهما الخفافيش بدثارٍ أسود، ثمّ يختفي كلّ شيء. اقتربتُ من مكان التحام الطيفَين المتلاشيَين. فألفيت هناك حفرةً عميقةً مظلمةً كبئرٍ منسيّة. وعلى نحوٍ غامضٍ شعرتُ أنّ البئر تجذبني إلى فوهتها بقوّةٍ رهيبة.

والغريب أنّي لم يتملّكني الفزع حينها. بل وجدتني أرمي بخطوتي في دائرة البئر المظلمة، فهويتُ فجأةً إلى أسفل. وأنا أهوي كنت أشعر كما لو أنّي أحلّق نزولًا. كنت أفتِقُ ليلَ الهوّة بكلّ ثقلي. واستمرّ انحداري في العمق السحيق مدّةً بدت لي دهرًا، حتّى استقرّ بي جسدي أخيرًا على أرضيّةٍ ناعمة، كما لو أنّي سقطتُ على أرضٍ معشوشبةٍ أو مفروشةٍ بقطنٍ أو فراءٍ ناعم. تحسّست أطرافي، فوجدتُها سليمة. وبدلًا من الشعور بآلامٍ في جزءٍ من أجزاء جسدي، تملّك أطرافي خدرٌ لذيذ.. واستمرّ الخدر يَسري في بدني دقائقَ بعدما استيقظت.

***

السبت 10 شتنبر 1994

مرّ يومان على المحادثة الناشِزة، وظهرَ الرقم الأمريكيّ على شاشة الهاتف ليلةَ الأربعاء في توقيت اتّصاله السابق. تركته يرنّ دون أن أرفع السمّاعة. أخذت قلمًا ونقلت رقمَ المتّصِل إلى ورقة. لم أكن قد حسمت قراري بعد. ثمّ مرَّ يومان آخران، وفي تمام الساعة العاشرة، ليلة السبت، ارتفع الرنين في ردهة البيت. أسرعت وفتحتُ الخطّ. وفي لحظةٍ منفلتةٍ من قبضة الإدراك وجدتُني أحرّك شفتيّ ناطقًا بكلمتين:

- أنا موافق.

في ليلة السبت المشهودة تلك، أعطيتُ موافقتي لرجل الأعمال الكهل (في آخر أربعيناته كما خمّنت). ذلك الصوت لم يتسلّل إلى حياتي عبر سمّاعة صفيقةٍ إلّا ليورّطني في مهمّةٍ حسّاسةٍ جدًّا بالقياس إلى روائيٍّ ناشئ. أقفلَ الصوتُ هاتفَه. غابَ، ولم يعاود الاتّصال. ولم أفكّر

لحظتَها في ما إذا كان لائقًا أن أتَّصل به أم لا. وبعد ليالٍ ثلاثٍ، جاء الصباح فسمعتُ دقًّا على الباب. فتحتُ البابَ الحديديّ فوجدتُ في الحوش رجلًا متوسّط القامة، ضخمَ الجثّة، مُربَّعَ الوجه، يضع نظّارةً شمسيّة على عينيه، وعلى رأسه قبّعة تغطّي النصف الأعلى من جبهته. سلّمني ظرفًا سميكًا متوسّطَ الحجم. وقال بصوتٍ أجشّ ما زلتُ أذكر نبرتَه المشروخة حتّى الآن: «هذه أمانةٌ كُلّفتُ بتوصيلها، من عند رجل الأعمال الّذي هاتفك قبل ثلاثة أيّام». قال هذه الجملة وانصرف دون أن يضيف كلمةً أخرى. دخلتُ البيت. فضضتُ الظرف.

وصُعقتُ لمنظر الرزم الماليّة المرتَّبة في جوفه. كانت الأوراق الماليّة الزرقاء جديدة. عددتها، فوجدتُها ثلاثين ألف درهمٍ بالتمام. لفّتني الحيرة وأنا أتساءل: من أين لهذا الرجل برقم هاتف البيت وعنوانه؟

وضعتُ الظرف المُتخَم على أحدِ رفوف الدولاب، وجلستُ إلى المكتب. رفعتُ سمّاعة الهاتف وحاولتُ الاتّصال بالرقم الأمريكيّ، ولكن ما من مجيب. كانت الإشارة الصوتيّة المنبعثة من السمّاعة تقول إنّ هاتف الطرف الآخر غير مشغَّلٍ أو خارج التغطية.

أريادنا

الخميس ١٥ شتنبر ١٩٩٤

لم أنسَ شيئًا من يوميّات جواد كما حكاها لي، ولا سيّما تلك اللحظات الّتي سبقت رحلةَ كتابة روايته الثالثة «الفتى الموريّ». ظلّت هذه البدايات راسخةً في ذهني، فطفقتُ أكتبها بتفاصيلها.

أعدَّ الشاي في برّاد صغير. تركه يُطبخ مدّةً طويلة حتّى غدا لونه أميلَ إلى حمرةٍ قرمزيّة. صبَّ كأسًا وجلس إلى طاولة المطبخ محاولًا إقناع نفسه بالاكتفاء بالشاي. لكنّه يدرك، في نهاية المطاف، عندما ينتصف الليل، أنّه سيتّجه إلى الثلّاجة ليفتح زجاجةَ نبيذٍ أحمرَ من صنع شركة (Les celliers de Meknes*). (أمّا أنا فلا أحبّ أن أشرب عندما أزمِعُ على خوض غمار الكتابة. النبيذ يُضعِف همّتي، يرخي أطرافي ويجعلني فريسةً سهلةً لنومٍ غير مرغوبٍ فيه).

كانت السّاعة قد جاوزتْ الثانية عشرة ليلاً عندما أشعلَ سيجارة وصبَّ النّبيذَ الأحمَر في كأسٍ طويلة، وأخذَها معه إلى المكتب بالردهة. وقف أمام الدولاب القديم الّذي صار يمتلئ شيئًا فشيئًا بكتب التاريخ والروايات العربيّة. لقد احتفظ بالكتب القديمة في مكانها، وكان أغلبها مكتوبًا بالإنجليزيّة. لم يقرأ إلّا القليل منها. سوف يطلعني عليها فيما بعد فأكتشفُ أنّ صاحب الدّولاب القديم كان قارئًا انتقائيًا نَهِماً. لِصْق الدولاب، في الجهة المقابلة لمدخل غرفة المعيشة، يتربّع المكتب

* أقبية مكناس.

الخشبّي القديم. أمامه كرسيٌّ دوّارٌ له ذراعان مشدودتان إلى قاعدته اقتناه، كما أخبرني، من بائع أثاثٍ مهاجرٍ. ذاك هو محراب جواد. يطالبه المكتب بأن يجلس إليه. والكرسيّ يفتح ذراعيه داعيًا إيّاه إلى الارتماء في الحضن الدافئ.

وذاك الدفتر السميك يغريه هو أيضًا كي يقلِّب صفحاتٍ كتبَها وأخرى شطبَ عليها بالقلم الأحمر. لا يكاد يقنع نفسه بالجلوس إلى المكتب حتّى يولّي مبتعدًا. كان يهاب الكتابة. فيجرّ قدميه جرًّا إلى الكرسيّ. يجلس أخيرًا فيحسّ بذراعَي الكرسيّ تضغطان فوق خاصرته. يسحق عقِب السيجارة في مرمدة، ويحتسي من الكأس جرعاتٍ ثلاثًا خفيفةً ويضعها جانبًا على يمينه فوق المكتب، ثمّ يمدّ يدَيْن مرتجفتَيْن إلى حزمة الأوراق البيضاء. يحاول أن يقف بقدمين ثابتتين على أرض الحكاية. يمسك بالقلم ويُشهِرُه في وجه الورقةَ البيضاء. يحاول أن يوقظ الكاتب النائم بداخله ليتولّى إعادة إعمار مدينة وَليلي الأثريّةِ الّتي هجرتْها الحياةُ والحكايةُ منذ قرونٍ طويلة.

ولكن، رغم المحاولة، لم ينجح قلم جواد في كتابة كلمةٍ واحدة، وإبرام أوّلِ موعدٍ مع الكلمة المتمنِّعة.

***

**الجمعة 16 شتنبر 1994**

حلّ الليل فتهيّأ جواد بعزمٍ أكبر هذه المرّةَ لبدء طقوس الكتابة: وجبةٌ خفيفة، وقدحٌ من القهوة الساخنة، ورزمةٌ من الأوراق البيضاء. بدّل ملابسَه بما يليق لإغواء عناد الكلمة. (تمامًا مثلما يحصل معك أنتِ

أيضًا يا أريادنا. أنتِ تلبسين تنانيرَ قصيرةً لإغواء الحِبر المُكابر). ارتدى كنزةً دافئةً بياقةٍ مستديرةٍ وبنطلون نايك قطنيّ. وجلس أمام المكتب بعد تردّدٍ كسول. احتسى رشفةً من القهوة وسحب إليه رزمة الأوراق.

أخذ يطارد فكرة الرواية. فكانت تتبدّى له وما تفتأ تتلاشى من بين أصابعه كما يتلاشى بخار القهوة. أشعل سيجارةً فانقدحت الفكرة في مخيّلته مختالةً. رمَّد خطوطَ دخان السيجارة في صفحةٍ أولى مقاومًا رُهابَها الأبيض. قفز قلمه إلى صفحةٍ أخرى عذراء. فتَق بياضَها بالحبر الأسود الّذي يروقه أن ينقش به أرض النصوص العصيّة العنيدة المزاج. صفحتان. ثلاث. قرأ الصفحات الثلاث. فألفى أنّ ثمّة شيئًا ناقصًا في ما كتب. لم يقنعه ما مجَّه قلمه من كلِمٍ، فكرمش الأوراق الثلاث. ورمى بها في سلّة المهملات الرابضة تحت المكتب.

هبّت نسمةٌ من النافذة فعبرتْ جسدَه رعشةُ بردٍ قارس.

لقد نسي أن يغلقها عندما حلّ الظلام. فقام وأطلّ برأسه من إطارها. كان الليل في الخارج هادئًا إلّا من وشوشاتٍ تُحدِثُها الريح الخفيفة وهي تراود غصونَ الزيتونات وأشجار الأوكاليبتوس المحيطة بالبيت. أحكمَ إغلاق دفّتَي النافذة، ثمّ وضَع على كتفَيْه معطفًا مبطّنًا، وخرج ليتنسّم هواء الليل البارد المعبَّق برائحة أشجار الزيتون ورائحة الزمن المندلعة من الموقع الأثريّ المجاور. (فضاء شاعريّ لطالما غبطتُ جوادًا عليه). وفي الحوش دخّنَ ثلاث سجائر. دخّنها بفتورٍ، كأنّه يرمّد بها خيبة البداية، خيبة الصفحات الثلاث الأولى.

# الفتى الموريّ

## (رواية)

## جواد الأطلسيّ

لا تبحث عن الكلمات، ابحثْ فقط عن الحقيقة والفكرة، عندئذ تتدفّق الكلمات من دون أن تسعى إليها.

*هوراس*

المرأة تحبّ بكلّ قلبها والرجل يحبّ بكلّ قوّته.

*ماركوس أوريليوس*

انتظرتْ شيوخُ روما –تحت قوس النصر– قاهرَ الأبطالْ

ونسوة الرومان بين الزينةِ المُعربدهْ

ظَللْنَ ينتظرْن مَقْدَم الجنود

ذوي الرؤوس الأطلسيّة المجعّدهْ

*أمل دنقل*

# سيلينا

مُذْ عرفتُه تبدّلت حياتي. لم يكن فتًى عاديًّا على الإطلاق.

في ليلةٍ شديدة المطر، جاء إلى الحياة. كانت ليلةً ليلاء ملأ فراسخَها الطويلةَ برقٌ ورعدٌ وبردٌ قارس. أطلّ برأسه الكبير على العالم بعد أن مكث في بطن أمّه أكثرَ من عشرة أشهر، حتّى يئست الأمّ من خروجه حيًّا من غيابات رحمها.

هكذا بدأ يحكي لي أيدمون عن ميلاده الّذي وشمَ ذاكرةَ أمِّه وأبيه وأخته. الجارة الخبيرة بأمور النساء اضطلعت بدور القابلة. اندفعت في الليل البهيم تحت جنون المطر وسعار العاصفة نحو الكوخِ المتاخم لإحدى الضِّياع المحيطة بمدينة وَلِيلي. كان كوخًا صغيرًا لا يضمّ سوى حجرتَين اثنتَين. في إحداهما استلقت الأمّ النفساء جوار موقد النار غارقةً في أنينها ومائها. كان ماء المخاض يتدفّق منها بغزارة. دخلت القابلة فوجدتْ جارتَها السمينة، الّتي طال حملها، تئنّ أنينًا موجوعًا. كانت تمرّ عليها موجةٌ من الأنين فيُغشى عليها من شدّة الآلام، وتفيق فتنبري لها الآلام الفظيعة من جديدٍ مُقطِّعةً أحشاءها، ثمّ تعود إلى إغمائها. أدركت الجارةُ أنّ الآلام لم تكن عاديةً بتاتًا. فبنية المرأة قويّةٌ ولم تكن تلك ولادتها الأولى. حدست الجارة أنّ النفساء بها علّةٌ أو أنّ الجنين كبير الجسمِ، أو لعلّه صار بداخل الرحم مجرّد جثّةٍ لا نبْض فيها.

أحضرت الماءَ الساخن وتهيّأت لبدء الولادة. أطلّ الرأس الكبير، فتوجّست القابلة خيفة. سحبت الرأس بيدين تقاومان ارتجافهما،

وظلّ الجسد عالقًا بين جدران الرحم. وبعد زفرات الدفع وشهقات أنينٍ حادّة، خرجَ جسدٌ مكتنزٌ لا يخاله الناظر إلّا لطفلٍ شارَفَ على مرحلة الحبو. غابت الأمّ في إغماءةٍ طويلة. وقرصت القابلةُ الطفلَ مرارًا لعلّه يصرخ صرخةً يعلن بها عن قدومه إلى الدنيا، لكنّه لم يأتِ ولا بِنَأْمَة.

ذهب الظنّ بالأب إلى أنّ ابنَه وُلد أبكم ولا أمل في سماع صوته مستقبلًا. ولم ينبس أيدمون بصوتٍ حتّى أتمّ حولَه الأوّل.

# أيدمون

كواحدٍ من فتيان المور، نتأتُ في هذا السهل المترَع بأشجار الزيتون. أرعى قطيعًا من الأغنام في هذه الحقول المترامية الأطراف. أجلس تحت ظلال زيتونةٍ وارفةٍ وأمضي أعزف على نايٍ قصبيٍّ صنعَتْه يداي. أعزف لحنًا لشياهي. أعزف لكلبي إيلاسن الممدّد في دعةٍ بجانبي. أعزف للسهل وللمدى. أتعب من العزف. فينزلق الناي من أصابعي لينام في حضني. وأنام أنا أيضًا متّكئًا إلى جذع الزيتونة. تأخذني سِنَة نومٍ لذيذة، وتطوّح بي في دنيا حلمٍ غريب.

رأيتُني في دنيا الحلم أسير تحت سماءٍ ترابيّةِ اللون. وشياهي تتبعني متراصّةً خلفي وقد اكتسب صوفُها لونًا أحمر. ألتفت إليها فأراها بأحجامٍ غير طبيعيّة. بدت لي كلّ شاةٍ بحجم دابّة. كانت تثير نقعًا أحمر بأقدامها الّتي غدت حوافرَ ضخمة. الشياه خلفي تطاردني وأنا أركض أمامَها وأصرخ..

واستيقظت فزعًا على وقع صرخةٍ مندلعةٍ من فمي جَفَلَ لها إيلاسن، فهبّ واقفًا ينبح نباحًا شبيها بالنحيب. مددتُ يدي إلى قرابي واستخرجتُ زقَّ ماء، شربتُ منه ورششتُ به وجهي. وفي العشيّ عندما مالت الشمس عن كبد السماء، سمعتُ صدى صوتِ إنشادٍ جماعيٍّ قادمًا من غرب السهل. رفعت عينيّ وبسطت كفّي واضعًا طرفها على جبهتي. ورأيتُ من جهة الغرب سحابةً كبيرةً من غبارٍ تتصاعد إلى عنان السماء. كان الوقت خريفًا والأرضُ جافّةً، فَعَلاَ غبارُها يعانق السماء.

لم تكن عاصفة. فالمنطقة لم تعرف عاصفةً ترابيّةً منذ أن فتحتُ عينيَّ على هذا السهل الوسيع.

وأبي لم يحكِ لي شيئًا عن أسراب غبارٍ تعانق السماء. الموريّون ضربتهم المجاعات، وجوائح البُرداء وسحقتهم الأعاصير المطريّة، لكنّ اندلاع عواصف ترابيّةٍ في منطقةٍ خصبةٍ تستعدّ لاستقبال موسمٍ زراعيٍّ جديدٍ أمرٌ غريبٌ على العين والعقل. فما يكون ذلك الغبار؟ دسستُ الناي وزقَّ الماء الفارغ في جرابي. وهششتُ على أغنامي بسرعة. كانت خبطاتي بالعصا في الهواء من القوّة والارتباك حتّى إنّ أغنامي الطيّعة استغربت واستنكرت هشِّي عليها بتلك القسوة وبذلك الصوت الجهوريّ المخيف. انساقت الشياه في كتلةٍ واحدةٍ وانطلقتُ أعدو خلفَها في اتّجاه كوخنا القائم غير بعيدٍ عند منتهى السفح الجبليّ الّذي تغطّيه أشجارُ الزيتون. لمّا وصلتُ بأغنامي إلى الزريبة، وجدتُ أبي وأمّي وأختي خارج الكوخ واقفِين وقد اشرأبّوا بأعناقهم نحو سحائب الغبار الّتي غطّت منحدرَ التّل، وهناك ظهرَ صفٌّ من الفرسان، وخلفهم صفوفٌ أخرى. ثمّ ما فتئت الأعلام الحمراء الغريبة تظهر. مرّ «رقّاص» غير بعيدٍ من الكوخ، فصاح فيه أبي يستفهمه. فردّ الرجل قائلًا إنّها فيالق جيوش الرومان.

حلّت فيالق إضافيّةٌ من جيش إمبراطوريّة روما بعددٍ لم يرَ الأهالي مثلَه من قبل. وخرج الجميع لمشاهدة الفرسان بزيّهم الحربيّ المخيف وسيوفِهم ودروعِهم الثقيلة. كانوا متّشحين بعباءاتٍ حمراء وخوذاتٍ عجيبةٍ متوّجةٍ بِشُرابةٍ مثيرة. فيالق جاءت لتُوقفَ هجمات الموريّين الثوّار. بعثها الإمبراطور، كما أوضَحَ لي أبي، لتسكُن وَلِيلي فتتصدّى لثورات قبائلنا المعتصمة بالجبال، والقابعة وراء التحصينات العسكريّة

الرومانيّة الّتي يسمّونها «الليمس». وَليلي ستتحوّل إلى مستوطنةٍ كبرى للجنود الرومان. لذا دُعِمَ الجيشُ بمزيدٍ من الفرسان لجعلِ المدينة معسكرًا دائمًا مجهّزًا بكافّة الاحتياجات الأساسيّة لجنود فرق الاحتلال، بهدف مراقبة تحرّكات قبائلنا الموريّة.

كانت مدينة وَليلي هناك تحتنا. نطلّ عليها من موقع كوخنا في سفح الجبل المُشرف على السهل. شُيّدتْ حولها، في أماكن متفرّقة، ضيعاتٌ وأكواخٌ عملاقةٌ يسكنها المزارعون والمستأجرون أمثالنا. نفتح أعيننا كلَّ صباحٍ على بناياتها الضخمة وعلى معبد الكابِّيتول العجيب البناء. وما لبثت ضواحيها أن أحيطت بأسوارٍ شاهقة. الحاضرة الرومانيّة المسوّرة يسكنها الملّاكون، أهل الطبقة الأرستقراطيّة الحاكمة، ومنهم قدماء المحاربين في الجيش الرومانيّ والمستوطنون التجّار والمرابون وقلّةٌ من السكّان الأصليّين الموريّين. وسأعرف من أبي، في ما بعد، أنّ هؤلاء يتمتّعون بالرعاية القانونيّة وبحماية المفوِّضِ العسكريِّ المشرفِ على مقاطعة موريتانيا الطنجيّة*. أمّا البقيّة من صنّاعٍ وحرفيّين وعمّالٍ وصغار التجّار فقد اعتُبروا سكّانًا لا مواطنين أطلق عليهم اسم «الأحرار». وأمّا الفلّاحون الذين يعيشون في الغالب خارجَ أسوار المدينة وفي ضيعات المُلّاك فهُم من طبقةٍ أحطّ شأنًا، لذا لم يبلغهم تقدّم مدينة وَليلي ورقيّها ولا نالوا منهما شيئًا. لقد كانت في مِلكيّة أغلبِهم مَزارعُ شاسعةٌ وأراضٍ خصيبةٌ انتُزعتْ منهم عندما عجزوا عن أداء ضرائبَ فادحةٍ فُرضت عليهم. وفي خصوص وضعنا القانونيّ أنا

---

* كان على رأس مقاطعة موريتانيا الطنجية وكيلٌ مباشر برتبة بروكيراتور (Procurator) مفوَّضٌ من قِبَلالإمبراطور.

وأسرتي، فنحن في صفوف الأحرار الذين يفتقرون إلى المواطنة. نحن الأحرار لسنا مواطنين لكنْ يحقّ لنا أن نعيش في العالم الرومانيّ ونشتغل في حِرَفٍ نتقنها.

وعرفتُ أيضًا، وأنا أكبُر، من بين الكثير ممّا سأعرفه في ما بعد، أنّ الأراضي المترامية الأطراف في محيط وَلِيلي تركّزت ملكيّتها في أيدي رجالٍ قليلين من سكّان المدينة الذين ينتمون إلى أعلى طبقةٍ في الأرستقراطيّة الإمبراطوريّة. بل إنّ الإمبراطور نفسَه على رأس هؤلاء الملّاك. واستغربت كيف أنّ للإمبراطور، رغم الأقطار الكثيرة من المعمور الّتي يحوزُها، نصيبًا في هذه الأرض، أرضنا كما يحلو لأبي دائمًا أن يقول. فقد كان جدّي يملك أرضًا شاسعة المساحة قبل حلول الرومان بالمدينة وإحكامهم قبضَتَهم عليها. انتُزعت منه الأرض. وحتّى يظلَّ في إحدى ضِياعه، اضطرّ، شأنه في ذلك شأن الفلّاحين الصغار الذين كانوا يملكون الأراضي في وَلِيلي، إلى استئجار رقعة الأرض الّتي كانت في ملكيّته ولم تعُدْ. ولم يرث أبي منه غير العمل في رقعة الأرض تلك، الأرض الّتي تحوّلت إلى ضيعةٍ كبيرةٍ يحوزُها أحدُ المُلّاك الرومان، ضيعةٍ عشنا جوارها، في كوخٍ متواضع، نعتاش من محصولها ومن قطيع الأغنام الّذي نملكه، على غرار الكثير من الموريّين الذين كانوا بَدْوًا جبليّين ومزارعين ومربّي مَواشٍ متنقّلين بين السهوب. لقد عشنا حياة بدائيّة، إذ لم تكن لنا مدارس أو ساحاتٌ أو حمّامات. كلّ ما كان لدينا هياكل ومعابد لآلهة المور. وسوف يغدو عيشُ الموريّين عسيرًا منذ تحوُّلِ الأراضي إلى ملكيّة الإمبراطورية. لكنّ قبائل المور عُرفت بقوّتها وكثرة عددها وتحرّكاتها المستمرّة الّتي شكّلت ضغطًا مقلقًا على الاستعمار الرومانيّ في ولاية موريتانيا الطنجيّة كلِّها وفي نواحي وَلِيلي بالخصوص. وتروجُ أخبارٌ تقول إنّ هذه القبائل اتّحدت وانضوت تحت

تحالفاتٍ واتّحاديّات، أبرزها اتّحاديّة «الباكاواط» الّتي تحالفت مع قبائل «الماكنتيّين»، فصارتا مصدر تهديدٍ حقيقيٍّ للسلطة الرومانيّة في وَلِيلي، لذلك بعث الإمبراطور ماركوس أوريليوس* هذا الجيش العرمرم لإخماد ثوراتهما وتأمينِ مصالح الإمبراطوريّة بالمنطقة.

* تولّى منصب الإمبراطور في الفترة ما بين سنتي 180 161م.

# سيلينا

أنا سيلينا. ينادونني سيلي أو سيلين. جئت إلى أرض المور وأنا طفلةٌ صغيرةٌ لم تتخلّص بعدُ من قِماط الرضيعة. كان أبي من قدماء محاربي الجيش الإمبراطوريّ بشمال إفريقيا. وقد تسلّم، مثل كثيرين من الجنود الرومان المهاجرين، قطعةَ أرضٍ كبيرةً هنا بهذا السهل الخصيب. استثمر الأرض وأقام بها ضيعةً تدرّ علينا اليوم أموالًا ومحاصيلَ وفيرة. وحصل هنا في وَلِيلي على بيتٍ عتيقٍ فأعاد بناءه على الطراز الرومانيّ. أمّا الضيعة فأجّرناها لمزارعٍ موريٍّ أمينٍ يُغرقنا بالهدايا والغلال في مواسم الجني والحصاد.

ومثلنا تمامًا، استوطنتْ عائلاتٌ رومانيّةٌ كثيرةٌ هذه الأرض. وجاءها المهاجرون بالآلاف. استقرّوا في هذه المدينة الزاهرة المسمّاة فوليبيليس (silibuloV)، العاصمة الداخليّة لمقاطعَةِ موريتانيا الطنجيّة، المقاطعةِ الرومانيّة الممتدّة من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسيّ غربًا. المستوطنون الرومان تَمّ إعفاؤهم من الضرائب. مُنِحوا امتيازاتٍ أخرى لتشجيعهم على تعمير هذا القطر الخصيب. أقاموا هنا فاستثمروا أموالَهم في أرض خصيبة تُدِرّ عليهم منتَجاتٍ زراعيّةً وفيرةً ولا سيّما القمح والزيتون. اقتنوا العقّارات بطرقٍ أو بأخرى. بنوا بيوتًا فخمةً على الطراز الرومانيّ في هذه المدينة الّتيما فتئت تكبر يومًا بعد يوم. العمران استمرّ بـِفوليبيليس، فأحدث في النهاية تغييرًا شاملًا في هويّة السكّان، إذ بدؤوا يتعلّمون اللغة والحضارة الرومانيّتَين.

تلقّيت تعليمي هنا بمدرسة فوليبيليس النظاميّة الّتي أنشأها الرومان في القرن الماضي. أحبُّ الأساطير والآداب اليونانيّة. أسكن مع والدي وخادمتنا أوكتافيا بالحيّ الشرقي. أمّي ماتت بعد معاناةٍ مع مرضٍ في الصدر كتَمَ أنفاسها. لَكَمْ أشتاق إلى حضنها الدافئ. كانت أمًّا رقيقةً وكبيرة القلب. تحمل في جوانحها رصيدًا لا ينضب من العطف والوداعة. أتذكّر ضفائرها الذهبيّة الطويلة وهي تطلّ من تحت طرحةٍ بيضاء تفضّل دائمًا أن تكلّل بها رأسَها اللطيف. حروف جمالٍ روميٍّ أصيلٍ تنحت معالمها على تقاسيم وجه ملائكي لا يشيخ. امرأة أحبّت الحياة فأحبّها كلُّ من عرفها. تلك كانت أمّي. امرأة طويلة منجردة العنق. يقول أبي إنّي ورثتُ جمالها ووداعتها أيضًا. مرّ على موتِها عامٌ وبضعةُ أشهر. علّمتني أن أكون في مثل عذوبتها وخفّة ظلّها، أن أكون نسمةً تنثر عبق الأزاهير حيثما عبرَتْ ومرّت. أمّاه الحبيبة كم كنتِ جميلةً وأنتِ في أوج شبابك وبداية كهولتك! كبُرتِ ولم تعرف الشيخوخة طريقها إلى تفاصيلك. كم كنت جميلة في عينيَّ كلَّ صباحٍ وأنت تحملين بين أصابعك الطويلة مشطًا أحمر وتنبرين إلى سحبه بكلّ ذلك الحبّ الدّافق على شعري الطويل. ومنذ رحلتِ حزن شعري على الفقد الكبير الّذي تركتني واقفةً على تخومه. بات متغضّنَ الخصلات متموّجًا وملتويًا يأبى العبور إلى مساحات الألق. شيء في شعري انطفأ. وعرفت أنّ ذاك الشيء هو لمستك الحنون. لكَم افتقدتك! يا أجمل أمٍّ وشمتْ دنياي وصنعتْ فرحها الغالي، فلترقدي بسلام وليرْعَك ربّ السماوات.

لم تكن خادمتنا أوكتافيا تتعب من الحركة والكلام. فهي دائمة النشاط. تبعث في بيتنا دفءًا سخيًّا لا ينضب. هي الشمس الّتي تضيء هذا البيت. أستيقظ صباحًا على صوتها الرقيق وهي تترنّم بأناشيد هوراس. نجلس إلى طاولة الطعام فتشرع في غزْل ألوان الحديث في مواضيع

شتّى. تلحّ عليَّ في أن أرافقها أثناء خروجها إلى المخبزة أو لقضاء شأنٍ لدى محلٍّ من محلّات الشارع الكبير.

# أيدمون

أنا أيدمون الابن الأصغر لأبي وأمّي المنحدرَيْن من إحدى أعرق القبائل الموريّة. وَلِي أختٌ واحدةٌ تسمّى تامدا. أخرج من كوخنا عند طلوع الفجر. وأنزلق بين حقول القمح وآجام الزيتون متّجهًا إلى البوّابة الشماليّة للمدينة. أسير بخطًى حثيثةٍ واثقةٍ لألتحق بالعمل في مخبزة وَلِيلي، تلك القائمة في وسط المدينة، خلف الساحة العموميّة. وقد حصلتُ على ذلك العمل القارّ، بأجر قطعةٍ برونزيّةٍ واحدةٍ في اليوم، بوسَاطة مَلّاكٍ مورِيٍّ كان من أصدقاء أبي المقرّبين. وكم أحببت هذا العمل! كان متنفَّسي اليوميّ الوحيد وبطاقة عبوري إلى فردوسنا الموريّ المفقود.

كانت تأتي إلى المخبزة شابّة سمينةٌ كثيرة الكلام. وتأتي معها من يومٍ إلى آخر فتاةٌ شقراءُ ما رأيتُ أجمل منها. وكان الخبّاز الموريّ «باها» رجلًا ضحوكًا يكثر من سرد النكت البذيئة. ويجيد الحديث بالرومانيّة ويعلّمني كلماتٍ منها. أسمعه يرطن بها في الردهة المفتوحة للزبائن. وحين أسأله عن معاني الكلمات يردّدها ويترجمها لي بالأمازيغيّة، فأحفظها بسرعةٍ، وفي الغد أستظهر له كلَّ الكلمات والجمل الّتي ذكرها لي. ولكم أثار دهشتَه أن أحفظ جُمَلًا طويلةً عن ظهر قلب. وكنت أحرص على أن أحدّثه بالكلمات الجديدة كي أتدرّب على النطق بها.

ثمّ إنّ أختي تامدا دبّرَ لها صديقُ أبي عملًا مريحًا لدى سيّدةٍ رومانيّةٍ أرملة. تمكث عندها طوال النهار لمساعدتها في أشغال البيت. هي أيضًا صارت تتعلّم من مشغِّلتها كلماتٍ جديدة. بل وتعلّمت منها طريقةَ

كتابة الأحرف الرومانيّة باستعمال الحبر وأقلام الفحم. وعندما نعود إلى كوخِنا نتبادل الكلام بالرومانيّة أو اللاتينيّة كما يسمّونها. نتنافس على حفظ الكلمات الجديدة ورسم حروفها بالفحم. وكم كان أبي وأمّي ينظران إلينا بدهشةٍ وهما لا يفقهان شيئًا ممّا نقول. وصرتُ ألحّ على أختي في أن تُقاسمني ما تعلّمته من خطٍّ وتهجية حروف اللّاتينية.

ذات مساءٍ، جاءتني تامدا بكتابٍ مصنوعٍ من رقوقٍ كانت الحروفُ فيه مرسومةً، وقد أهدته إيّاها السيّدة الرومانيّة. وبمساعدةٍ من أختي تعلّمت الحساب. وتعلّمت الكتابة. كانت أختي ذكيّة. ولم أكن أقلّ ذكاءً منها. فأخذنا نسابق عمرَنا الغضّ لإتقان اللغة الجديدة رغم الاختلاف بين اللّاتينيّة المنطوقة واللّاتينيّة الكلاسيكيّة المكتوبة في بعض المفردات وفي القواعد.

تلك الشّابّة السمينة الكثيرةُ الكلام عاودت إطلالتَها هذه المرّة إلى المخبزة، ومعها الشقراء الجميلة. وكم سُحِرتُ بتلك الغيداء السّامقة ذات الشعرِ الغامقِ الصّفرة كالإبريز. ملأتُ القفّة القصبيّة الكبيرة بالخبز الخارج لتوّه من الفرن، وحمَلتُها متمايلًا إلى غرفة التسليم. وَضعتُها على الطاولة الكبيرة الّتي تتوسّط الغرفة، ورفعت عينيَّ إلى المدخل العريض حيث يقف الزبائن في انتظار دورهم لتسلُّم الخبز، فرأيتها. إلهي من أين للروميّات هذا الجمال الساحق القاسي المعذّب الرّهيب!؟ ما إن وقعَتْ عيناي عليها حتّى عبرتْ أضلعي ارتجافةٌ، وصمتت أصواتُ الزبائن في باحة المخبزة، وتوقّفت ألواح العجن الدّوارة عن خلط الطحين المبلول، وانكتَمَ هديرُ اللهب في قلب الفرن، كأنّه انتقل بلظاه إلى قلبي. نظرتْ إليّ نظرةً خاليةً من أيّ تعبير. وكم كانت نظرتها ناعمةً يا ربّ السماء! أفرغتُ القفّة القصبيّة من الخبز على الطاولة أمام الشابّ

الرومانيّ المكلّف بالبيع. وأعدتُها إلى حجرة الفرن، وانطلقت مهرولًا إلى كوّةٍ تشرفُ على الفناء، كانت دفّتها اليمنى مواربة، أطللت منها فرأيتها مرّة أخرى. ما أجملها يا ربّي في ثوبها الأحمر ذاك! فتحت الدفّة الثانية فاصطدمتْ عيناي بعينيها. يا لنظرتها الناعمة! شعرت وكأنّ حبلًا متينًا يمتدّ من عينيَ تلك الشقراء فيلتفّ بي ويمنعني من الحركة. وبدأ قلبي يدقّ في أذني، وطفقتْ ارتجافةٌ لذيذةٌ تعبر أضلعي كلسعات يعاسيب شاردة. سوّت الشقراء خصلةً هاربةً من شعرها، وأعادت إليّ عينيها السّماويّتَيْ الزرقة، ثمّ استدارت وغادرت مع رفيقتِها السمينة.

عقِب انصرافها حدث ما لم يكن في الحسبان: وأنا واقفٌ جوار الكوّة مستغرقًا في اجترار نظرتها الّتي لسعَتْ قلبي، أسندتُ جسدي إلى خشبةٍ كانت لصيقةً بالجدار الّذي خلفي. لقد نسيت لحظتئذٍ أنّي كنت مستندًا إلى لوح الخَبيز الممتلئ بقطع عجينٍ تنتظر الاختمار. كانت الألواح مثبّتةً في الجدار على شكل رفوفٍ تختمر عليها قطعُ الخبز المدوّرة قبل أن تُنقَل إلى حجرة الفرن. غير أنّ حركتي الساهية تلك أسقطت أرضًا أكثر من عشرين قطعةً، فانبعجت والتصق بها غبار الأرضيّة. وصادف حادثَ السقوط المروِّع ذاك حضورٌ مباغتٌ لمالك المخبزة الرومانيّ الأكرش. نتأ فجأةً كشبحٍ في مدخل الغرفة القليلة الإضاءة، وصرخ في وجهي وهو يتفحّص العجين الضائع، ثمّ لهج بكلماتٍ لاتينيّةٍ جديدةٍ على قاموسي لم أفقه منها ولا واحدة. لكنّي فهمت من سبّابته الّتي أشار بها في عنفٍ نحو الباب، أنّه يطردني. اتّجهت نحو الباب الخارجيّ، ولم تنفع مع قرار الأكرش توسّلاتُ بَاهَا الخبّاز الّذي تناهى إليّ صوتُه وهو يلتمس من الرّوماني أن يبقيني عاملًا مساعدًا معه.

خرجت من هناك ورأسي شاردٌ لكنّه مرفوع. فلم أرضَ له أن ينحني لهذا الأكرش لاستجدائه العفو والغفران. ورحلتُ دون أن ألتفت ورائي ولو لإلقاء نظرةٍ على فناء المخبزة حيث وقفت الشقراء الروميّة قبل لحظات.

# باخوس في العيادة

## (مذكّرات)

## نوال الهناوي

انتشرت عبادة باخوس في أنحاء طيبة، وراحت خالته إينو تتحدّث عمّا يُروَى من جبروت الإله الجديد، وكانت الوحيدة مِن أسرتها الّتي لم ينلها سوء. ولم يُحزنها شيءٌ إلّا ما حاقَ بشقيقاتها..

*الشاعر أوفيد*

الرواية استشفاء خياليّ.

*أحمد السباعي*

أن تموت واقفًا خير من أن تعيش تحت الأقدام.

*فيرجل*

# عيّاش

الثلاثاء 29 دجنبر 1992

لم أفكّر يومًا في تدوين مذكّراتي مع مرضايَ حتّى صادفت مريضَيْن هزَّا كياني، وأضاءا شموعًا حزينة بداخلي. كانا تُهامي وعيّاش.

قبل أن يتّجه صوب الأريكة، ظلّ عيّاش الحفيان يذرع الغرفةَ ويعصر يدَيه باضطرابٍ واضح. وعندما جلس كان لا يفتأ يخلّلُ بأصابعه شعرًا كثيفًا غزاه الشّيبُ. يشبك الأصابعَ ويفرك كفَّيْه ضاغطًا عليهما بين فخذَيه. يحني رأسه قليلًا. يظلّ على تلك الحال برهةً لا يريم. يرفع عينَيه ناحيتي. فأنظر في سوادهما الباهت. بدا جليًّا أنّه شعر بارتباكٍ لمجيئه إلى هنا. أجلسُ قبالتَه على كرسيٍّ مكسوٍّ بجلدٍ أبيض. فيفتح شفتَيه ليتحدّث:

- لم أكن أريد أن آتي. ابني المهدي أصرّ على ذلك. ألا أبدو لك أنّي بخير؟

كان عيّاش واعيًا بحدّة الاضطراب النفسيّ الّذي أصابه إثر سجنه سنواتٍ طويلة. ولتصحيح هذا الاضطراب وجد نفسه مُلزمًا بمراجعة طبيب نفسيّ. لكنّ عيّاش شكّك في العلاج النفسيّ. ولم يقتنع بتجريبِه إلّا بعد إلحاحٍ من ابنه. فشرح له المهدي كيف أنّ علم النّفس والعلاج النفسي أثبتا جدواهما علميًّا، وأنّ عشرات الآلاف من الطلبة يتخرّجون، سنويّاً، في مختلف دول العالم، مُختصّينَ في هذا النوع من العلاج.

أنا بدوري أمضيتُ سبع سنوات في الطبّ العامّ، ثمّ درستُ أربع سنوات أخرى لإكمال اختصاصي في الطبّ النفسيّ بمونبلييه مع التّدريب في مستشفى للأمراض النفسيّة بالمدينة نفسِها. تخرّجتُ بعدها، وعدتُ إلى بلدي، لأفتح عيادتي الخاصّة بمكناس. ولا أخفي هنا الضّغوط الكبيرة الّتي عانيتُها، وأعانيها، بصفتي ممتهنةً العلاجَ النفسيَّ، إذ كثيرًا ما أجدني مشغولة بتحقيق الأهداف المادّيّة أكثر من حِرصي على صحّة المرضى. أعاني الإرهاق وانخفاض الروح المعنويّة، فأغدو فريسةً للاكتئاب والتوتّر. فتختلط عندي مشاعر التعاطف مع المرضى والإحساس بالفشل. فأجدني في النهاية، أنا الطبيبة النفسيّة، في حاجة إلى علاج!

- ابنك يقول إنّك تعيش حالة اكتئاب، وتتجنّب الحديثَ مع الناس، تنزوي عن الآخرين، وترتابُ منهم. صرتَ متبلّد المشاعر غير قادر على التأقلم والعيش في منزلك، وتارةً تتحدّث مع نفسك بصوتٍ مسموع. وأحيانًا تقوم بأعمالٍ قهريّة كأن تجمع الحِجارة وتعدّ أعمدة النور وتحصي السيّارات العابرة في الطريق. أَهَذا كلُّه صحيح؟

- في الغالب لا أميل إلى مخالطة الناس، لا أثق بهم. أفضّل أن أبقى وحدي.

- إنّها حالة «انزواء ما بعد السجن». فالمعتَقَلُ تتملّكه مشاعرُ الخوف والإحساس بالظلم وتوقّع الأذى من الآخرين. وتظلّ تلك الأحاسيس ترافقه لفترة من الزمن، تستمرّ حتى بعد الاعتقال. وماذا عن حديثك مع نفسك؟

- لا أدري.. ربّما أسهو فأكلّم نفسي أحيانًا.

- أكلّ هذا بسبب السجن؟

- ربّما.

- هل غيّرك السجن؟

- كلّيًّا.

- ماذا غيّر فيك؟

- تجربة الحبْس تقسّي القلبَ يا دكتورة. لقد أُدِنْت بعشر سنوات سجنًا إثر محاكمةٍ جائرة. أشعر أنّي سُجِنتُ دهرًا. وأنا خارجٌ من السجن في السادس عشر من شهر غشت الماضي، شعرتُ أنّ عمرًا اقتُصّ منّي بالخطإ، بمِقصّ ضخمٍ وظالمٍ. لقد أخذوا قطعةً منّي.

نطق الجملةَ الأخيرةَ بأسًى طاعن، واختلجت ملامحُه بسيماء رجلٍ خمسينيٍّ قضّى زهرةَ عمره وراء قضبانٍ لا ترحم.

- إنّ ما قلتَه حتّى الآن، وما يصدر عنك من تصرّفات، كما حكى لي ابنك، يكاد يُطابق ما نلاحظه من أعراضٍ لدى أولئك الّذين يعانون من آثارِ صدمةٍ نفسيّةٍ بعد تعرّضهم لحادثةٍ أو ألمٍ نفسيٍّ شديدٍ أو اعتداءٍ جسديٍّ لا يُحتَمل. وقد عاينتُ حالاتٍ كثيرةً من هذا النوع. أنت الآن تعاني من اضطراب ما بعدَ الصدمةِ يا عيّاش. فقد تعرّضت في السجن لصدمات كثيرة. صدمات لم تستوعبها إلى حدّ السّاعة؛ صدمة أن تُسلَب منك الإرادة والحرّيّة عشرَ سنوات، وصدمات التعذيب، وصدمة الألم النفسيّ الّذي خلّفه فيك الاعتقال. أنت لن تستوعب هذا ولن تتَقبّل حدوثه ما لم تُبرِّره وتفسِّره بشكلٍ منطقيٍّ. لذا تظلّ

محبوسًا في دوّامةٍ لن تخرج منها كلّيًّا إلّا بمواجهة ما وقع لك، واستعادةِ تفاصيل الصّدمات مرارًا وتكرارًا إلى أن تُطرَح وتتبدَّد بشكلٍ يمكّنك من مواصلة الحياة على نحوٍ طبيعيٍّ أو أقلّ ألمًا.

ودون أن يبدو عليه أيُّ تأثّرٍ بكلامي، رفعَ رأسَه، ونظر إلى وجهي نظرةً شاردة تقطر حزنًا وضياعًا. فسألتُه بإلحاحٍ جاعلةً يدي تمتدّ لتربّت على ذراعه، لعلّي أبثّه بعضَ مشاعر الصداقة والثقة.

- أتفهم ما هو مطلوب منك يا عيّاش؟

- سأحاول..

نطق الكلمة الأخيرة بشرود، وعيناه شاخصتان نحو الأرض تنظران إلى اللّاشيء. في الأثناء كانَ يُفرِدُ أصابعه كما لو أنّه يَعُدُّها. يُفرِدُ سبّابته والإبهام، ويُمسِك بهما أصابعَ الكفّ الأخرى إصبعًا إصبعًا، وعندما ينتهي من أصابع الكفّ اليمنى ينتقلُ لِيفعلَ الشيء نفسَه بأصابع الكفّ اليسرى.

# تهامي

**الخميس 10 يونيو 1993**

يصل تهامي إلى العنوان المقصود: العمارة 27 شارع ابن سينا، حيّ المنزه، مكناس. لا شكّ أنّه توقّف أمام باب العمارة وتطلّع إلى الألواح المعدنيّة المثبّتَة على يمين البوّابة، بينها كانت لوحةٌ زجاجيّةٌ ورديّةٌ أنيقةٌ قرأ عليها اسمَ الدكتورة نوال الهناوي الغانمي، اسمي الثلاثيّ الّذي أحمله معي مثل قدَرٍ، طبيبة الأمراض النفسيّة والعصبيّة. الطابق الثالث.

يتجاوز عتبة البوّابة. وعلى يساره تُطالعه عينَا البوّاب الكهل، عمّي المختار، هذا الّذي يعتمر دائمًا بيريّةً رماديّةً يطلّ من تحتها شعرٌ خالطَ سوادَه شيبٌ ظاهرٌ، ويرتدي بذلةَ عمله الزرقاء. عمّي المختار يجلس في الركن خلفَ منضدةٍ مستطيلة، يُغرق وحدته في دخان السجائر.

سيشير لهذا الداخل الأنيق، من خلف الدخان، إلى مكان المصعد على يمين المدخل. وبإيماءةٍ من رأسه يشكره تهامي. يتقدَّم إلى المصعد. يدخل ويمدّ سبّابتَه ليضغط على الرقم 3. ينظر إلى المرآة الكبيرة المثبَتة على جدار المصعد. يسحب نَفَس اطمئنانٍ ويسوّي ياقَة قميصه الأبيض. كان قد ترك زرّيْن مفتوحَيْن لتنحسرَ الياقةُ عن شعرٍ كثٍّ يملأ أعلى صدره. يتوقّف المصعد وتنفتح دفّتاه. يتّجه بقامته الطويلة صوبَ الباب الزجاجيّ في نهاية الممرّ الأيمن. يدفعه برفقٍ ويدخل. فتستقبله راضيةُ، مساعدتي صاحبة الابتسامة السخيّة مع

المرضى. هي ثلاثينيّة، هادئة، وديعة دومًا. تسجّلُ معطياته الشخصيّةَ في دفترٍ سميكٍ أمامها. وبصوتها الخفيض وحركة يدها الأنيقة المصوَّبة نحو الأريكة، تطلبُ منه أن يجلس في انتظار دَوْره.

لم يكن في صالة الانتظار سوى رجلٍ هزيل يضمّ يدَيه إلى صدره وهو مكوَّمٌ على نفسه ينظر إلى فراغ الأرضيّة، شاردًا، بعينَين ساهمتَين منفتحتَين عن آخرهما. يلتفتُ إليه تهامي مرّاتٍ. لا شكّ أنّه (كما خمَّنتُ) حسِبَ شريكه في الأريكة مريضًا بالعصاب أو ضحيّةَ إدمان مخدّرات. تنادي راضيةُ باسم «عيّاش» فينهض الرّجل الهزيلُ ويتّجه صوْبَ باب غرفة الجلسات في شرود وتثاقلٍ.

انقضى نحو نصف ساعةٍ قبل أن ينفتح باب غرفة الجلسات ويخرج عيّاش وعلى شفتَيه طيفُ ابتسامةٍ حزينة. دخلتْ راضية، وسلّمتني ملفًّا فارغًا إلّا من اسم الزائر الجديد. أشارت إلى تهامي بأن يتقدّم نحو الباب المفتوح. ففهم الإشارة، إذ كان الجالسَ الوحيد في قاعة الانتظار. قام بتباطؤٍ. ثمّ دخل وأغلق الباب وراءه. بدا نوعٌ من التوتّر الممزوج بالترقّب واضحًا على ملامحه. إنّه لأمرٌ عاديٌّ أن يتوتّر، فهي المرّة الأولى الّتي يزور فيها طبيبةً نفسيّة. وجد صاحبة البذلة البيضاء منتصِبةً بقامتها القصيرة عند النافذة غير بعيدٍ عن مكتبها الأبيض.

كُنت قد ولّيتُه ظهري واقفةً جنبَ زجاج النافذة أنظر إلى المدينة الضاجّة في الخارج. ودون أن ألتفت إليه نطقت اسمَه كاملًا:

- الأستاذ تهامي الاسماعيلي.

رسم على شفتَيه ابتسامةً وهو يحرّك رأسه بتحيّةٍ مقتضبة.

سحبتُ جناح النافذة الزجاجيّ، فران الصمت في الغرفة. نظرت إلى هذا الداخل نظرةً فاحصة. كان في أوج أربعيناته، طويل القامة وعلى درجةٍ قليلة من النحول، بكتفين عريضتين لا تتناسبان وحجم رأسه الّذي بدا صغيرًا. كان شعرُه خفيفًا تلوح في سواده شعيراتٌ شيباءُ قليلة. بدا لي الرَّجُلُ مِن ذلك النّوع المَيّالِ إلى إخفاء المشاعر. أحسست أنّ عينَيْه تختزنان شيئًا من الحزن، ومع الحزن لمستُ في نظرته شيئًا غريبًا. إذ سرعان ما ارتدَّ إليّ، وأنا أتأمّله ثوانيَ معدودةً، شعورٌ بأنّ الشخص الّذي أمامي أبعد ما يكون عن مريضٍ نفسيّ. وخمّنت أنّه قد يكون هنا، في عيادتي، ليمثّل دور مريضٍ ليس إلّا، أو أنّه، على الأرجح، واحدٌ من الأغنياء الّذين أتعبتهم الوحدة وغرّبتهم العزلة فما وجدوا مُنصتًا أمينًا إلى هذيان فتوحاتهم وتراجيديّات إخفاقاتهم، لذا يختارون أن يدفعوا كي يحظوا بأذُنٍ تتقن الإنصاتَ إليهم.

بادلني تهامي نظرةً مرتبكةً أوّلَ الأمر، ثمّ نظرةً طافحةً بندّيّةٍ لامبالية. أشرت إليه بالجلوس على الكرسيّ الجلديّ الأبيض المحاذي للمكتب:

- مرحبًا.. تفضّل. اجلس.

- شكرًا شكرًا.

تمتم تهامي وهو يلقي نظرةً سريعةً على الغرفة ومحتوياتها، ويحاول أن يقيس حجمَ التناغم بين ديكورها وهيئة هذه المرأة الأربعينيّة المتألّقة في بياض بذلتها الناصع. حاول أيضًا أن يطبع في مخيّلته معالمَ الغرفة. فكلّ قطعةٍ من أثاثها ستكون شاهدةً على بَوْحٍ ماراطونيٍّ يخصّ به هذه الطبيبة الّتي قادَه إليها صوتُها الأثيريّ على محطّة الإذاعة المحلّيّة.

لقد بحث عنّي، كما أسرّ لي في الجلسة الثالثة، مُذْ عرف أنّ لصاحبة الصوت الرقيق والطفولي (كما وصف صوتي) وجودًا في هذا العالم. عبْر إذاعة مكناس الجهويّة سمعني ذات نهاية أسبوع، وهو في الفراش يغالب كسَلَه الصباحيّ. سمع صوتي ينثال من المذياع العتيق الّذي يتربّع على منضدةٍ مجاورةٍ لسريره. كنت أتحدّث صباحَئِذٍ، في برنامجٍ تثقيفيٍّ عن كيفيّة التعامل مع الأطفال الّذين فقدوا أحدَ الوالدين، مفصِّلةً حديثي عن فاقدي الأب وفاقدي الأمّ. وشرحت كيف نقدّم لكلّ صنفٍ دعمًا نفسيًّا يناسب حالتهم.

لقد فكّر أوّلَ الأمر، وهو يستمع إلى البرنامج، أنّ الموضوع يعنيه بشكلٍ أو بآخر. وتمنّى لو تحدّثتُ يومَها عن الآباء الّذين فقدوا أبناءهم. تهامي لم يكن يفكّر في الذهاب إلى الطبيب، لا لأنّه ينفر من الأمر وحسْب، بل كان يعتبر أنّ في الاستعانة بالطبيب شيئًا من الهزيمة. لكنْ وهو ينصت إليَّ عبر الأثير، سمع المذيعة تقدِّمني باسمي الثلاثيّ مضيفةً أنّي «دكتورة مكناسيّة صاحبة عيادة للطبّ النفسيّ بحيّ المنزه». حينها تسرّبت إليه الفكرة.

تمنّى لو ينفض على مسمعي سجلّات ذاكرته المعطوبة بالخيبات. حفظ اسم الطبيبة النفسيّة، وآلى على نفسه أن يبحث عنها حتّى يجدها.

لقد تسربتْ إليه عبر أثير الإذاعة تلك الرغبةُ الملحّةُ في معانقة الوجود الحقيقيّ لضيفة البرنامج. وقد استشعر على نحوٍ غامض، وهو يلصق أذنه بصندوق المذياع العتيق، أنّ في صوتي الرقيق بلسمًا شافيًا. آلى على نفسه أن يراني، أن أراه، أن يخصّني بذلك البَوْح الّذي لا ينتهي، ذلك البَوْح المدفون في مهجته النازفة. قد تكون نزوةً من حشد نزواتِه

الّتي أرخى لها حبلَ الهَوَسِ فعانقها ولم يبالِ إن كانت ستشنقه من أوّل لفّة. لكنّه آمن بوجود قوّةٍ تدفعه إلى البحث عن عيادتي. وكأنّ على يديّ، دون سواهما، سيكون خلاصه والشفاء. ولم يكن عسيرًا عليه أن يعثر عليّ ما دام يعرف أنّ عيادتي تقع بحيّ المنزه. كان يكفيه أن يدخل إلى أقرب عيادةٍ أو صيدليّةٍ فيسأل عنّي، ليدلّوه على عنوان البناية. وهذا ما فعله بالضبط. وجد عنواني دون أيّ عناءٍ يُذكر. وهكذا صرت طبيبتَه النفسيّة الّتي أسند إليها مهمّةَ معالجته من انحدارٍ جارفٍ انزلقَت فيه روحُه، ونزفَتْ طويلًا، منذ تسبّب في فقدانه ابنه.

- ماذا عندك يا تهامي؟

هكذا سألتُه وأنا أسحب الكرسيَّ الأبيض الدّوار وأنظر إلى اسمه في ملفٍّ قدّمته لي المساعِدة. ثمّ جلستُ أمام حريفي الجديد الّذي استرخى على الكرسيّ بثقةٍ ولامبالاة.

- تسبّبتُ في مقتل ابني.

لم يبحث عن أثر الاندهاش في عيني عندما نطق العبارة. لفظها من فمه ببرودٍ كما لو أنّه ينطق أكثر العبارات المألوفة في هذا الوجود.

تعلّقت عيناي بجبهته الضّيقة، وشرعتَا تنقّبان في ملامحه عن أثر القاتل الّذي أطلّ بغتةً من أوّل عبارةٍ ينطقها. وتشكّلَ عندي، لحظَتَها، انطباعٌ بأنّ في هيئة هذا الأربعينيِّ شيئاً غامِضًا يُقَرّبه من زُمرة الجانجين، الّذين لديهم استعدادٌ فِطريٌّ للسلوك الإجراميّ. ومع هذا فقد كانت في ملامح تُهامي وسامةٌ شاذّةٌ لا تخلو من فِتنة.

- تريد أن تقول إنّك تسبّبتَ في موته. صحيح؟

- نعم. هذا ما حدث. كنت السببَ في موتِه. ماتَ تحت عجلات سيّارتي.

- احكِ لي سَيِّد تهامي تفاصيل ما حَدث، علينا أوّلاً أن نحصر المشكلة أو الموقفَ التَّعِسَ الذي تعاني بسببه، وذلك قبل المرور إلى تحليله، وبحثِ سبُلِ طرحِه ونسيانِه. هيّا احكِ لي، كيف وقع هذا؟ احكِ وكأنّك هنا وحدك.

استرخى على مسند الكرسيّ واضعًا قدمًا على قدمٍ وكوعُ يده اليُمنى على حافّة المكتب. نظر إليّ بإمعانٍ وتعلّقت عيناه بشفتَيَّ الغليظتين. تنحنح مفكِّرًا في بدايةٍ تليق بحَكْيِه الّذي توقّعتُه أن يطول:

- أنا يا سيّدتي فقدت ابني. وكنتُ سبب هذا الفقد. كانت سيّارتي مركونةً في حوش البيت القرويّ الّذي أسكنه. خرجتُ في ذلك الصباح الأسود متأخّرًا عن موعد العمل. أتذكّر أنّه كان يومًا باردًا سماؤه غائمة. وأنا أعبر عتبة الباب، بخطوةٍ واسعة، تركتُ خلفي الباب مفتوحًا، ولم أنتبه إلى سامي الّذي لحق بي إلى الحوش دون أن أراه. كان في نهاية عامه الثاني، ما كاد يبرح الحَبوَ وقد تعلّم المشي بخطواتٍ متعثّرة. أدرت محرّكَ السيّارة، كانت بهيكلٍ ثقيلٍ متين، فولكس فاغن طراز غولف ٢. وبينما كنت أرجع بها إلى الوراء، لأخرجها من باب الحوش، دهستُ سامي الّذي كان متواريًا خلف السيّارة. دهست جسدَه بالعجلتَين، الخلفيّة أوّلًا ثمّ الأماميّة. ولم أنتبه إلّا والعجلة الأماميّة تهتزّ وتستقرّ فوق جسمٍ صغيرٍ، كان جسمَه.

صمت لوهلةٍ، ثمّ استأنف:

- ألقيت نظرةً إلى أسفل السيّارة فوجدتُه هناك، كانت صدمتي كبيرةً عندما رأيته ممدّدًا بلا حَراك.

لاحظتُ ارتعاشةَ أصابع يُمناه. وامتدّت موجةُ الارتعاش لتشمل يدَه وذراعَه الموضوعة على طرف المكتَب. تَنَحنَح، وَوَاصل الحكي:

- كنتُ واقفًا، يسندني ذهولي. أصيح باسم زوجتي. تهرع إليّ في بيجامتها ومريلة المطبخ تطوّق خاصرتها. تخطف سامي منّي وتضمّه بقوّةٍ إلى صدرها وهي تصرخ. كانت أنفاسٌ واهنةٌ تطلع من فمه وأنفه المدَمَّى. وبسرعةٍ وارتباكٍ انطلقنا بالسيّارة، تلك الخردة، نحو بلدة زرهون المجاورة. أمر طبيب مستشفى البلدة بنقله، على وجه السّرعة، في إسعافٍ إلى مكناس. إذ نتَجتْ عن الدّهس إصابتُه بكسورٍ وجروحٍ متفرِّقة في جسده. ولم يفلح الأطباء بمستشفى مولاي إسماعيل في إنقاذه. فقد تعرّض لنزيف في المخّ. فمات إثْرَ ذلك بعد يومين. قُبِضَ عليّ ومكثتُ في مخفر الشرطة ثلاثة أيام، ثُمّ أُخلِيَ سبيلي بكفالة.

سكت لحظاتٍ والحزنُ يعتصر ملامحَه فظهرت تجاعيدُ بارزةٌ في زاوية عينَيْه.

لم يكد يصل إلى هذا الحدّ من حديثه حتّى أغلق عينَيْه المخضلّتَيْن بدموع مكابرة، وصرَّ بأسنانه ومال بمرفقَيْه وأسندَهما على ركبتَيْه المضمومتَيْن. لكنّ ذلك لم يدم سوى ثوانٍ عاد بعدها واستوى على الكرسيّ ونظرةُ يأسٍ طاعنٍ ماثلةٌ في عينَيْه، نظرة رجلٍ محطّمٍ تعيش روحه في أحلك ظلمةٍ وأقسى خيبة. وقد غادرتْه هالةُ الخيلاء واللّامبالاة الفاتنة الّتي دخل بها. أخذَ رأسَه بين يدَيْه وراح ينظر إلى الفراغ ويتكلّم كما لو أنّي لست موجودةً أمامه:

- تلك الخردة قتلتْ ابني. قطعت أنفاسَه، وأرسلته إلى القبر. دُفِنَ بمقبرة فرطاسة. مرّت أيّامٌ وزهرة لم تصدّق أنّها ثكلت وحيدَها. أعود من العمل فأجد كلّ شيء في البيت مهملًا مبعثرًا، ولا سيّما أشياء سامي ومتعلّقاته. في زوايا غرفة المعيشة وغرفة النوم كانت لُعَبُه وملابسُه مرميّةً ومبعثرة. في أرجاء الغرف، في الحوش، في محيط البيت، حيثما جُلتُ فثمَّ وجهه يطالعني. روائحه في كلّ الأشياء الّتي تقع عليها عيني. روائح توقظ بداخلي تينك السنتَيْن اللّتين قضّاهما مَعَنا. وعلى امتداد أيّامٍ طويلةٍ ظلّت زهرة غارقةً في كآبةٍ مزمنة، سجينةَ غرفة النوم، جالسةً على طرف السرير منكفئةً على نفسها ضامّةً يدَيها بين فخذَيْها وهي تنظر إلى الجدار ساهمةً، أو مستلقيةً على ظهرها، متصلّبة الشفتَيْن وعيناها شاردتان في السقف. زهرة امرأةٌ متوسّطةُ الطول متناسقة التكوين، على قدرٍ كبيرٍ من الجمال. شحُب خدّاها المندفعان إلى أعلى. وطال شرودُها الحزين. ذبلتْ زهرة بين عشيّةٍ وضحاها. كانت تكتفي برفع عينَيْها في اتّجاهي عندما أقف بباب الغرفة. وعندما أمدّ يدي لأضعها على كتفها مواسيًا، تنسحب مبتعدة، فأتركها وشأنها. فضلًا عن الذبول الّذي ملأ عينيها، فقد كانت نظراتها حادّةً وقاتمة.

# تهامي

**الخميس 17 يونيو 1993**

يوم الخميس من الأسبوع الموالي، ما إن دخل تُهامي حتّى تعلّقتْ عيناه بمُجسّمِ تمثالٍ موضوع فوق مكتبي، تمثالٍ خشبيٍّ صغيرٍ لباخوس إله الخمر، اقتنيتُه من معرض التُّحف بالموقع الأثريّ في زيارتي الأخيرة إلى وَلِيلي. كان عليَّ أن أقف عن كثبٍ مِن مسرح معاناة مريضِي عيّاش الحفيان.

كُنتُ أرى في تمثال باخوس الخشبي هذا تجسيدًا ملموسا لمعاناةِ تُهامي وعيّاش. أشاح تُهامي بعينيه عن التمثال، ونقلهما إليّ، وشرع في نفض سجلّاتِ «أناه» الهشّةِ:

- لا أخفيك يا دكتورة أنّني، عندما وضعتُ حدًّا لحياة سامي بالخطإ، فكّرتُ في الانتحار. شعرتُ بخواءٍ فادِحٍ.

- طبيعيّ أن تراودك فكرة الانتحار سيِّد تُهامي. فكثيرًا ما يقسو الضّمير في تأنيبه، تقسو «الأنا الأعلى» في جلد الذات، فتتغلّب غريزة الموت على غريزة الحياة، ما يقسو الضّمير في تأنيبه، تقسو «الأنا الأعلى» في جلد الذات، فتتغلّب غريزة الموت على غريزة الحياة، ما يجعل «الأنا» هشّةً تستحوذ عليها الرغبة في معانقة الموت. ويحدث هذا أحيانًا عند المرضى الّذين يعانون من العُصاب.

ولِنبتعدَ عن فكرة الانتحار، سألته عن ردّ فعل زهرة بعد الحادث، فقال بعد فترة صمتٍ قصيرة:

- في المساء عندما، يحين موعد عودتي إلى البيت، كنت أدخلُ بخطًى ثقيلة وأحرصُ على ألّا أحدث ضجّةً كي لا أزعج شرودَ زهرة. جاء مساءٌ غائمٌ من تلك المساءات الّتي لا يمكن الإفلاتُ من شؤمها المنذور. إذ انتشلَ دخولي زهرةَ من شرودها. وما إن وقع نظري عليها حتّى ندّتْ من صدرها صيحةٌ غضبَى هي مزيجٌ من الأسى والألم العنيف، وهتفَت بلا مقدّمات:

«رزأتني في فلذة كبدي يا تهامي. تعبتُ من السكوت وحان لي أن أصرخ في وجهك. من أجل روح سامي سكتُّ كلّ هذه الأيّام. كنت أريد لروحه، الّتي سلبتَها، أن تنام بسلام. من أجل عشّنا الّذي دمّرته بيدك المتّسخة بدم ولدي. قطعتَ كبدي «اللهْ ياخْذْ فيكْ الحقّ».. أنت قاتل. أنت من كان يستحقّ الموت وليس ولدي».

ذاتَ زوالٍ، قامت من مجلسها في ركنِ الغرفة وارتمتْ عليّ. وشرعتْ تضرب كتفي بقبضةِ يدها كما لو كانت تدقّ بها مسمارًا على جدارٍ أخرس. هرعتُ إلى الردهة مبتعدًا عنها فطفقتْ ترميني بكلّ ما تقعُ عليه يدُها. رمتْني بكأسٍ فأصابت الساعةَ المعلّقةَ على الجدار فسقطتْ أرضًا وتناثرَ زجاجُها واختلطَ مع زجاج الكأس. استبدّ بها الغيظ. ظلّت تصرخ والرذاذُ يتطاير من فمها. تلعنُ وتسبُّ قائمةَ أجدادي الّذين خلّفوني. وتُلقي باللّائمة على القدر الضّالِّ الّذي قادَها إليّ:

«لن أستطيع إكمالَ حياتي معك. أنت لعنةٌ رماني القدر في أتّونها. أنتَ اللعنة نفسها».

بعد فقْدِ سامي وهجران زهرة لي، سقطتُ في كآبةٍ مزمنة، ولم أعد أنام إلّا قليلًا. صرتُ أرى تهيُّؤاتٍ ومشاهدَ وأطيافًا بعد استيقاظي. أرى سامي وزهرةَ ماثلَيْن أمامي وسرعان ما يتلاشى طيفاهُما، ولا يبقى في أذني سوى تردّداتِ صيحَاتِ سامي الصغيرة وكلماته الأولى الّتي يجاهد النطقَ بها. بدأت أشرد طويلًا.

عندما أخرج من البيت أسير في الطرقات ساهيًا، ولا ينبّهني إلّا زعيقُ سيّارةٍ أو تحيّة سلامٍ يلقيها أحدُ القرويّين. ما أخافه بعد سامي وزهرةَ يا دكتورة ليس وحدتي، بل تلك الأطياف والخيالات الّتي تنقضّ عليَّ وتعذّبني على مَهَل. لقد وجدتُني على أبواب الجحيم المشرَّعةِ. دهستني أوجاع الندم. أحسستُ أنّ دوري في هذه الحياة لا يتجاوز صناعةَ الخيبات والمآسي. كلّما صنعتُ فرحةً صغيرةً اقتلعتُها بيديّ الآثمتَين. لا أخفيك يا دكتورة أنّي آمنت وهلةً بأنّ لعنةً تطاردني. لم أنجح في شيءٍ يستحقّ الذكرَ في حياتي. تهجرني الأشياء الجميلة في الرمق الأخير بعد رحلةٍ متعِبةٍ لامتلاكها. تتركني معلّقًا وأنا في أوج الحاجة إليها. حتّى الكتابة الّتي اعتبرتُها ملاذَ خيباتي فشلتُ فيها.

فقاطعتُه:

- أحقًّا تكتب؟

- ألم أقل لك إنّي كتبت رواية؟

- وما عنوانُها؟

- زلَّةُ قَلَمٍ أحمر.

- مذهِل يا تُهامي. أتدري أنّ الكتابة وسيلة للتعافي؟ عالِم النفس جيمس بيكر توصَّل إلى أسلوبٍ علاجيٍّ بالكتابة. فهي وسيلة لتفريغ الانفعالات وتخفيف القلق وتجاوز الصّدمات والخفض من أعراض الاكتئاب. لذا لو واظبتَ عليها في هذه الفترة على الأقلّ، فسوف تساعدك على الخروج من هذا النفقِ المظلمِ الّذي تتخبّط في سواده.

وأردفتُ:

- يجب أن تكتب عن هذه المعاناة الّتي يمكنك النظرُ إليها بوصفها محنةً قادرةً على جَعلِك أقوى وأصلَبَ عندما تتجاوزها. يُمكنك، بالكتابة، أن تُخرِجَ ما تراكَمَ لديكَ في مستوى «اللاشعور». كلُّ الحوادث العالقة والذكريات النازفة لا يُمكن أن تَخرج من تلقاء نفسها. القَلَمُ كفيلٌ بأن يوقِظَها يا تُهامي.

- كيف أعود إلى الكتابة وجراحي لم تندملْ بعد؟ أستيقظ كلَّ صباحٍ على أصداء صوت ابني يضجّ بها رأسي، وكلماتِ زهرة الجارحة الّتي ودّعتْني بها مطالبةً بطلاقها. إنّه ألم الفقد، الانقضاضُ الشرس للذكرى المُعذِّبة، يحول بيني وبين الكتابة.

- أعمالٌ كثيرةٌ كُتِبَتْ تحت وطء الفقدان: هذا وليام ستايرون كتب «ظلام مرئيّ» بعدما سقطَ في اكتئابٍ حادٍّ سرَقَ منه خمس سنوات. وفيكتور هيغو كتب «غدًا عند الفجر» بعد وقتٍ قليلٍ من موت ابنته أديل. وهذه الفرنسيّة مارغريت دوراس جاءت جلُّ رواياتها وليدةَ تجربة الألم والفقد اللّذَيْن عاشتْهما في شرق آسيا. لا يهمّ ماذا ستكتُب يا تُهامي. ثمّة زلّاتُ قَلَمٍ كثيرة تنتظرك لتقترفها. ستجد نفسك تكتُبُ عباراتٍ لا تَرغَبُ في كتابتِها، سَتَجِدُكَ تَخُطُّ كلماتٍ تفصح عن

اللاشُعور، كلمات لها عكس المعنى الّذي ترغبُ ظاهريًّا في التعبير عنه. هذا من شأنِه أن يُسَرِّبَ آلامَك المكبوتة لتطرحها خارجًا، أو يُخفِّف منها على الأقلّ.

- ما عدتُ أستطيع الكتابة يا دكتورة. فقدتُ ابني. ثمّ جاء فراق زوجتي هزيمةً أخرى قاسيةً انضافتْ إلى سلسلة الهزائم الّتي تخبّطتُ فيها طويلًا ولا أزال. وكأنّ الحياة لم تخلقني إلّا لتجرّب عليّ أقدارَها الممهورةَ بالهزيمة. مُتعَبٌ أنا يا دكتورة، مُنهَكٌ حتّى القلب، مُنْهَكٌ حتّى آخر وجَعٍ فيَّ. لقد تشظّتْ أشياء كثيرةٌ في حياتي.

كنتُ مدركة أنّ الكتابة لن تذهب بتهامي، لو التزمَ بها، أبعدَ من تخفيفِ حدّةِ صَدمة الفَقد، أمّا أن يُشفى تماما بالكتابة، فذاك أمرٌ مُستَبعدٌ. كان عليّ أن أُشجِّعه عليها فقط، ليظلَّ ممسكا بجذوة الأملِ في استرجاع توازنه النفسي . توقّف لحظةً. ابتلع ريقَه وشَرَدَ بعينَيْه إلى السقف. فخرجتْ كلماتُه ضعيفةَ النبرة:

- عندما رحلت زهرة، جفاني النوم. لطالما حاولتُ النومَ لاستعادة مزاجي، لكنْ دون أن أفلح في ذلك. لازمني الأرقُ أسابيع. صداعٌ فظيع في الرأس لم يستدعِ في الأوّل اللجوءَ إلى أيّ علاج. لكنّه تفاقم في الأسبوع الّذي تلَا رحيلَ زهرة. أصبح الصداعُ والأرق ضيفَيْن ثقيلَين يتردّدان عليَّ كلَّ ليلة. استعنتُ بدواء نايكويل المخصّص أصلًا لنزلات البرد والأنفلوانزا. قال لي الصيدلانيّ إنّه ينفع مع الصداع. رغم ما كان يسبّبه لي من خمولٍ طوال اليوم. ذهبتُ في نهاية الأمر إلى طبيبٍ ببلدة زرهون، وأعطاني وصفةً لدواءٍ منوِّم. لا أدري أَبِسببِ ذلك الدواء بدأ يتراءى لي طيفًا سامي وزهرة أم بسبب جنونٍ وشيكٍ؟ ذات مساء رأيت زهرة، بعد أن هجرتني، واقفةً في مدخل البيت. أو تَهيّأ لي فحسْب أنّي

رأيتها. برحتِ البابَ راكضةً بجنونها إلى أحضاني. وعندما وصلتْ إليَّ تبخّرت، تلاشى طيفُها، فتأكّد لي أنّ ثمّة خللًا مّا اعتوَرَ دماغي، وأنّ عالمًا من الأطياف بدأ يزحف ليزاحم عالمي الحقيقيّ. لم تكن تلك المرّةَ الأولى الّتي تراءت لي فيها. صدّقيني يا دكتورة في تلك اللّحظات عندما أنغمس، كإسفنجةٍ عطشى، في صور الذاكرة، أرى زهرة، أو يَتَهيّأ لي أنّي أراها. آخر مرّةٍ تراءت لي فيها كانت في لباسها الأبيض الأثير تنحني فوقي. كانت تميل عليَّ بتلك الانحناءة الّتي توقظ فيَّ أَعْنَدَ الأحاسيس وأعذبَها.

رأيتها تُمسِك بمعصمي، تميل عليَّ بحنوِّها اللّذيذ، ذلك الحنوّ القديم الّذي جدلَ حبلَ المحبّة بيننا. ولم أكد أتحسّس ملمسَ يدها على معصمي حتّى تبخّرتْ وتبدّدت كدخان.

# لِيالي وَلِيلي

## (رواية)

## أريادنا نويل

## جواد

**الجمعة 30 شتنبر 1993**

في وقتٍ مَّا ظننتُ أنّ الحلم المتكرّرَ توقّفَ وانتهى، لكنّي سأجدني بعد شهرٍ تقريبًا على موعدٍ مع أحداثه الغريبة. الحلم نفسُه سيتكرّر. الحلم المتسلسل سيتواصل. لكنْ مع تغييرٍ طفيفٍ في بعض التفاصيل:

**حلم ليلةٍ من ليالي الأسبوع الخامس - 30 شتنبر 1994 (النسخة الثالثة)**

رأيتُني، في ما يرى النائم، أحثُّ السيرَ صَوبَ بوّابة وَلِيلي الشماليّة. ستظهر المرأةُ الراكضة تحت ضوء القمر. تتوقّف لحظةً، وتلتفت تجاهي. ولم أفهم كيف أمهلَتْها الخفافيشُ المحلّقة وراءها وقتًا كي تَنظر إليّ بذلك الشرود، بعينَيْن مفتوحتَيْن على سعتهما تملؤهما التماعةٌ مبهمة. دلفتْ من البوّابة وخلفَها دلفَ السرب الأسود، انعطفتْ يمينًا. تلقّفَها الرجلُ الضخم بين ذراعَيْه الضخمتَيْن، وغابَا في السواد.

وعندما دنوتُ من دائرة اختفائهما، هويتُ في غَيَابَة البئر. وحطَّ جسدي على أرضٍ ناعمة. فتملّكه خدرٌ لذيذ. نظرتُ إلى ما حواليّ، كانت ثمّة

إضاءةٌ لم أدرِ مصدرَها. رأيت على الجنبات جدرانًا شاهقة. لم تكن جدرانًا بل نوافذَ عظيمةً تنفتح على مشاهدَ من حياتي، من ماضِيَّ وحاضري، جدرانًا تبثّ لقطاتٍ من ذكرياتي تتخلّلها أحداثٌ تحكي سعادتي وشقائي في صُوَرٍ تَعبر سِراعًا أمام عينيَّ ومعها روائح التراب والمطر والرطوبة، روائحُ كلِّ ما أراه، مع أصواتٍ خافتة: أصواتٍ برّيةٍ موحشةٍ يتصادى فيها حفيفُ الشجر وزقزقةُ أطيارٍ حزينةٍ مع نحيبِ ريحٍ رعناء. صُوَرٌ تعبُر على سطح تلك الجدران، صورٌ وأصداء مسروقة من ذاكرةِ وَلِيلي وسهلها الوسيع، من ذاكرة طفولتي البعيدة.

كانت تلك الصور نقوشًا، لوحاتٍ منحوتةً تمرّ على صفحات تلك الجدران طافحةً بالحياة. وبين صورةٍ وصورةٍ تنتأ ظلالُ بيوتٍ حجريّة، خرائب، بوّاباتٌ تؤدّي إلى حيث لا أدري، أقواسٌ تنفتح على أروقةٍ موغلةٍ في العتمة. وأنا جالسٌ ما أزال على الأرضيّة الناعمة، فاقدًا وعيي، تلفُّني دوخةُ صورٍ مدموغةٍ بروائح أزمنةٍ قديمة. أتلفّتُ يمنةً ويسرةً دون أن أفكِّر في الوقوف. ولم أعرف إن كانت لقدمَيَّ لحظتَها قدرةٌ على الوقوف أم لا. عندما تعبَ رأسي من الالتفات تدلّى فوقَ صدري، واستقرت عيناي على الأرضيّة الّتي أجلس فوقها. كانت أرضيّةً مزخرفة تنبعث منها هالةٌ لونيّةٌ باهرة. ووجدتُني مشدوهًا أتملّى تلك الزخرفة، كانت فسيفساءَ زخرفيّةً في غاية الإتقان تحمل تشكيلةً خرافيّةً من الألوان. نقوشٌ رأتها عيناي فجزمتا أنّها لم تصنعْها يدا إنسان. تشكيلٌ فسيفسائيّ يسرُّ العينَ ويصدمها في آن واحدٍ. كنتُ مشدودًا إلى تلك الزخرفة بما تبقّى لديَّ من وعي، ناسيًا أنّي ساقطٌ لتوِّي في جبٍّ سحيق، مأخوذًا إلى تناسُقِها كما لو أنّ لها أياديَ قبضتْ على معصميَّ وقدميَّ وجذعي ومنعتْها من الإتيان بأدنى حركة، مثلما منعتْ عينيَّ الشاخصتَيْن

أن تطرفا. كان على الأرضيّة نقشٌ يصوِّر امرأةً يغطّي نصفَ وجهها شعرٌ أسود طويل. وبجانبها رجلان يصعب تبيُّن ملامحهما.

***

وأنا مستغرقٌ في بحيرة الحلم، الحلم المتكرّر بإصرارٍ، الحلم الّذي يثير قلقًا طاغيًا ورصيدًا كبيرًا من الحيرة، صادتْني يقظةٌ بطيئة. أوّل ما أملته عليَّ حالةُ اليقظة أن أقوم وأتوجّه إلى الحمّام لأفرغ مثانتي. تقلّبتُ في كسلٍ على ظهري ثمّ على جنْبي الأيسر قبل أن أعتدل جالسًا على طرف السرير.

وأنا قابعٌ على تلك الهيئة، ولم أكن قد تخلّصت من بقايا النوم بعدُ، سمعتُ الصوتَ قادمًا من أعماق الأرض. وقد بدا لي أنّه آتٍ من أعماقي، أو من أعماق بقايا الحلم الّذي يصارع التبخُّرَ من رأسي. حبستُ أنفاسي وأمعنتُ الإنصات. كان ذاك الصوت قادمًا من أسفل حصير الدوم. حشرتُ سبّابتيَّ في ثقبَيْ أذنيّ. أزلتُهما. واستمرّ الصوت متردّدًا في مسمَعي. أهي أصواتٌ تسكن أرضَ هذا البيت المريب؟ وقفتُ، مُثْقَلًا بجسدي الّذي لم يستأنس بعدُ باليقظة. لقد غمرني لحظتئذٍ يقينٌ حاسمٌ بأنّ الصوت آتٍ من تحت قدميّ الحافيتَين. أشعر بالكلمات تنزلق عبر فتحات الحصير، ثمّ عبْر أصابعِ قدميَّ المنكمشةِ الجامدةِ بسبب ذلك الجهد الّذي أبذله في الانحناء لعلّي أقبض على الكلام الطالع من تحت: إنّها رطانةٌ قادمةٌ من الأعماق، جملٌ غامضة، لهجةٌ كالأمازيغيّة لكنّها أشبه ما تكون بلغةٍ قديمة، لغةٍ من اللغات المنقرضة. ها أنا أستشعر الجملَ غير المفهومة تعبُر من أخمص قدميَّ وتتسلّقُ ساقيّ، وتستقرُّ وسطَ رأسي محتفظةً بغموضها البارد. الكلمات تواصل

صعودَها متسلِّقةً ساقيَّ، أحسُّ ملمسَها الفاتر على ربلةِ ساقي. تعبر بدني. تصّاعدُ شيئًا فشيئًا لتستقرّ في رأسي. الصوت أضحى يملأ رأسي.

كان رقيقًا، أنثويًّا حادَّ النبرة، حُلوَها ورخيمَها. كان مناجاةً، نداءً، صوتًا ينبجس منه عرَق امرأةٍ عاتية الجسد كما خمّنتُ. من ذلك النوع من الأصوات الأنثويّة الّتي تسمعها فتنطبع في ذهنك ارتجاجةُ صدرٍ عارم، حركةُ ثديَين يترجرجان كخلفيّةٍ بصريّةٍ لاهتزازة النبرة الحنون المتدفّقة كالحليب، فتَحدُث من ذاك الصوت حالةُ خدرٍ لذيذةٌ في جسدي. وعندما خطوتُ خطوتَيْن نحوَ باب الغرفة زايلني ذاك الشعور، وانقطع تدفُّق الصوت في أذني.

# أريادنا

**السبت 1 أكتوبر 1994**

لقد حكى لي جواد بحماسٍ عن تلك اللّحظات الّتي ثارت فيها أصابعُه على حُبسة الكتابة.

في الليلة الّتي تلتْ الحلم المتكرّر، المتسلسلَ في نسخته الثالثة، جلس إلى المكتب ممسِكًا بكأس قهوةٍ يتصاعد منها البخار. أشعل سيجارة، وانبرى يعاند الورقةَ البيضاء.

حكى لي صديقي الأطلسي عن الليلة الّتي تلت الحلم المتكرّر، المتسلسل في نسخته الثالثة. انتفضت بنانُه ليلتَها متمرِّدةً على تردّده وانطلقت تكرُّ على الورق الأبيض بنفَسٍ متدفِّق وسلسٍ لم يكتب به من قبل. إنّه حلم الفسيفساء الّذي أزهرَ بين أصابعه مدادًا. كتب مقاطع مستوحاةً من فضاءِ وَلِيلي، ربطَها بالفسيفساء الّتي رآها في الحلم، فاستوتْ عنده فكرةُ الرواية، وتبدّى له رهانُها، وتَحسَّس نتوءاتِ حبكتِها، فبدأت شرارةُ تشكُّلها تكبُر بداخله.

هي روايةٌ سوف تعانق فيها يا جواد أبطالًا رومانيّين وموريّين، تعانقُ فيها فضاءَ سَهْلٍ خصيبٍ حافلٍ بالذكرى، تناغي فيها أحلامًا وُئِدَتْ وأخرى صنعتْ عوالمَ الفرحِ القديم. روايةٌ تلامس فيها سماءً لم تغفَل عيونُها عمّا جرى هنا بهذه الأرض. رواية تَقيسُ فيها أحجامَ أشياء صغيرةٍ كانت تعني الحياةَ لمن حازوها وعاشوا بها ولأجلها.

انطلقت أصابعُه مُكسِّرة إسارَ تردُّدِها. كان يكتب كلَّ شيء بخفّةٍ ولا يصوّب جملة أو يعدّل سطرًا. كان يطارد الحكاية وحسْب، يباشر الكتابةَ بهوس (أنا الّتي خَبِرْتُ نكهة ذلك الهوَس الجبّار وجرّبت مذاقَه الحرِّيف على لساني عندما تستَلِبُني جذْبة الكتابة)، يواصل نثْرَ الأحبار بسخاءٍ مقتحمًا فضاءَ وَلِيلي. كان يكتب ميلادَ الفتى الموريّ تحت سماءٍ مطيرةٍ باردة.

إنّه منتصف الليل. تركَ جواد المكتبَ ودلف إلى المطبخ، أخذ زجاجتَيْ جعّةٍ من الثلّاجة واتّجه إلى غرفة المعيشة. كانت غارقةً في ظلامٍ دامس، باستثناء بضع جمراتٍ ما زالتْ متوهّجةً في المدخنة تصارع نَزْعها الأخير. جلسَ في الظلام، وشرعَ يرشف حسواتٍ بطيئةً وهو يتأمّل الجمرات. كانت الأريكة قربَ المدخنة مريحة ودافئة. شربَ الزجاجة الثانية واستسلمَ للنوم.

# أريادنا

**الخميس 1 نونبر 1994**

لَكَم أحبَبتُ أن أسرُد تفاصيلَ صَبيِّ الأمسِ الّذي كانه جواد، هذا القادم من قرية أطلسية إلى قرية لا تختلف عنها في شيء سِوى أنّها تجاوِر موقعا أثريّا مُفَخّخا بالتاريخ. هواء القرية الجبليّة بالأطلس سرّبَ إلى صديقي جواد صلابةَ الجبل وأحلامًا شاهقةً كثيرة. هواءٌ عرفه منذ طفولته قاسيًا لا يعطي رئتَيْه دفقاتِ الحياةِ إلّا ليأخذَ منهما زفيرَ التعب وتنهيدةَ الشقاء.

كان هواءً قاسيًا لم ينسَ جواد طعْمَه ولا رائحتَه ولا مَلْمَسَه، هواءً حمله وما يزال في ذاكرته، يستخرجُه من حقيبة الذاكرة، يستنشقه ويزفره ثمّ يعيده إليها. واليومَ، وهو يحملُ حقيبتَه ومظلّتَه ويرى أمامه تلميذًا يسير تحت المطر في الطريق إلى المدرسة، تذكّرَ الطفلَ الّذي كانَه بالقرية الأطلسيّة وامتلأ أنفُه بهوائها القاسي.

لقد حكى لي بإسهاب عن المشاعر والذكريات التي أثارتْها لديه رؤيةُ أحد تلامِذتِه تحتَ المطر. رآى جوادا الصّغيرَ، الذي كانَه، يحمل محفظةً يدسّها تحت مشمّعٍ شتويٍّ أصفر. كانَ يسير وهو يراوِغ القطرات بمرحٍ طافِحٍ. يقفز بالبوط الطويل ليتفادى الأوحال. يتوقّف ليراقب بخارَ أنفاسِه يتلاشى. ينفخ مزيدًا من البخار لتتراقص أمامَه حلقاتُه قبل أن يشربها هواءُ الصباح القارس. يسلك إلى المدرسة منحدرًا وعرًا قائمًا على سفح الجبل. وبعد المنحدر، يكون عليه أن يجتازَ واديًا لا تجفّ

مياهُه إلّا مع انقضاء موسم الشتاء. ما زال يرى بعين ذاكرتِه جوادًا الطِّفلَ يخوض في الطريق الموحلة. ينقل الخطى من حجرٍ إلى حجر. الريحُ مصحوبةٌ بالمطر تهبّ قويّةً فتُقلقل جسدَه الصغير، المثقَل بمحفظةٍ مخبّأةٍ تحت المشمّع. في صباح ذلك اليوم البعيد، عندما بلغ الوادي وجدَه يُرْغِي ويُزبِد، وقد فاضتْ مياهُه على جنَبَاته، مياهٌ صاخبةٌ مسعورةٌ كأفاعٍ بلون الطين.

كان هناك، كما حكى لي جواد، جذعُ صنوبرةٍ ضخمٌ جاثمًا على عرض الوادي، كثيرًا ما اتّخذَه العابرون قنطرةً للوصول إلى الضفّة الأخرى أيّامَ الشتاء. هَمّ جوادُ بعبوره، وتردّدَ قليلًا، لكنّه واصل رَمْيَ الخطى فوق الجذع اليابس مُشرِعًا يدَيْه في شكل صليبٍ ليحفَظ توازُنَه.

وما كاد يتقدَّم ليبلغ منتصف الجذع، حتّى انتفضت قدمَاه ثائرتَيْن على جسده. شاءت الريح أن تتآمر مع الجذع المبلَّل، فأرسلَا جوادًا إلى ألسنة السيل، دون رحمة. سقط فسحبَه التيّار القويّ كلقمةٍ سائغة. لا يتذكّر إن كان في تلك اللحظات الرهيبة يعي ما يحدثُ له. فقد توقّف به الزمن. (وقرأتُ رهبةَ الموقف في نظرة جواد لمّا سرّح بصره بعيدا وهوَ يحكي). ما عاد يسمع من الأصوات غير هديرٍ وحشيٍّ يئزّ في أذنيه يؤرجحه بجفاءٍ بين الإغماء واليقظة، بين الموت والحياة. كان يغوص ويطفو، يتخبّط وسْط دفْقِ مياهٍ بلونِ التراب تجرفُه بإصرار، بلا هوادة، نحو نهايته. وفي صراعٍ ضارٍ مع التيّار ومع حتفه الوشيك، أنقذتْه أجَمَةُ دفلى. مدّتْ إليه عروشَها الرحيمة، كهديّةٍ غير متوقّعة، ليتشبّث بأهدابها. لم يتخيّل يومًا أنّ الدفلى، وهي الّتي لم يحبّها من بين سائر النباتات والأشجار بسبب رائحة أوراقها الزنخة ومرارتها، ستمدّ يدَ النجاة إلى طفلٍ لم يذق بعدُ مرارةَ الحياة وحلاوتها.

هو ذا جواد الآن تحت المطر. يحمل حقيبةً بيدٍ وبالأخرى يرفع فوقه مظلّةً كبيرة، ويسير بخطواتٍ واسعةٍ إلى المدرسة. لكنّ الظروفَ ليستْ هي الظروف. المكان ليس هو المكان، ولا الزمان هو الزمان. إنّه الآنَ في ثلاثينَاتِ عمره. يستنشق هواء طفولته القاسي المخزَّن بعنايةٍ في حقيبة الذاكرة، وهو يشاهد تلميذًا يمشي أمامَه تحت المطر بمشمّعٍ أصفر، وتحت المشمّع يخبّئُ محفظتَه كما كان جواد يفعل في صغره. يمشي الطفل غير آبهٍ بقطرات المطر وهي تتكسّر على مشمَّعه فتنزل في خيوط صفراء لتسقط على الأرض الموحلة. كان يشقّ طريقَ المرتفع بإصرار، بالبوط الأزرق الصغير. وعندما استدار يمينًا لتسلّق المنعطف الصاعد العابر من أمام مسجد فرطاسة الكبير عرفَه جواد. كان أيمن، أحد أبرز تلاميذه وأذكاهم، إن لم يكن أنجبَهم. كان الصغير يسير بخطواتٍ مصمِّمة.

لقد رأى جواد طفولتَه في خطوات هذا الولد بالذات دون غيره من تلاميذ مدرسة فرطاسة. اشتدّ المطر، فغذّ الخطوَ للّحاق بأيمن. وضع يدَه فوق ذراعه الصغيرة. كان الصغير مبتهجًا بالمطر. هكذا هو أيمن دائمًا؛ يميّزه مزاجُه الجيّد والنشط. بدا غير آبهٍ للبرد القارس الّذي استشرسَ يومَها. كان ثمّة دفءٌ عارمٌ يلتمع في عينَيْه الصغيرتَيْن البنّيّتَيْن الذكيّتَيْن. أكملا الطريق إلى المدرسة. وما عاد يفصلهما عنها سوى بضع خطوات.

طوالَ الأسبوع الّذي تلا ذاك اليومَ البارد، سيغيب أيمن عن المدرسة. بدا فصلُ المستوى الرابع فارغًا من دونه. وعلى امتداد ثلاثة أيّامٍ لم يظهر. سأل عنه، فقال الصغار إنّ المرض أقعَدَه في البيت. وفي صباح يوم خميس، ظهرت عند باب القسم امرأةٌ شابّة قمحيّة البشرة، على

درجةٍ مُعتَبَرَةٍ من الجمال، وفي جسدها امتلاء وافِر، ترتدي جلبابًا نيليَّ اللونِ. كانت برفقة أيمن. وضع جواد الطبشورَ وتوجّه إلى حيث كانا واقفَيْن جوار الباب. قالت ويدُها على كتِف ابنِها:

- أصيب بنزلة بردٍ حادّة. أمسِ فقط تعافى قليلًا. وهذا الصباح لم أستطع منعَه من المجيء قبل أن يشفى تمامًا.

أنفُها مرتفعٌ قليلًا. وخداها بارزان. وعيناها كبيرتان في اتّساع قرص الشمس وبلون قهوةٍ شربها جواد على عجلٍ ليلتحق بالمدرسة صباحَ ذاك اليوم.

نقل جواد عينَيْه إلى أيمن. بدا على هيئته ارتخاءٌ وإنهاكٌ وعلى وجهه بقايا شحوب. رفع الصغيرُ رأسَه ونظر إلى معلّمه، تلك النظرة الّتي لا تغادرها التماعةُ الذكاء والدهشة والسؤال. مسحَ جواد على شعر الصبيّ بيده. وانحنى إلى مستوى رأسه واضعًا يده على كتفه، ونظر في عينَيْه، فسأل:

- أنت بخير الآن، صح؟

«نعم أستاذ». ردّ الصّغيرُ بصوتٍ ضعيفِ النبرة، وطبطبَ المعلّم على كتفه:

- رجلٌ قويّ أنت، فلتدخل، هَيّا.

دخل أيمن، ونظر جواد إلى المرأة الشابّة. كانت على شفتَيْها ابتسامةٌ رقيقة. قالت:

- يحدّثني عنك كثيرًا؛ المعلّم جواد علّمَنا كذا، المعلّم جواد نصحني بكذا وكذا.. أيمن يحبّك كثيرًا.

- أيمن واحد من أفضل تلامذتي وأذكاهم، وأنا أحرص على أن يواصل تفوّقه.

- شكرًا لك. فلا أحدَ يعينني على تربيته.. أبوه غائبٌ منذ مدّة.

- غائب؟

- نعم. قال إنّه ذاهبٌ إلى الشمال للعمل. اتّصل بنا من طنجة في الأيّام الأولى الّتي تَلَتْ مغادرتَه. وبعدها انقطعتْ مكالماتُه. منذ ما يزيد عن ثمانية أشهرٍ لم نسمع عنه خبرًا. تعودّتُ غيابه. أرعى ابني وحدي. مستورة والحمد لله.

هل هو الإشفاق لحالها أم هو الإعجاب بصمودِ امرأةٍ قرويّةٍ شابّةٍ واكتفائِها بذاتها، أم هو تأثير العينَيْن، قرصَي الشمس المضيئيْن ولونهما القهويّ؟ مزيج مشاعر غامضةٍ أخذت جوادًا إلى هذه السيّدة الشابّة. عيناها عذبتان تنظران بسخاء اتّساعهما. ووجنتاها الممتلئتان تنطويان على ابتساماتٍ كثيرةٍ مؤجَّلة لم تبتسمها.

كانت تنظر إليه بعمق، نظرةً لمح فيها مسحةَ حزن. لا شكّ أنّها كانت تقول، بعينَيْها، شيئًا آخر غير الّذي قالته عن زوجها. تقول إنّها وحيدة، ومهجورةٌ من طرف زوجٍ أنانيّ، وإنّها نسيت أنوثتَها في قريةٍ تحصي عليها أنفاسَها. فتشكَّل عنده انطباعٌ بأنّها امرأةٌ رقيقةُ الطبع، دافئةٌ وسخيّةٌ على نحوٍ تنسى معه نفسَها من أجل إسعاد الآخرين.

وقبل أن تستدير وتنصرف، قال لها: - أنا أيضًا نشأتُ في البادية، وأعرف جيّدًا صعوبة العيش فيها بلا سند.

وأردف مركّزًا نظرتَه في عمق حدقتَيها:

- لا تتردّدي في طلب أيّ مساعدةٍ منّي. وليس عليك إلّا أن تبلغيني عن طريق أيمن متى احتجت إلى شيء.

حرّكَت رأسَها بالإيجاب، ثمّ أدارتْ وَجهها القمحيّ لتنصرِفَ بعد أن شملتْ جواداً بنظرةٍ ناعمةٍ من قُرصَيْ عينَيْها مرفَقةً بابتسامةٍ عريضةٍ من تلك الابتسامات الّتي تفتح كلَّ الأبواب على مصراعَيها.

# جواد

**الأحد 13 نونبر 1994**

بعد أسبوعٍ من أمطار نوفمبر المبكِّرة، صحَا الجوّ، وأقبلت الشمس دافئةً مترنِّحة في سماءٍ بلّوريّةٍ زرقاء. كان صباحَ يومٍ أحد. فكّرتُ أن أنظّف البيتَ وأُخرج فُرُشَه وأغطيتَه إلى الباحة الخلفيّة لتنال قسطًا من أشعّة الشمس الخريفيّة. فلم يسبق لي أن غسلتُ أرضيّتَه منذ سكنتُه. صارت رائحة الرطوبة تملأ البيت وقد اختلطت برائحة السجائر الّتي أفرطتُ في حرقها خلال الليالي الأخيرة.

بدأتُ بغرفة المعيشة، فأخرجتُ فُرُشها، ونحّيتُ المائدة والأريكتَيْن جانبًا. ثمّ اتّجهت إلى غرفة النوم. لم تكن بها رطوبةٌ مثل باقي الغرف لأنّ نافذتها تنفتح على الباحة الخلفيّة الّتي تمرح فيها أشعّة الشمس. أخرجت الأغطية والفراش إلى الشمس. وعندما رفعت حصيرَ الدوم عن الأرضيّة، علقت عينايَ بصفوفٍ من الزخارف. تتبّعتُها فانكشف أمامي إطارٌ زُخرفيٌّ يحيط بمشهدٍ مثيرٍ جدًّا: مشهدِ فسيفساء بديعة.

لا يُعقَل أن ينام هذا الإبداع تحت حصير غرفة نومي دون أن أراه!

إنّها لوحةٌ فسيفسائيّة تجسّد صورةً جانبيّةً لامرأةٍ فاتحة السُّمرة لا ترتدي غيرَ وشاحٍ أبيض قصيرٍ تلفّه حول جذعها. إنّها هنا أمامي، في عمق الحُصيّات المرصوفة، في عمق الألوان، واقِفةً وقْفةً فيها انحناء. بوسعي أن أرى شكلَها: الساقان منفرجتان قليلًا، الذراع اليمنى مقوّسةٌ ممدودةٌ إلى الأمام واليسرى مضمومةٌ تتّجه كفُّها إلى فمِ المرأة المفتوح

بشكلٍ مدوَّرٍ علامةً على الدهشة. الذراع المثنيّة تُغطّي نصفَ الثدي الأيسر، أمّا الأيمن فنافرٌ بادي الاستدارة أسمرُ الحلمة. البطن ضامر. ونصف الفخذ الخارج من قطعة القماش البيضاء فيه امتلاء.

وأنا أتملّى لوحةَ الفسيفساء، نفذتْ رائحةٌ مّا إلى خيشومي، رائحةٌ لها مكانٌ غائم في ذاكرتي. أريـجٌ له مكانٌ في القلب بالأحرى. أيّتها الفسيفساء الخرساء، لو تدَعِين هذه السمراء الحاملةَ لتقاسيم جميلات الأمازيـغ الموريّين، لو تدَعينها تخرج من إسار الحصيّات المكعَّبة إلى الواقع. لو تهَبِينَها جواز سفرٍ إلى أرضنا الواقعيّة في عريها الفسيفسائيّ المطروز على هوى فنّانٍ رومانيّ مُكتوٍ بنار الجسد الأمازيغيّ الأسمر المتين الفائض الأنوثة.

منحنيًا، وما أزال، على الفسيفساء المحيِّرة، ناسيًا ما ينتظرني من تنظيفٍ وغسيل، كنتُ أتأمّل بعمقٍ هذه المرأةَ الشاخصةَ العينين، الجامدة الملامح. تنظر إلى الفراغ بهيئة مَن يرى شيئًا مفزعًا ورهيبًا. وتعجّبت كيف أمضيتُ أكثر من شهرَين هنا دون أن أكتشفَ هذه السمراء الّتي تنام بجانبي كلّ ليلة. تطلّعتُ إلى جنبات الفسيفساء. وفي أسفلها تبيّنتُ نقشًا يضمّ ثمانيةَ أحرف كالآتي:

**VICERUNT**

ولم أفهم ما تعنيه هذه النقوش، قد تكون الحروفَ المشكّلةَ لاسم صانع الفسيفساء، أو اسمِ هذه المرأة السمراء نفسها.

أمِنْ قلب هذه الفسيفساء كان يتصاعد ذلك الصوتُ صباحئذٍ؟ أَمِنَ المعقول أن يكون ذلك الصوت الرقيق الحادّ النبرة الّذي تسلّق ساقيَّ

ليسكن رأسي صوتًا لامرأةٍ رابضة، أو سجينةٍ على الأصحّ، في فضاء فسيفساءٍ راقدةٍ منذ لا أدري متى؟

توقّفت مليًّا عند نظرة المرأة. وتذكّرتُ نظرةَ سمراءِ الحلمِ عند بوّابة وَلِيلي الشماليّة. كانت غادةً طويلةً فائضةَ الأنوثة. شعرُها طويلٌ فاحمُ السواد يندلق بكثافةٍ على مساحة ظهرها إلى حدود الخاصرة. جبهتُها عريضة والذَّقنُ حادٌّ. والْتَمَعَ في ذهني ربطٌ حتميٌّ بين الصورتَين. وهنا غمرتْني دهشةُ الاكتشاف المُريب مع سعادةٍ غامضة، وأفلتتْ من فمي عبارة:

«غير معقول.. ما أشبهها بامرأةِ الحلم!».

هذه الفسيفساء تحمل شيئًا من ذاك النقش الملوَّن الّذي رأيته على أرضيّة الحلم!

# جواد

**الجمعة 25 نونبر 1994**

يرنّ المنبّه في تمام السابعة. أتجاهلُه. ولا أفيق حتّى السابعة والنصف. أغيّر ثيابي بسرعة. أسخّن على كانون الغاز قطعةَ خبز. أدهنها بالزبدة، وأشرب معها عصير برتقالٍ كان في الثلّاجة. آخذ محفظتي الجلديّة وأخرج. أسحب خلفي بابَ البيت ثمّ باب الحوش. وأنبري إلى المرتفع مسرعًا صوبَ المدرسة.

المدرسة تتوسّدُ خاصرةَ جبل زرهون. التلاميذ يلهثون وهم يتقلّدون محافظَهم الثقيلة لبلوغ المدرسة المشيّدة في الأعلى بأقسامها الثلاثة مشرفةً على قرية فرطاسة. ولا أدري لماذا ابتنوا مؤسّسةً تعليميّةً في هذا المكان الوعِر، وتركوا أراضيَ السهل لمُلّاكها، ولأشجار الزيتون! وكأنّ الزيتون ينقصهم في هذه البلاد الّتي لو عُصر محصولُها زيتًا في موسمٍ واحد، ودُلِق في سفح جبل زرهون لامتلأ وَادِيَا خومان وفرطاسة القاحلان زيتًا «بلْديّا» بَدلًا من الماء الّذي هجرَهما.

أسير في منعطفات المرتفع وأنا أنصتُ إلى حذائي الرياضيّ وهو يوقّع خطواتي الخفيفةَ ليضيفها إلى ملايين الخطوات الّتي سجَّلَتْها ساقاي في سلّم عمري الهارب منْذ خطوتي الأولى رضيعًا. أنا المهووس بالخطو، بالوثب، بالمشي، بالركض، بالإسراء، بالإدلاج، بالرحيل، بالارتماء في الطرق الملتوية المؤدّية إلى التيه، إلى اللّامنتهي. هكذا هي خطواتي، خفيفة، حثيثة، أنا الضاجّ بالحركة دومًا. هكذا كانت تقول أمّي. ولا أنسى

جملتَها الّتي لا تملّ من تكرارها: «كنت أحسّ بك وأنت تمشي في بطني». وتضيف: «إنّ الأمر ليس توهُّمًا أو ضربًا من المبالغة يا ولدي جواد. هي الحقيقة. لم تكن تكفّ عن تحريك قدمَيْك في الأشهر الأخيرة من فترة حملي بك. كنت تحرّكهما بانتظامٍ مدّةً طويلة. فأحسّ كما لو أنّك في رحلةٍ طويلة، كأنّك قادمٌ. وكان وصولك مبكّرًا، قبل إتمامك تسعة أشهرٍ في رحم أمّك».

المشي في مرتفع جبل زرهون يحرّض لديَّ ذاكرةَ المشي، يستدعي حلقات المشي الطويلة الّتي خُضْتُها، نوبات الذهاب والإياب، نزوات الرحيل الّتي اجترحتْها قدمايَ في درب عمرٍ محفوفٍ بحُفر الخيبات. مدّة عشر دقائق مشيًا في المرتفع لها مفعولُ السحر في جسدي الخامل الّذي أنهكتْه السجائر وقلّةُ النوم وكتائبُ من كوابيسَ وأحلامٍ تأخذني دون وعيٍ منّي، ودون إذنٍ، إلى أنقاض المدينة الرومانيّة القائمة بالجوار. وكأنّ لجبل زرهون علاقةً بالأمر. لطالما أحسستُ أنّ لروح الجبل دورًا في تلك الطاقة وتلك الحيويّة اللتَين أجدني مفعمًا بهما في صباحاتي الأولى بزرهون. دقائق عشْرٌ أسيرها في الطريق الملتوية الصاعدة. الشمس لم تمسح بعد بكفّها الصباحيّة على السفح. أستقبل تلامذتي. ضحكاتهم المندلقة بالبهجة وأجسادهم الضاجّة بالحركة تنفض عنّي بقايا الكسل، فأقبل عليهم بنشاط. لَكَمْ أحبُّ هؤلاء الكتاكيت الصّغار! وبالمقابل أرى حبّهم، الممزوج بدهشتهم البريئة، متلألئًا في عيونهم الصغيرة. أيمن، معاذ، فدوى، إيناس، ياسر، عبد الحليم.. لو تسنّى لي أن أعود إلى الطفولة لأعيشها مرّةً ثانية، لرفضتُ أن أكبر في قريتي الأطلسيّة القاسية، ولاخترت أن أكون طفلًا زرهونيًّا أو فرطاسيًّا يكبُر في ظلال الزيتون وعندما يبلغ السادسة أو السابعة من عمره يشرع في تسلّق سفح هذا الجبل مثقلًا بمحفظته الصغيرة، طفلًا يسير في ظلال

شجر الزيتون، يهصر غصنًا من هذه الأجمَة ويقطف حبّةَ زيتونٍ من تلك، ويرمي طائرًا بحجر. ولو خُيِّرتُ، بين تلامذة الصّفوف المسندة إليَّ، أيّهم أتمنّى لو كنتُه في صِغري، فلسَوْف أختار أيمن. ذاك الولد الّذي يثوي الذكاءُ في عينَيه البنّيّتَين الصغيرتَين. ببديهته الحاضرة ودهائه وسَعَة مخيّلته يسرق المعلومةَ من عينَيْك قبل شفتَيْك. ولا ينفكّ يطالبك بالمزيد.

عند نهاية حصّة هذا الصباح، تأخّر أيمن في مقعده منتظرًا خروجَ زملائه في الفصل. حينها فتَح محفظتَه وأخرج رزمةَ كتّانٍ أبيض ملفوفةً في كيسٍ بلاستيكيٍّ شفّافٍ ومدّها إليّ قائلًا:

- هذه من طرف أمّي.. بيضات بلديّة مسلوقة.

في المساء عدتُ من المدرسة جائعًا. أعددتُ رغائفَ ودهنتُها بزيت الزيتون، تناولتُها مع قهوةٍ مخلوطةٍ بالحليب. فتحتُ رزمةَ الكتّان، أخذتُ منها بيضةً بلديّة، ووضعتُ البقيّة في الثلّاجة.

# أريادنا

**الخميس 22 دجنبر 1994**

كان صديقي جواد عائدًا من المدرسة، منشغلًا بانقطاع الكهرباء المفاجئ الّذي تركه ليلةَ أمس في ظلمة حالكة، فنام مرغمًا قبل الموعد المعتاد. وفي طريقه، مرّ بدكّان حمّاد السوسي، الدكّان الوحيد في القرية. قال حمّاد البدين، وهو يمدّه برزمة من الشمعات، إنّ الانقطاع عمَّ فرطاسة كلّها بسبب رياح ليلة أمس، كانت قويّةً هبّت على القرية فرَجَّتْ أسلاك الكهرباء وأحدثت بها تَلَفا. وأضاف أنّ عون السّلطة، المشرف على فرطاسة، اتّصل تلفونيًّا بموظّفي وكالة المكتب الوطنيّ للكهرباء بزرهون ليسرعوا إلى إيجاد مكان الخلل كي يُصْلَح.

وضع رزمة الشموع في محفظته، وغادر أمام نظراتٍ فضوليّةٍ يرسلها قرويّان مُجَلبَبان واقفَان جوارَ الدكان.

سار بضع خطواتٍ على الأرض المبلّلة تاركًا خلفَه مركزَ القرية. رفع عينيه إلى خيال امرأةٍ عابرةٍ تلتحف الحايك ولا يظهر منها سوى نصفِ وجهها. التقت نظرتاهما فعرفَها على الفور. كانت سعاد أمّ أيمن بعينَيها الواسعتَين القهويّتَين وجسدها المكتنز. سلّمت عليه باحتشام. وأسفل الوجه البشوش لمح جوادُ الحايك ناتئًا عن صدرٍ يندر جمالُ امتلائه. وبرقتْ تلك النظرة الناعمة في قرصَيْ عينَيها. تأكّد الآن أنّهما فعلًا عينان عذبتان تنظران بسخاء اتّساعهما. سألها عن زوجها الغائب. وسألته عمّا إذا كان متزوّجًا. ضحكت واعتذرت عن سؤالها متظاهرةً بأنّه في غير

محلّه. فضحك جواد وشكرها على بيضاتِها «البلْدية» المسلوقة. واشتكى من عيشة العُزّاب. واشتكت هي من الوحدة. وتمطّط حبل الكلام بينهما في تلك الوقفة. فقالا أشياء كثيرة عنه وعنها في وقت وجيزٍ غير مباليَيْن بالعيون الفضوليّة المنشغلة برصدهما وتخمين مبلَغِ انسجامهما. وعندما قال لها «إنّ اسمك جميلٌ يا سعاد». ردّت فورًا وهي تضحك «سمّوني هكذا لأنّي أساعد الناس». ولم يكن جواد ليضيّع الفرصة، فقال اختصارًا للمسافة وللوقت:

- ما رأيك أن تزوري بيتي لمساعدتي في لملمة فوضاي؟

وهنا أيقَنَ جوادُ بأنّ المصادفة رمَتْ بذرةَ عشقٍ جديدةً في أرض حياتِه، فما كان منه إلّا أن انبرى لها باهتمامه وسُقْياه. كانَ جواد مُتحفِّظًا في البداية في إحاطتي بقصّته مع سعاد، لكنّي شجّعتُه. فأنا في النّهاية لست سوى واحدةٍ من صديقاتِه اللاّتي عبرْن برّيةَ حياتِه البوهيميّة الموحشة.

# أريادنا

**الأربعاء 4 يناير 1995**

مضت ثلاثة أشهرٍ وثمانية أيّام على الحلقة الثالثة من ذاك الحلم المريب الّذي رآه صديقي الأطلسيّ. وها هو يعاود الظهور متكرِّرًا في منامه على نحوٍ فظيع. صدِّقوني إن أعربتُ لكم عن دهشتي من الحلم المتسلسل الّذي يُبَثُّ على شاشة دماغه النائم. كان جواد مساحةً خصبةً من الأسرار. علاوة على أن له طقوسه البسيطة وأسلوبه الخاصّ في العيش والنظرِ إلى الحياة والأدب والفنّ، فقد وجدتُ حياته متفجّرة دومًا بالحكايات والألغاز، لذا وجدتُني أشحذ قلمي لكتابةِ تفاصيلَ منها في روايتي. أوَليسَ جوادُ مُرشِدي إلى وَلِيلي وفسيفساءاتِها ولياليها المفخّخة بالأسرار؟

سأبدأ سَردَ الحلم المتكرّر، كما حكاه لي جواد، من تلك اللقطة الّتي طالعَه فيها نقشٌ ملوَّنٌ على الأرضيّة:

**حلم ليلة من ليالي الشتاء - 4 يناير 1995 (النسخة الرابعة)**

كان نقشًا فسيفسائيًّا يصوِّر ثلاثةَ أشباح: رجلَين وامرأة. رجلٍ أسمر وآخر أبيض، ومعهما امرأةٌ فاتحة السمرة. الرجل الأسمر في يده سيفٌ يوجّهه نحو خاصرة الرجل الأبيض. وعلى وجه هذا الثاني نظرةُ فزع، نظرةُ احتجاجٍ يائس، نظرةُ شخصٍ يتلمّظ مرارةَ الخذلان، نظرةُ مَن يطرق بابَ الموت بقبضةٍ غير واثقة. وعلى نحوٍ غير مفهومٍ انتزعتِ اليدُ الخنجرَ من صدر الرجل المطعون فأشهرتْها في وجهي. ولم أملك

أدنى قدرةٍ على الحركة أو التراجع إلى الخلف لتفادي النّصل اللّامع، بل إنّي لم أقدر حتّى على الوقوف. كانت أطرافي مشلولة. ارتفع النصل. سبقته نظرةٌ حادّةٌ جامدةٌ من الرجل الأسمر، هي النظرةُ ذاتها الّتي كان ينظر بها إلى الرجل الأبيض. تحولت إليَّ النظرةُ يسبقها السكّين. ارتفعت الذراع، نتأتْ من قلب الفسيفساء كوتدٍ لفظته الأرض.

كان طرف الذراع الطالع من الأرض يلمعُ بالنصل الحادّ. والنصل يتّجه بتصميمٍ نحو بطني ليبقرها.. وحينها..

وحينها استيقظ جواد. ألفى نفسَه في فراشه مبلّلًا بالعرق. كان الوقت فجرًا وقد تناهت إلى مسمعه أصواتُ ديوك فرطاسة وهي تتنافس على إعلان قدوم الصباح. وظلّ يتساءل:

استفاق، وكأنّه لم يستفق. بقي أسيرَ الحلم، سجينَه. وجد راحة يده تشدّ على بطنه. بسطَها أمامه فألفاها ترتعد وكأنّ جزءًا من وعيه المشتّت كان يتوقّع أن يجد بها دمًا. كانت يده ترتجف كما لو لمست جرحًا غائرًا ببطنه. جسّ أسفلَ بطنِه. تفحّص كفّه باحثًا فيها عن تلك النقوش الّتي تركها موشومةً على أرضيّة الحلم. كانت كفُّه خاليةً إلّا من الرعشة. وقد سكنت الرجفةُ كاملَ جسده وتفصّد منه العرق غزيرًا. غزا خدرٌ أطرافَه كلَّها. طفق ذهنه يجترّ تفاصيل الحلم المكرورة، من لحظة رؤية السمراء الراكضة إلى لحظة سقوطه أسيرَ الأرضيّة المزخرفة الّتي طلع له منها نصلُ الخنجر القاتل. ولم ينفكّ يسائل نفسه:

ما هذا الّذي فعله بي حلمٌ متسلسل!؟

كيف لي أن أوقف نزْفَ الحلم في هذا البيت المسكون بأنّاتِ امرأةٍ قادمةٍ من زمنٍ سحيق؟

# الفتى الموريّ

## (رواية)

## جواد الأطلسيّ

## أيدمون

سيجتهد أبي مرّةً أخرى ليبحث لي عن شغلٍ داخل أسوار وَلِيلي الفردوسيّة، تلك الأسوار الّتي ارتفعت بين ليلةٍ وضحاها وشهقت وباتتْ تحجب عنّا الحياة الناغلة داخل المدينة.

لم ينتظر أبي كثيرًا عندما أخبرتُه بتسريحي من العمل. فقد قام فورًا وقصد الرّجل الّذي توسّط لنا من قبل، صديق أبي الّذي بدا لي كأنّه منجم وظائف. وعلى الفور دبّر لي شغلًا جديدًا عند صانع المحاريث الخشبيّة.

اشتغلت عنده صبيَّ نجّار. كان يكلّفني بتقطيع أخشاب السنديان والزيتون على مقاساتٍ يحدِّدها لي مسبقًا. ثمّ علّمني كيف أفلق الأعواد اعتمادًا على فأسٍ ثقيلة. بعدها أحمل منجرًا يدويًّا وأصقل القِطع حتّى تغدو ملساء السطح، ثمّ يأتي دور المعلّم الّذي يصنع لها ثقوبًا تمهيدًا لتركيبها حتّى تصير محاريث تجرّها الدّوابّ. كنت أعرف أنّ صناعة المحاريث مهنةٌ موسميّةٌ يزاولها هذا المعلّم شهرين أو ثلاثة على الأكثر، ويعود بعدها إلى صنع المقاعد والموائد حسب طلبات الناس. صباحَ يومٍ متأخّرٍ عن ركْب أيّام الخريف، عند انتهائنا من تجهيز محراثٍ جديدٍ

أرسلني المعلّم إلى الحدّاد الّذي لا تفصل محلّنا عن محلِّه سوى ثلاثة مبانٍ أو أربعة. بعثني كي آتيه، كالعادة، بالسِّكّة ليقيس عليها ظِلف المحراث. وجدتُ الحدّاد المدعوّ بوكوس منكفئًا على الكير الجلديّ ينفخ بهمّة الجمار الحامية في الموقد. ثمّ ينحني على سندانه مسدّدًا ضربات المطرقة إلى مجسَّمٍ مثلّث الشكل ما زالت عليه آثار حمرة نار الجِمار. كان الرجل ضخمَ الجثة، داكِنَ السّواد. وأسنانه بيضاء إلّا سنًّا أماميّةً واحدةً سوداء بالكامل. عندما يضحك تلوح السنّ السوداء في فمه الواسع كعنزةٍ شاردةٍ بين صفٍّ من الشياه البيضاء.

توقّفت إلى جانبه أتأمّل يديه الدربتَين وهما تنهالان على السّكة المحمرّ رأسها كالجمرة، يمسك حديدَها الساخن بكمّاشةٍ كبيرة يُحكِم عليها قبضته اليسرى بقوّةٍ فتبرز عروقُ ظاهر كفّه. وعندما يتنبه إلى تركيزي مع حركاته يبتسم ويغمز لي بعينه اليسرى. يرفع رأسه وينظر إليّ بين سلسلةٍ من ضرباتٍ متلاحقة، ويغمز لي مرّةً أخرى، لكنْ بالعين اليمنى، كأنّما يقول بعينَيْه: «هكذا عليك أن تتعامل مع الحديد الساخن قبل أن يبرد».

لا أدري لماذا شدّتْني إلى هذا الرجل عاطفةٌ مبهمةٌ هي مزيجٌ من التقدير والإعجاب والهيبة أيضًا من شكل يدَيه وساعدَيه الضخمَين وضحكته الكاشفة عن السنّ السوداء العجيبة. لمّا أنهى معالجة سكّة المحراث، عمد إلى طستٍ كبيرٍ وغرَف منه طاسة من الماء، وشرع يصبّه على السِّكّة حتّى بردتْ. لفّ السكّة في قطعة خيشٍ ومدّها إليّ وهو يبتسم بسنّه الشاردة العجيبة. تأبّطتُ السكّة الملفوفة وسِرْت بها متلكّئًا في اتّجاه المعلّم النجّار. وفي الليل عندما أويت إلى فراشي حلمت بالحدّاد

صاحبِ السِّن السوداء. حلمتُ بأنّي أشتغل في محلّه، ورأيتُه يداعبني، في المنام، بيده الكبيرة فأضحك.

❃❃❃

أخرجُ في الصباح الباكر من كوخنا وأنحدر بين الحقول وآجام الزيتون، متّجهًا إلى وَلِيلي. صار حارسُ البوّابة الشماليّة يعرفني، وكلّما مررتُ به أجامله بملاحظاتي عن طاقيّته الرومانيّة الّتي تتحلزن على رأسه فيبدو كبهلوانٍ مضحك. لكنّي لا أقول له هذا. بل أكتفي بإبداء إعجابي بطاقيّته ومدْحِ ضخامته وفحولته المتفتِّقة من شاربٍ لا يكفّ عن لفِّه بسبّابته والإبهام فيغدو دائريًّا كقرنَي شيطان. يضحك ويُثني على نطقي اللّاتينيّةَ نطقًا سليمًا.

أبلغُ ورشةَ المعلّم بوكوس الحدّاد. لقد صرت حدّادًا متعلّمًا في محلّه الكبير بعد أن ألححتُ على أبي في أن يقصده فيحدّثه في أمري مشتكيًا من قسوة النّجّار مشغِّلي السابق. كنت أعرف أنّ هذا الإلحاح آتٍ من ذلك الإحساس بالألفة الّذي شدّني إلى هذا المخلوق الأسوَد ذي السنّ العجيبة، ومن زيارته الغريبة لحلمٍ من أحلامي.

منذ أيّامي الأولى بالمحلّ لمسَ المعلّم بوكوس فطنتي وسرعةَ بديهتي في تعلّم شؤون المحلّ وتدبّرها. فقد برعتُ في صناعة السكاكين والخناجر. وكنت قادرًا على حَمل أكثر ممّا يحمله الصبيان في سنّي دون عناءٍ فأعطاني مهامَّ إضافيّةً، وبدلًا من القطعة النقديّة البرونزيّة الواحدة صار يعطيني اثنتين.

كانت جبهتي مبلّلةً بالعرق من فرط تلك الحرارة الصاخدة المنبعثة من موقد النار أمامي، حين ناداني بوكوس لألبّي طلبَ زبونتَيْن شابّتَيْن واقفتَيْن في مدخل المحلّ. كانت إحداهما تحمل بيدَيْها طستًا حديديًّا صغيرًا، اقتربتْ ومدّتْ إليَّ الطست الدائريّ وهي تشير إلى ثقب في قاعدته يتسرّب منه الماء عندما يكون ممتلئًا. أمسكت بالطست لأتفحّص قعره. شرعتُ أقلّبه وأنظر إليه من أسفل. كان به ثقبٌ صغيرٌ يسهل لِحامُه. منذ دخلت الفتاتان وأنا أحسّ ما يشبه طاقةً جديدةً تملأ المحلّ. أحسستُ كأنّ نسمةً منعشةً تهبّ من المدخل، وكأنّ هذه النسمة قذفت بفراشاتٍ غير مرئيّةٍ طفقت تمسح وجهي العرقان بوداعة. رفعتُ عينيّ إلى الشابّة الأخرى. كانت ترتدي ثوبًا أحمر، تطلّعتُ إلى أطرافه الّتي تلامس الأرض، فألفيتُ شبشبًا صغيرًا أنيقًا يطلّ منها. صعّدتُ عينيَّ مع الثوب لتستقرَّا على فتاة سامقةِ القوام رشيقةِ القدّ. كانت صاحبةُ الفستان تنقل نظراتها في زوايا المحلّ وهي تكتشف الخناجرَ المعلّقة ورؤوسَ الفؤوس والمعاول وحذوات الأحصنة وأعنّةَ البغال وسككَ المحاريث وأدواتٍ كثيرةً منثورةً في فضاء المحلّ. فوجدتُني أقف متصلّبًا أنظر إليها بافتتانٍ وأنا أمسك الطست الحديديّ بين يديّ. أنظر إليها وقد أيقنت أنّ تلك الطاقة الّتي استشعرتُها إنّما هي منبعثةٌ من ذاك الجسد الملفوف في الفستان الأحمر. في تلك اللحظة رأيتُها تجفل على وقع صهيلٍ حادٍّ اندلع فجأةً من باب المحلّ. كان هناك شابٌّ يسحب حصانًا قويًّا كي نصنع له حدوات. يسحبه من رسنه بمشقّةٍ بالغة. طفق رفيقي الأكبرُ في المحلّ يحاول الإمساكَ بقائمَةِ الحصان فصَهَل واهتزّ بقوّةٍ وكاد يصيب الشّابَّ بحافرَيْه الأماميَّيْن. كرّر المحاولة لكنْ دون نتيجةٍ سوى ازدياد اهتياج الحصان. كانت الفتاتان تتابعان المشهدَ في فضول. وضعتُ الطست الحديديَّ جانبًا وتقدّمتُ نحو الحصان وأنا أدندن له بكلماتٍ منغَّمة.

كان ينفخ بمنخرَيْه في احتدام. مددتُ يدي نحو رأسه فأذعنَ، وشرعتُ أربِّتُ على غُرّته، على شعر عنقه، فحمحم بارتياح، ثمّ هدأ وسكنَ هياجُه. شرعت في تثبيت الحدوات على حوافره بيُسر، وظلّ يحمحم بمسكَنةٍ ترحيبًا بلمساتي. لقد لانتْ شكيمتُه على يدي، وغَدا أكثر وداعة. وهو ما أثار المعلّم بوكوس وانتزع منه صفيرَ الإعجاب.

عندما فرغتُ من الحصان، عدتُ إلى حيث تركتُ الإناء الحديديّ. نظرت إلى ذات الفستان الأحمر. التقت أعيُنُنا على وقع نظرةٍ طويلةٍ ناعمة. عيناها زرقاوان مشرقتان، يا الله ما أحلاهما! كأنّهما شمسان تتوهّجان بألقٍ غريبٍ هو السحر عينُه. وجهٌ صغيرٌ مدوّرٌ وخدّان أَسِيلان يَسِيلان بشعاعٍ هو امتدادٌ لشعاع العينَيْن سماويّتَي الزرقة. نورٌ وهّاجٌ يغشى بصري فيكاد يصيبني بعمى ألوان. أنا الّذي ملأتْ عينيَّ شرارةُ اللهب أجدني أمام شرارةٍ نورانيّة، شرارةٍ لا تنتجها نيران الدنيا وأفرانها. إلهي أين طالعتْني هذه الشرارة الّتي أجْزِم أنّي أعرفها؟! هذا الوهج الملائكيّ أين لمَحْتُه؟ أين صادفتُه؟ وفي لحظةٍ اختلطت عليَّ فيها أحاسيسي وشُلَّت حركاتي، تذكّرتها. إنّها الروميّةُ سامقةُ البهاء الّتي رأيتُها بالمخبزة. تلك الّتي كانت وراء طردي من عملي الأوّل بين أسوار وَلِيلي. إلهي هاتان عيناها! كم هما فتّاكتان! إنّها هي. وهذه خادمتُها السّمينة. إنّها الروميّة البهية الّتي طيّرت زنابيرَ الوعي من رأسي لحظةَ اصطدمتْ عيناي بعينَيْها يومذاك وأنا أفتح دِفّةَ الطاقة لأتلصّص على جمالها. ها هي تعاود ظهورَها الطاغي. تكرّر حضورُها القاسي المعذِّب. ولكنْ ما بالُ عينَيْها مثبّتتان على وجهي بهذا الشكل القاتل؟ أكاد أحسّ بثقوبٍ تحدثها تانك العينان الكبيرتان في صفحة وجهي الّذي ألهبتْه حرارةُ الحديد الحامي. نظرتُها تحملني في سحابةٍ من اللذّة نحو أقاليمَ بعيدةٍ وأزمنةٍ سحيقة. تحملني عيناها على متن غمامةٍ ملبّدةٍ بالارتواء

الواعد، لكنّه ارتواءٌ من النوع المعذِّب، ذاك الارتواء المستحيل. تفتّقتْ من جسدي رعشةٌ جمّدت الإناءَ الحديديّ بين يديّ. وتوقّف الزّمن لمّا اقتربتْ. دنتْ منّي وألقت عليَّ تحيّةً مرتبكة:

- مرحبًا.

رنّت تلك الكلمةُ في أذني مثلَ موسيقى فردوسيّة. وبدأت الطاقةُ الوهّاجة تلفحُني فجفَّ حلقي، وبصعوبةٍ حاولت الرّدَّ عليها.

خرجت الكلمات من حلقي وقد خلتُها لكائنٍ آخر يجهر بها مستعيرًا صوتي:

- مرحبًا.

- قبل شهرَيْن تقريبًا كنتُ أرى شابًّا يشبهُك بالمخبزة..

- لقد.. كنت.. أنا.

لو حدّثتني كتلةُ النور هذه يومَ كنت عاملًا بالمخبزة لما استطعتُ أن أجيبها، لما فهمت بعض كلماتِها، لبدت لي ألفاظها غريبةً بلا معنى. هل عليَّ أن أبتهل إلى السماء شكرًا لأنّها رَمَتْ في طريقي صديقًا خدومًا بِرقَّة الخبّاز بَاهَا ووهبتْني أختًا ذكيّةً علّماني عباراتٍ كثيرةً من اللغة اللّاتينيّة في أقلّ من أربعة أشهر؟ فبفضلِهما، سأُجيدُ، في ظرفٍ قصيرٍ، استخدامَ لغة الرومان. وصار بمستطاعي كتابتها، بل غدوت أتكلّمُها بيُسر، وأشاكس بها الرومانيّين الذين أعرفهم. وكأنّ باها وأختي لم يعلّماني إلّا لألقَى هذه الإلهة الرومانيّة الّتي تسير على قدمَيْن وتتّشح بفستانٍ أحمر لذيذٍ كتفّاحٍ ناضج. كان لقائي بالحسناء الرومانيّة شاهقًا.

- اسمي أيدمون. أسكن.. خارج.. المدينة.

- وأنا سيلينا، حَلَلْنَا بوَلِيلي مذ كنتُ طفلةً صغيرة.. وهذه خادمتُنا تُدعَى أوكتافيا.

هكذا بدأ الكلام يغزل خيوطَه بيننا، وكنتُ أتابع ثنيّات ثوبها الأحمر وهي ترسم أنوثةً طاغيةً على هيئةٍ بشريّةٍ لو قالوا لي عنها إلهةً لما تردّدت في الركوع ابتهالًا إليها.

لحمتُ الإناءَ الحديديّ ببطء، متعمِّدًا إطالةَ مدّة مكوث سيلينا وخادمتِها في المحلّ لأستزيدَ من حضور الغيداء الّذي أسكَرني وأدخلَ الحبورَ إلى قلبي. لم يغب عنّي حسَدُ رفيقيَّ المتعلِّمَين اللذَيْن لم يكفّا عن البحلقة صوبَ وجه الحسناء، لكنّي رثَيْتُ لَهُما في داخلي لأنّهما لا يجيدان النطقَ ولو بكلمةٍ واحدةٍ من الرومانيّة. عالجتُ ثقبَ الإناء بصهارة الحديد والنار. وبعد أن برد، دققتُ موضعَ الثقب بعناية، وملأتُ الإناءَ بالماء لأتأكّد من عدم تسرّبه. تأبّطتِ الخادمُ الإناءَ وهمّت بالمغادرة. توقّفت سيلينا عند باب المحلّ، وقالت:

- أسكنُ بالحيّ الشرقيّ في الزقاق الرابع المتفرّع عن الشارع الرئيس. البيت الثالث على اليمين.

# سيلينا

أتذكّر يومَ اصطحبتْني أوكتافيا إلى محلّ الحدّاد بوكوس لإصلاح طستٍ حديديٍّ قديم. يومَها صادفت الفتى الموريّ.

لست أدري لماذا وجدتُني أتملّى في ذاك المخلوق وهو يراود الحصانَ الهائجَ بذلك اليُسر الباهر. يقترب منه ويدندن له بكلماتٍ منغّمة. كان الحصان لا يزال ينفخ هياجَه بمنخرَيْه. يمدّ الفتى إليه يدَه فيُذعن. يربّت على غرّته، على شعر عنقه، فيحمحم ويميل برأسِه نحو الشابّ في خضوع. يشرعُ في تثبيت الحدوات على حوافره بخفّة. يمسك بقوائمه، واحدةً تلو أخرى، يعالجها بهِمَّة، وبحبٍّ أيضًا. كان في حركات ذاك الفتى كمٌّ كبيرٌ من الحنكة والرشاقة والقوّة. وعندما نظر إليَّ، ووقعت عينايَ على حدقتَيْه، تدفّق بداخلي فيضٌ من مشاعر مبهمة. كان في نظرته دفءٌ ونداءٌ فاتن.

أعرف أنّي أبالغ أحيانًا في تقدير مشاعري صوبَ الأشخاص، لكنّ ذاك الفتى كان فريدًا. لكَم كان آسِرًا نُطقُه الكلماتِ الرومانيّةَ بلكنةٍ موريّة!

بدأت أُكْثِر من الإطلالة من نافذة الطابق العلويّ لعلّه يظهر في الزقاق كي أرى طلعتَه السمراء. وعندما لم يأتِ واظبتُ على مرافقة أوكتافيا في خروجها، وكنتُ أحرص على أن نمرَّ من أمام المحلّ حيث يشتغل. نعبر من هناك فأرى الابتسامةَ العريضة تعلو وجهَه وهو ينظر إليَّ. حينَها تتملّكني سعادةٌ غامرةٌ من فرطها تكاد تتعثّر خطواتي. لقد كانت لحظاتٍ جميلة بالفعل، لحظاتٍ لا نعرف قيمتَها إلّا بعد أن تَمضي.

# أيدمون

أخلع عنّي بزّةَ الحدّاد القذرة. أغسل أطرافي، وأرتدي تونيكًا نظيفةً اشتريتُها قبل أسبوع. أتركُ محلَّ الحدادة. وأصعد شمالًا والشارعَ الرئيس. أبلغ الزقاق الرابع الّذي يخترق الحيَّ الشرقيّ. لم يكن زقاقًا ضيّقًا. كانت بيوتُه مكوّنةً من دَورٍ سفليٍّ وآخر علويّ. أرفع عينيَّ وأعلّقهما بواجهة بيتٍ عالٍ عريضِ الواجهة. إنّه بيتُها. ولا يمكن أن يكون إلّا بيتَها. ثمّة طاقةٌ تنبعث من خلف تلك النوافذ الموصدة تقول لي إنّك يا سيلينا هنا.

بيتُ محبوبتي سيلينا يقع في الحيّ الشرقيّ من وَلِيلي. بناءٌ يوحي شكلُه بالقوّة والأمان والثراء أيضًا. دوره العلويُّ مرتفعٌ قليلًا وعريض. نوافذُه مصفّحةٌ بالزجاج. في منتصف الدور الأرضيّ مدخلٌ تتّضح فيه الروح الرومانيّة بجلاء. يا روميّة الهوى كوني هنا فأنا على بعد خطواتٍ منك، فلتظهري بالباب.

وأنا متوقّف لحظاتٍ في ظلّ مبنًى، في جهة الزقاق المقابلة للبيت العالي العريض. انفتحت دفّةُ نافذةٍ وأطلّت منها فتاةٌ شقراء فانخضّ قلبي. اتّكأتْ على دكّة النافذة. إنّها هي..! الروميّة الفارهة البهاء. سيلينا الحبيبة.

كانت ترتدي فستانًا أبيضَ طويلَ الكمَّين. خدّاها يصيبانني بدوخةٍ مَا عرفتُ مثلها من قبل. سأموت حتمًا، لكنْ سيكون للموت طعمٌ مختلفٌ إذا ما لامستُ خدَّ الشقراء ووقفتُ عن كثبٍ على هذا الهَبَل الّذي تسبِّبُه مجاوَرةُ جمالٍ ملائكيٍّ هيهات لأرضنا أن تنجب مثله. ما إن عرفتني حتّى لوّحت إليَّ. كان لتلويحة يدها الصغيرة فعلُ السحر في

قلبي الّذي انتفض بدقّاتٍ كقرعَاتٍ متسارعةٍ على طبولٍ رومانيّة. لم أبالِ بالعربات الّتي تجرّها البغال والجياد العابرة بالزقاق في اتّجاه الشارع الرئيس، ولا بالأصوات الّتي تبثّها المدينة في ذلك الوقت الصاخد من الظهيرة. لوّحتُ إليها من جهتي. فابتسمتْ. ومرّرتْ يدَها على خصلاتٍ ذهبيّةٍ متدلّية. حرّكت كفَّها الصغيرة ملوّحةً إليَّ مرّةً أخرى. انحنت وأسندت صدرَها إلى دكّة النافذة، فانهمر شَلّالُ الشَّعر الأشقر على وجهها. رفعتْه بكفّها واستقامت قليلًا إلى الخلف. انتصبتْ واقفة. تراجعت إلى الوراء دون أن تكفّ عيناها عن النظر ناحيَتي. ثمّ رفعتْ يدَها العاجيّةَ بتلويحةٍ تفيد الوداع، وكان فمُها يزدهر ولا يزال بابتسامةٍ حلوة. ثمّ غابت تاركةً دفّتَي النافذة مفتوحتَيْن.

❃❃❃

الخبّاز باها الّذي جمعتْني به أسابيعُ من العمل بالمخبزة سيقودني إلى معرفة صديقه الرومانيّ فلافيوس. وهو صانعُ فسيفساء بارعٌ قدِم إلى وَلِيلي مع المستوطنين الرومان من حِرفيّين وجنودٍ وتُجّار. احتكّ بالموريّين وتعلّم لغتَهم، وهو ما مهّد أمامه الطريق إلى مصاهرة مَلّاكٍ موريٍّ عُرف عنه شغفُه بنمط الحياة الرومانيّة. ظلّ فلافيوس، فترةً طويلة، أكثرَ صنّاع الفسيفساء الذين يقبل عليهم الرومانيّون، وحتّى الموريّون الذين ترَومَنوا، وحصلوا على بناياتٍ تُؤوِيهم داخل أسوار وَلِيلي. لم يكن ثمّة من ينافسه في إتقان حرفة الفسيفساء.

وأنا مسترخٍ تحت أشعّة شمسٍ ما بعد ظهيرةٍ دافئةٍ جوارَ محلّ بوكوس، مرّ بي باها الخبّاز. قال إنّه متّجهٌ إلى الحيّ الغربيّ لِلِقاء صديقه الرومانيّ فلافيوس الّذي يشتغل على رصف فسيفساء في بيتٍ حديث البناء. دعاني لأرافقه إلى هناك. فتركتُ أمرَ مراقبة المحلّ لرفيقَيَّ المتعلِّمين.

وصلنا إلى ذاك البيت. كان فخمَ البنيان، على الطراز الرومانيّ، وقد فرغ بُناتُه للتوّ من تبليط جدرانه الحجريّة بالجصّ. كان فسيحًا من الداخل، تمتدّ في وسطه باحتان، الأولى (الأتريوم) مربّعةٌ، في مركزها حوضُ ماءٍ مفتوحٌ على السماء لاستقبال ماء المطر. وهي تمثّل الجزء الرئيس من المسكن بحيث تتجمّع حولها أغلب حجراته. أمّا الباحة الثانية (الهورتوس) فسقفُها مفتوحٌ على السماء كالأولى، مستطيلةُ الشكل، تزيّنُها نباتاتٌ وشجيراتٌ غُرسَت حديثًا. في جنباتها أعمدةٌ كورنثيّةٌ سميكة، وفي مركزها نافورةُ مياه.

كان فلافيوس قد انبرى إلى أرضيّة الباحة الأولى المحيطة بالحوض، بقِطَع الفسيفساء، يرصفُها بخفّةٍ وتركيز. صفوفٌ من حجارةٍ صغيرةٍ، مربّعةٍ، مستطيلةٍ، ومثلّثَة بألوانٍ مختلفةٍ متدرّجةٍ اجتمعت بتناسقٍ باهرٍ لتشكيل زخارف هندسيّةٍ بديعة. قطعٌ متلاحمةٌ مرصوفة تُصوِّر كائناتٍ بحريّةً تنبعث من الأرضيّة حيّةً وجميلة. كان فلافيوس وحيدًا في ذاك البيت الفسيح. حيّاه باها فردّ بالأمازيغيّة. حيّانا بدفءٍ وبلا كلفة. ودهشتُ لفصاحة هذا الأشقر عندما خاطبني بأمازيغيّةٍ طليقةٍ مثل موريٍّ جابَ، ردحًا طويلًا من الزمن، سفوحَ الجبل المطلّ على وَلِيلي. وكنتُ أنا أنظر إليه متأمّلًا الشغفَ الّذي يسكبه على فسيفسائه. يلتقط القطع والحُصيّات بحبٍّ فيرصفها جنبًا إلى جنبٍ وكأنّه يغدق عليها من قلبه ومشاعره.

وأنا أتأمّله، تذكّرتُ اليوم الأوّل الّذي التقيت فيه بالحدّاد بوكوس. كانت في نظرة فلافيوس التماعةٌ جميلة. أحسست على نحوٍ بالغ التعقيد كما لو أنّ الأمرَ تكرارٌ لذاك اللقاء الأوّل. كانت نظرة فلافيوس الخاطفة إليَّ تقول إنّه يودّ لو كنتُ ببراعته كي أقاسمه ذاك الشغف

الّذي يعمل به، كي أقوم مقامه برصف الحصوات بالخفّة والمهارة اللتَيْن تخلقان سِحرَ صَنيعِه ذاك وجمالَه.

كانت ثمّة ترسيمةٌ على الأرضيّة الجيريّة الّتي لم تبلغها الفسيفساء. وفلافيوس يغطّيها بقطعٍ ينتقيها حسبَ الألوان المتدرّجة المتراوحة بين الفاتح والغامق. كان يحاول إتمامَ زخارفِ إطارٍ كبيرٍ يحمل أشكالًا هندسيّةً متواترةً تحيط بحَوض الباحة. وهو إطارٌ يُحيط بمشهدٍ فسيفسائيٍّ كبيرٍ تظهر فيه مجموعةٌ من الكائنات البحريّة. ظللتُ أتأمّل حركات أصابعه الرشيقة فأقيس بعينيَّ أحجامَ المربّعات والتزاويق المخطوطة بقلم الفحم على طبقة الجصّ الملساء الناصعة البياض.

سارَ بنا نحو الباحة الثانية الكبيرة. تمشّينَا في ممرّاتها ونحن نتأمّل الأعمدةَ الكورنثيّة بانبهارٍ، ونتملّى خيوطَ المياه وهي تندفع من النافورة الحلزونيّة راسمةً دوائرَ جميلةً تلمعُ في الهواء تحت شمس الظهيرة. تركتُهما يتجاذبان أطرافَ الحديث، وعُدتُ إلى الباحة الأولى. انسللتُ إلى حيث كان فلافيوس منكفئًا على قطعه المرصوفة. توغّلتُ بقدميَّ في أرضيّة الفسيفساء، وبينما كنتُ أتملّى في صفوف الحجارة الصغيرة الملوّنة، امتدّتْ يدايَ بفُضولٍ إلى كومة الحُصيّات والمكعّبات الصغيرة غير المرصوفة، وبدأتا في انتقاء المكعّبات الملوّنة ورصفها على الأرضيّة، جنبًا إلى جنب، على الطريقة الّتي كان يشتغل بها فلافيوس. ودون أن أكترث لإمكان غضبِ صانع الفسيفساء الرومانيّ من جرأتي على العبث بأشيائه وحصيّاته، انغمستُ في إتمام الزخارف الّتي بدأها. وعندما تنبّهتُ إلى تأخّر الرجُلَيْن ومكوثهما الطويل هناك حيث تركتُهما، رفعتُ رأسي فوجدتُهما خلفي، قريبًا منّي، ينظران إليَّ ويتابعان حركةَ يديَّ المنخرطتَيْن في ترتيب القطع، وعلامات الإعجاب ترتسم على

وجهيهما. لم أنتبه إلى وجودهما قُربي ولم أعرف منذ متى كانا يراقبانني. ابتسامة فلافيوس شجّعتْني على مواصلة رَصْف قِطَع الفسيفساء. اقترب منّي وبدأ يمدّني بقطع الحجارة الملوَّنة المناسبة لمَواضِعَ دقيقة. وكم كان اندهاشه كبيرًا لمّا سألني وأجبْتُه أنّي لم أزاول هذا العملَ قطّ من قبل. طبطبَ على كتفي وقال لباها إنّي موهوبٌ بالفطرة موهبةَ رجلِ فسيفساءٍ حقيقيّ.

وفي ظهيرة اليوم الموالي، وبينما أنا منهمكٌ في لَيِّ حديدةٍ قصيرةٍ لصُنع شُبُك نافذة، أغلقَ بوكوس باب المحلّ فجأةً. كنّا وحدَنا. ولم أفهم في البداية لماذا أغلَقَه. أعدتُ الحديدةَ إلى الجمار. نفختُ عليها بالكير حتّى احمرّ طرفُها. حملتُها من طرفها الآخر بيدي المقفّزة. انحنيتُ لأضعها على السندان، وإذا بالمْعَلِّم بوكوس يمسكني من خلف. وشرع في تقبيل عنقي ووجهي. حاولتُ صدّه، لكنّه دفعني بغتةً وأسقطني أرضًا على وجهي. ومدّ يده لينزع سروالي. انقلبتُ بصعوبةٍ على جنبي، ثمّ على ظهري. دفعتُه عنّي. تململَ جانبًا كصخرة، وعاد ليلتصق بي من جديد. حشَر وجهه في عنقي وبدأ يلعقه بفمٍ كريهٍ يسيل منه اللعاب. أمسكتُ بشعره الأشعث. ضغط على ذراعي بيدٍ واحدة. أفلتُّ شعرَه. استقام في جلوسه فوقي. نزع سترته القذرة بسرعة. ومدّ يدَه إلى حزام سروالي القصير من جديد. وجهه عرقان. بدا لي في تلك اللّحظة، على ضوء اللهب المنبعث من الموقد، مثلَ لحاء شجرةٍ هرمة. كان ثقيلًا، مثل دابّة. أنفاسُه تتلاحق. تتفاقم. تتصاعد. عرقُه المتفصّد عطِنُ الرائحة. وحشٌ ضخمٌ يعلو جسدي. كتلةٌ لحميّةٌ لا أقوى على زحزحتها من فوقي. أمسك بمعصمي. لوى ذراعي إلى خلف، مثلما كنت أفعل بالحديدة. وتذكّرتُ الحديدةَ الحامية الّتي سحبتها قبل قليلٍ من النار. نظرت بطرف عيني جانبَ السندان. كانت هناك على الأرض. أفلتُّ

ذراعي من قبضته. وزحفت إلى خلف ما استطعتُ فلحق بي وجثم بكلّ ثقله على صدري.

امتدّتْ يدي اليسرى المقفَّزة إلى الحديدة الّتي باتت قريبةً منّي الآن. وقعت كفّي على منتصفها. مددتُ الكفّ أكثرَ فوقعتْ على الطرفِ الساخن وشددت عليهِ بقبضتي. وعندما أحسست بالحرارة تلفح جلدَ القفّاز رفعت الحديدة بقوّةٍ وألصقت طرفَها اللّافح بالجانب الأيسر من بطن بوكوس العاري.

عوى مثل ذئبٍ جريح. ولم أنزع الحديدةَ حتّى انقلعَ من فوقي وارتمى جانبًا. قمتُ متعثّرًا في هلعي. اندفعتُ بقوّةٍ نحو الباب. ارتطمتُ بدفّتَيْه فانفتحتَا إلى الخارج. وانطلقتُ أجريفي الشارع.

كنتُ أسيرُ من غير هدًى، وأنظر إلى جنبات الشارع الّذي قَلَّتْ فيه الحركة زوالًا. وتذكّرت أنّي بالأمس وحسْبُ مررتُ من هنا. تذكّرت فورًا ذلك الرومانيّ صديقَ باها. مررتُ جنب ساقية الماء بالحيّ الغربيّ. غسلتُ وجهي ويديَّ وقدميّ. نشّفتُ نعلي. وسرت في اتّجاه ذاك البيت الفخم الّذي يشتغل فيه فلافيوس.

وجدتُه منكفئًا، كما كان بالأمس، على فسيفساء الباحة الفخمة يواصل تنضيدَ حصيّاتها. لم أحكِ له ما جرى لي مع المْعَلِّم بوكوس، ولا أبديتُ له شيئًا من تأثّري بما جرى. ألقيت عليه التحيّةَ مبتسمًا، وأحسستُها ابتسامةً واثقة. كانت ابتسامةَ انتصار. ردّ عليَّ بابتسامةٍ لطيفةٍ وأشار بيده أن أتقدّم إلى بساط الفسيفساء غير المكتملة لأُعمِلَ فيها يدي. فانحنيتُ على الحُصيّات أرصفها، وبين فينةٍ وأخرى أرفع عينيَّ إلى فلافيوس. شتّان بينَه وبين بوكوس الوحش. وفكّرتُ لحظاتٍ في

مقاومتي البطوليّة دفاعًا عن شرفي، متسائلًا في أعماقي كيف أمكنَني هزْمُ رجلٍ بذاك الحجم وأنا لا أزال أحوم حول السابعة عشرة من عمري؟

كنت ألتقط القِطعَ الحجريّةَ وأحشرُها في أماكنها متتبّعًا الشكلَ الهندسيّ المرسومَ على بلاط الجير. غمرتْني الفرحةُ عندما عبّر فلافيوس عن انبهاره بخفّة يدي ونجاحِها السريع في العثور على القطع المناسبة لتموّجات الرسمة. وعندما اقتربَ الليل، هممتُ بالانصراف إلى كوخنا خارجَ المدينة. فأعطاني أربعَ قطعٍ برونزيّة، وطلبَ منّي أن أعود إليه في الغد.

منذ ذلك اليوم، غزت الفسيفساءُ حياتي. علّمني فلافيوس، قبلَ الشروع في كِساء الأرضيّات أو جدران الغرف بالقِطع والحُصيّات، كيف أهيّئ للفسيفساء في البداية بفرشةٍ من الملاط. هي فرشةٌ ممهَّدةٌ تتكوّن من خليط الرمل والجير والزلط والماء. فسيفساء الحمّامات كنت أستعمل في تبليطها طبقةَ الجصّ الخالص. وعندما يجفّ، أخطّ عليه بقلم الفحم التصميمَ المراد تنفيذه. في أحواض الحمّامات تدرّبتُ على نقل تخطيطاتِ الأسماك والحوريّات وتصويرها.

بعد أن أُعِدَّ الترسيمة، أو التصميمَ الهندسيَّ للمشهد، أحمل مقراضًا حديديًّا وأكسّر الحجارةَ والخزفَ وبقايا الجرار إلى مكعباتٍ وقطعٍ وكِسر صغيرةٍ مربّعةٍ ومثلّثةٍ ومستطيلة. وقد أستعين بالأصداف وحصى الأنهار وشظايا الرخام. وأرصف هذا كلّه في تناسق. وأحرص على إظهار تدرّج الألوان لتجلية الظِّلال وتقاسيم الوجوه. فتتألّف أمامي على الأرضيّات قطعٌ متناسقةٌ ومتلاحمةٌ تُسفِر عن مشاهدَ تحمل لقطاتٍ نابضةً بالحياة.

غزت الفسيفساءُ حياتي. واندلعتْ بمخيّلتي رسوماتٌ ومشاهدُ كثيرةٌ صارت تدعوني بإلحاحٍ إلى ترجمتِها في فسيفساءات ناطقة. هي مشاهدُ مستوحاةٌ من مناظر الطبيعة، مشاهد أسطوريّةٌ سكنتني منذ رأيتها في رقوق الأرملة الرومانيّة مشغِّلةِ أختي، مشاهد تخيّلتها، وأخرى حلمتُ بها.

ولن أنفي هنا أنّ لهذا الشغف الوليد بالفسيفساء علاقةً مريبةً بذلك الحلم الخارج عن نطاقِ مألوفِ مناماتي، حلمٍ رأيتُني فيه جالسًا على فسيفساء رهيبة، حلمٍ وَشَمَ ذاكرتي كقدر. أنا الّذي سطّرتِ الأحلامُ جُلَّ أقداري، حلمٍ لم أستبعد قطُّ كونَه نبوءة، مثل أحلامٍ شاهقةٍ رأيتُها في منامي ولم تتأخّر الأيّام في ترجمتها إلى واقعٍ ملموسٍ عشتُه بجوارحي، حينها تكفّ تلك الوقائع عن أن تكون مجرّدَ حلم. فسيفساء الحلم لازمتْني. سكنت زاويةً عميقةً في دماغي. ظلّت تطاردني في يقظتي مدّةً طويلة. ومن كثرة استحضاري إيّاها، بدأتْ تفاصيلُ إضافيّةٌ تتّضح لي فأُدمِجها في صورة ذهنية، ليتشكّل هناك، في قرارة مخيّلتي، مشهدٌ آسرٌ ظلَّ يناديني باستمرار، يدعوني كي أُخرجَه إلى الوجود، كي أصنَعَه بيديّ.

# سيلينا

ونحن عائدتان ذات صباحٍ بسلّة الخبز الطازج، تجاوزنا المحلَّ بقليل، فسمعتُ صبيًّا صغيرًا يناديني:

- سيلينا!

التفتّ نحو الصوت ذي النبرة الرقيقة. كان صبيًّا أسمر تجاوز العاشرة من عمره كما خمّنْت. عرفت من لباسه أنّه من الصبية المتعلّمين لدى الحدّاد بوكوس. كانت في يده قطعةُ رقٍّ ملفوفةٌ مشدودةٌ بخيطٍ أحمر. ودون أن ينطق، مدَّ إليَّ اللفافة، وولّى راكِضًا في اتّجاه المحلّ.

بسطتُ الرقَّ المكتوبَ بخطٍّ كبيرٍ داكن، كانت به ثلاثُ جمل. قرأتها فرقص قلبي:

***«أنا أيدمون***

***سعدتُ كثيرًا بمعرفتك***

***اُكتبي لي عنك يا سيلينا».***

حالما وصلنا إلى البيت، بحثتُ عن قلمٍ ودواةٍ وقطعةِ رقّ. كتبتُ له دون أن أفكّر كيف أبعث إليه برسالتي:

***«أنا سيلينا سيفروس ولدتُ في روما.***

*هاجرنا إلى هنا وأنا طفلةٌ صغيرة. أمّي ماتت.*

*أعيش مع أبي وخادمتنا أوكتافيا. وماذا عنك؟».*

توالت رسائلُنا. وكان الصبيّ الأسمر مرسولَنا الأمين. كلّما لوّحتُ إليه بيدي جاء إليَّ راكضًا تسبقه البهجةُ فأسلّمه الرسالةَ ليأتيني بالجواب في اليوم الموالي. هكذا أخذت قصّتُنا مسارًا جديدًا، وبدأنا نكتب عن كلّ شيء. لاحظتُ أنّ أيدمون بدأ يطوّر مستواه في كتابة اللغة اللّاتينيّة. وقد باح لي بأنّ الرغبة في مراسلتي دفعتْه إلى أن يشتري رقوقًا وقلمًا خيزرانيًّا ومحبرةً ويعتكف على قراءة رقوقٍ كانت تحضرها أختُه من بيت أرملةٍ روميّة تشتغل عندها. صار يكتب بوضوح وينقش أيضًا. بعث إليَّ بنقوشٍ بديعةٍ رسمَها لكائناتٍ ومخلوقاتٍ أسطوريّةٍ غريبة. وعندما سألته عن سرّ مهارته في النقوش، أخبرني أنّه لم يعد حدّادًا، بل صار يشتغل مع حرفيٍّ معروفٍ في وَلِيلي يَصنع الفسيفساء. كتبت لهعن فرحتي بالخبر لأنّه وجد حرفةً تشبهه وتشبه روحَه المزهرة بالألوان. في كلّ رسالةٍ كنت أكتشف أيدمون آخر: أيدمون متّقدَ الذكاء، أيدمون فنّانًا واسعَ الخيال.

***

وبحلول شهر سبتمبر كانت استعدادات المدينة جاريةً على قدمٍ وساقٍ للاحتفال السنويّ بِعيد الكونسيبتيفيا *(Conceptivae). حينَها كتبت له:

***«بعد غدٍ ستحتفل المدينة بالكونسيبتيفيا.***

***إنّه موعدٌ مناسبٌ لنتقابل»***

وبعثتُ الرسالة مع أوكتافيا. وفي مساء ذلك اليوم، خرجت خادمتُنا الحبيبة، فعادت ومعها الجواب. قرأته بلهفة:

***«حسنًا. لنتقابل صباحًا***

***عند البوّابة الشرقيّة.***

***سأنتظرك هناك»***

أمضيت اليوم التالي في حيرةٍ من أمري وأنا أرتدي فساتيني وأخلعها. لم يقرّ قراري على الفستان الّذي سأرتديه حتّى صباح العيد. كنت قد أخبرت أبي أنّي لن أرافقه هذه المرّة لمشاهدة الألعاب، وعلّلت ذلك بأنّي سأقابل إحدى صديقاتي اللواتي عرفتهنّ في المدرسة النظاميّة. واقترحت عليه أن يرافق أوكتافيا، فهي تحبّ أن تتابع سباقَ العربات الخشبيّة.

* من الأعياد المتنقّلة عند الرومان، هو مثل عيد الشكر. كان مرتبطا بالحياة الزراعية، يعلن الكهنة والقضاةسنويا عن مواعيده

حلّ الصباح. انتهيت إلى اختيار فستانٍ كستنائيٍّ قصيرٍ يصل إلى أسفل الركبة بقليل. انتعلتُ حذاءً جلديًّا أبيض كانت قد أهدته إليَّ المرحومة أمّي قبل سنة وبضعة أشهر ولم ألبسه قطّ لأنّي كلّما انتعلته بكيتُ. قاومتُ بكائي ذاك الصباح. ترحّمت في سرّي على والدتي. وخرجتُ للقاء فتايَ الموريّ على صدى كلمات أوكتافيا وهي تثني على مظهري الّذي سيدوِّخ شبّانَ وَلِيلي كما تقول لي دائما كلّما لبست ثوبًا أنيقًا.

إلهي كم بدا مظهرُه رجوليًّا وهو يلبس «التونيك» الرومانيّ ونعلًا سميكًا من الجلد البنّيّ! كان على بعد خطواتٍ من البوّابة الشرقيّة الّتي ازدحمتْ بالوافدين على المدينة. وقفَ هناك ينتظرني يمينَ المدخل، بجانب تمثال باخوس الرّخاميّ. علت وجهَه ابتسامةٌ عريضةٌ عندما لمحني. ابتسمتُ له أنا أيضًا واتّجهت صوبه. دنوتُ منه بخطواتٍ اجتهدتُ كثيرًا في جعلها متوازنة. كانت دقّات قلبي تتسارع، وقد بلغت ذروةَ سرعتها عندما لم تعد تفصلني عنه سوى خطوتين. كان بِطول التمثال تقريبًا، لولا أنّ تمثال باخوس يصوّر مُراهقًا بقامةٍ متوسّطةٍ وسُمرةٍ خفيفةٍ مائلًا بثقله على ساقه اليمنى. لاحظتُ أن أيدمون قصَّر شعرَ رأسه وحلق شاربه الناشئ. وقفت أمامه صامتة، قبل أن ينطق:

- عبرتُ بالزقاق مرارًا، ولم تظهري في النافذة.

فهززتُ كتفيَّ باسمةً دون أن أنطق. وكدت أقول له أنا أيضًا ألزم النافذة وأطلّ منها صباحَ مساءَ لعلّي أراه بالزقاق، لكنّي لم أقل هذا. اكتفيت بالصمت وفَرْكِ يديَّ كما لو كنت أهدّئ بتلك الحركة لهفتي. وعندما لم أنطق بشيء قال:

- فستانك أنيقٌ جدًّا!

وأخيرًا نطقتُ بخجل:

- حقًّا؟ والتونيك أيضًا يليق بك.

فقال:

- شكرًا.

وألقى نظرةً على التونيك وهو يضع يدَيْه على الخاصرة، وأردف:

- لبستُه من أجلك.

فسألت:

- حقًّا من أجلي؟

ورفعتُ عينيَّ لأوّل مرّةٍ، فعانقَتَا عينَين بنيّتَين ملتمعتَين بشلّالٍ من نورٍ خفيّ:

- نعم.. لكي نبدو معًا مثل رومانيَّين أصيلَين.

وضحك.

ضحكتُ مِلء قلبي النشوان. وعندما لم أقل شيئًا، أمسك بيدي وسرنَا بين الوافدين في اتّجاه الساحة العموميّة.

# أيدمون

حلّ عيد الاحتفال السنويّ بالكونسيبتيفيا في سبتمبر.

تعوّدنا، نحن صغارَ الأحرارِ، كلّ عيدٍ، أن ننتظر انفتاح أبواب المدينة بفارغ صبر، لنشاهد عروض الفرسان وسباق العربات. احتفال هذا العام بدا مختلفا؛ إذ اكتسَتْ وَلِيلي بحلّةٍ رومانيّةٍ باذخةٍ، وَفُتِحَت أبوابها الثمانية منذُ الصّباح الباكر لتستقبل الوافدين عليها لحضور الاحتفالات.

كانت العادة في كلّ احتفالٍ بالعيد أن تبدأ الطقوس منذ الصباح في معبد الكابيتول. لذلك استعجلتْ سيلينا واقترحتْ أن نحثَّ السّيرَ كي نصل إلى باب المعبد قبل انغلاقه عندما تمتلئ باحتُه الداخليّة بالزّوار. تقدّمتْني سيلينا. لم يسألني حارسَا الباب الخارجيّ عمّا إذا كنت رومانيًّا أم لا. اكتفيَا بالتهام رفيقتي بنظراتهما وقد رمت في اتّجاههما أجملَ ابتساماتها ليتقاسماها. إنّه الكابيتول. المعبد المتقادم الّذي يحتاج إلى إعادة بناء، المعبد المكرّس لثالوث كابيتوليّن: جوبيتر وجونو ومِنِرْفا. يقف على قاعدةٍ متآكلةٍ ذات درجٍ أماميٍّ عريضٍ مشرفٍ على ممرٍّ معمَّدٍ بأعمدة كورنيثيّة. كانت باحته الواسعة غاصّةً بالناس. أُشعلت مجاميرُ ضخمةٌ من البخور، بينما اصطفَّ كورال هائلٌ من الفتيان والفتيات في مدرّجات المعبد وفنائه، لإنشاد الترانيم المقدّسة. كانت أصواتُهم الخافتة تتصاعد متماوجةً فتملأ سماءَ المدينة بعذوبةٍ ملائكيّة. ثمّ شرع كهنةُ المعبد في تنظيم طقوس تقديم القرابين إلى جوبيتر لشكره على نِعَمِه وتطهيره المدنَ والمباني والأطفال من الأرواح الشرّيرة. كان

الرجال يسحبون رؤوسَ المواشي من ثيرانٍ مذهَّبةِ القرون وأكباشٍ سمينةٍ ويصعدون بها بالتناوب نحو المذبح، أمّا النساء فيقدّمنَ الطيورَ من حمامٍ ودجاجٍ ودِيَكةٍ روميّةٍ وأطعمةٍ طازجةٍ وهِبات أخرى، يضحّين بها لقضاء حوائجهنّ الّتي يتمنَّينها. وأمّا الكهنةُ فقد انخرطوا في توزيع التمائم وتعليقها بأعناق الأطفال والشباب المقبلين على الزواج. اقترب كاهنٌ من مكان وجودنا. صاحت به سيلينا فشقّ الجموعَ بجسده البدين نحونَا وعلّق تميمتَيْن في عنقَيْنا. وضحكنا.

كانت الأضحية تُؤخَذ إلى المذبح الّذي نُقِشتْ عليه صورةُ جوبيتر، وهو على شكل أسطوانةٍ حجريّةٍ كبيرةٍ متربّعةٍ في مقدّمة قاعدة الهيكل. وبعد أن تُدَقَّ الطبول وتُعزَف على النايات ترانيم خاصّة، وتُردَّد تراتيل يبدؤها الكهنة، تُرَشُّ العجول والأكباش بالماء المقدَّس، وكذا أصحابُها الذين قدّموها، لتطالهم بركاتُ الإله الأكبر جوبيتر. تظهر امرأةٌ مهيبةٌ ترتدي ثوبَ الراهبات الأسود ذي الكمَّين الطويلَين، حاملةً سلّةً بها سكّين الذبح. يُنحر القربان نَذْرًا للآلهة، فتصرخ النساء بصوتٍ عالٍ. يُجمَّع دم الذبيحة ويُصَبُّ على المذبح، وتُحرَق العظام والأحشاء الداخليّة في النار المُجهّزة لهذا الغرض عند زاوية الباحة، ويُعدّ اللحم لإنضاجِه في أفران الشواء لإطعام الحشود المتكدّسة في جنبات الممرّ المُعمّد.

أخذت سيلينا تصرخ مع النساء بصوتٍ رقيقٍ ينتهي بضحكةٍ مرحةٍ استفزّتْ امرأةً أمامنا فكاد ينشب بينهما عراكٌ لولا تدخّل امرأةٍ أخرى هدّأت من غضب البدينة. فقبضت سيلينا على يدي وسحبتْني وسطَ الحشود الّتي غصّت بها ساحة المعبد عن آخرها. كان أغلب من حجّوا إلى هناك يتطلّعون إلى أخذ حصّتهم من شواء القرابين، من وليمةِ الكونسيبتيفيا.

تركنا مبنى الكابِّيتول يئنّ من ضغط الحشود. وعندما تجاوزنا بابَه استدارت سيلينا إلى الحارسَين ولوّحت إليهما وهي ترشقهما بابتساماتٍ فيها إغراءٌ عابث. سحبتُها من يدها وأنا أضحك. وإمعانًا في عبثها، شرعت يدُها الأخرى ترسل إلى الحارسَين قبلًا في الهواء.

اللئيمة كانت تتعمّد إثارةَ غيرتي منذ أوّل خروجٍ لنا معًا!

# باخوس في العيادة

# (مذكّرات)

## نوال الهناوي

## تهامي

**الخميس 1 يوليوز 1993**

قال إنّه رأى زهرةَ في البيت بعد هجرِها له، أو ربّما تهيّأ له أنّه رآها. سألتُه:

- وما السبب وراء هذه التهويمات في اعتقادك يا تهامي؟

صمت طويلًا قبل أن يفتح فمَه ليقول:

- ربّما بسبب المهدِّئات الّتي بدأتُ أتناولها. ربّما الكحول. نعم. تلك التهيّؤات الّتي صارت تتراءى لي قد تكون نتيجةَ إفراطي في الشرب. كنت في عزلة، عزلةِ ذاك البيت النائي عن أُنْسِ جيرانٍ يكسرون صمتَه المستشري. فبعد رحيل زهرة، بدا في عينيّ بِحَوْشِه البائس أشبهَ بقفصٍ مقسَّمٍ إلى غرفٍ خانقة.

- هذه التّهيُّؤات يا تُهامي لا أراها سِوى طفْحٍ لـ«اللّاشعور». ذلك القرارُ النّفسيُّ العميق الّذي يجتمع فيه ركام الذكريات والرغبات المكبوتة والأماني غير المُحَقَّقة. ويحدُث أن ينفلت هذا الركام ليطفُوَ على

السطح في حالات معينة مثل حالة الحمّى أو الهذيان، وكذا في الأحلام ورُؤَى اليقظةِ. لذلك عليك أن تُواصل إفراغ هذه القرارة الملأى. أفرغْها يا تُهامي، وانتشلِ الذكرياتِ الماضيةَ الّتي انفصلتْ عن «الشّعور» ولاذَتْ بـ«اللّاشُعور». لا تسمح لـ «قوّة الكبت»، كما أسماها فْرُويد، أن تَصدّ ذكرياتِك وتُبقيها أسيرةً في الأعماق.

لم يُعقِّب على كلامي. سكت طويلًا وشرَدَ بعينَيه نحو السقف. ولمّا انتبه من حالة الشرود الّتي ابتلعتْ لسانه قال:

- زملائي ينادونني باخوس.

وضحك نصفَ ضحكةٍ حزينة. وأردف:

- أنا باخوس يا سيّدتي. أنا عاشق بنات الكروم ورحيق التّين الجافّ. أعاقر الخمر باستمرار. ومن الجيران الفرطاسيّين مَن يصفني بالسكّير الّذي لا يصحو. أشرب محاولًا نسيانَ مأساتي وبؤس نهاراتي المكرورة في تلك القرية. أُغرق قلبي في الخمر. أشرب فتستيقظ نهاراتي السعيدة، ومعها طفولتي الشقيّة.

- لم تحك لي شيئًا عن طفولتك يا تهامي.

- طفولتي كانت قاسية يا دكتورة، لم ينقذني من قسوتها سوى صنعةِ الفسيفساء. طفولة بائسة لا أدري كيف أسرُدها لك.

- لا يهمّ كيف، المهمّ أن تحكي.

- كبرتُ غير بعيدٍ من مكناس، في أسرة بدويّة تعتاش من محصول الحبوب والزيتون. درستُ بابتدائيّة قرية الحاج قدّور. وعندما أقبلتُ

على المستوى الإعداديّ، أرسلتني أمّي عند خالي الّذي يسكن بضواحي فاس حيث كانَ يملك ورشة فسيفساء. فوالدي مات في ذلك الزمان بسكتةٍ قلبيّة، تاركًا ثلاثة أولادٍ كنتُ أصغرهم. كان أبي في غالب الوقتِ عاطلًا عن العَمَل، لم يكن قادرًا حتّى على حمْل مِعولٍ للإشراف على سقْي محصول قِطعَتَيْ الأرض اللّتين ورثتها أمّي. كان كسولًا، فأدمنَ الكحول. مع تقدّمه في السّن غدا رجلًا مهزوز الشخصيّة، لم نَنَلْ منه، أنا وأخوايَ وأمّي، غير الضّرب المبرِح والإهانات. لا أحد منّا كان يفلتُ من سخطه وغضبه وصرامته الفجّة. كان نرجسيًّا إلى أبعد الحدود. ربّما صرتُ أشبهه في بعض عاداته كإدمان الشراب. غير أنّني لم أكن يومًا بأنانيّته. صحيحٌ أنّي غالبًا ما كنت أشعر بأنّ رغباتي ينبغي أن تُنَفَّذ. لكنّي لم أكن يومًا مستبدًّا مع زهرة. منذ موتِ سامي لم أعد أخشى أن تتركني. رغم حبّي لها وتمسّكي بها، مَنحتُها طلاقَها على مضض، عندما طلبَتْه.

- الأنانيّة المفرطة، يا تهامي، غالبًا ما ترتبط بهشاشةٍ نفسيّةٍ كبيرة وتخوُّفٍ من أن يتخلّى الآخرون عنك. وبالعودة إلى ما حكيتَه عن أبيك، نجِد أنّك شهدتَ، في طُفولتِك، تجارب قاسية في العُنف الأُسَريّ، وأنّكَ عانيتَ مِن نبْذ الوالِدِ وردعِه وإهاناتِه لك. الشّيء الّذي أضعف «أناكَ» ومعنويّاتِها، فتَكوّنتْ لديكَ نظرةُ كراهيةٍ تُجاهه. أليسَ كذلك؟

- بلى.. للأسف.

- هذه الكراهية الّتي حملتَها لأبيك، خلّفَتْ، دون شكٍّ، عُدوانيّةً مكبوتَةً بداخلِك. عدوانيّة لن تتردَّدَ في توجيهها نَحو الذات ونحو الآخرين.

- لا أراها عدوانية. هي، في الواقع، مجرّد ردودِ أفعال قاسية صرّفتُ بها غضَبي. كان ذلك مع تلامِذَتي عندما كنتُ مُدرِّسا.

- كُنتَ تُعنِّفُهم؟

- غالبًا، عندما يُخطئون.

- هذا طبيعي. وتفسيرُ ذلك أنّ تنشئتَكَ المضطربة في الطفولة، وكراهيتك المستترة نحو الأب تَمَظهرتَا في شكل تعنيفٍ ومَيلٍ إلى التسلُّط وتعذيب الآخرين.

- لا أخفيك يا دكتورة أنني لطالما وجدتُ نفسي ساديًّا في كثيرٍ من المواقف. كُنتُ مندفعًا منذ الطفولة، ومنساقًا وراءَ غرائزي حتّى المنحرفة منها. وقد عانيت في مناسباتٍ كثيرة من عدم القدرة على السيطرة على ذاتي وسلوكي الجامِح والجانِح. أتذكّر، في صِغَري، أنّني كنت أقتُل القطط والكلاب، حتّى دجاجات الجيران كنتُ أفصل رؤوسها عن بقية الجسد وأرميها. لا أزال أستحضر قطّةَ جارٍ لنا بقرية الحاجّ قدّور شنقتُها، تركتها معلقة من عنقها إلى غصن شجرة حتّى ماتت. كنت أتلذّذ بفعل ذلك.

- أوَتدري ما تفسير ذلك يا تُهامي؟ هذه السّلوكات الجانحة، ونزعة العُدوان، والسّاديّة، جاءت نتيجة دوافع غريزية كامنة أخفقْتَ في ترويضها وجعلها أنماطًا سلوكيّة مقبولة. أتدري أنّك صرتَ على أبواب السلوك الإجراميّ بهذه الأفعال؟

- ماذا تقصدين؟

- أعني أنّك لن تتردّد في ارتكاب جريمةٍ عن قَصدٍ يا تُهامي. ليسَ مُستبعدًا أن تصير مُجرمًا.

صمتَ وهلةً ونظر إليّ بغضب، ثم قام فجأة، واتّجه نحو الباب. دون أن يودّعني.

# عيّاش

**الثلاثاء 29 دجنبر 1992**

- العلاج بالحكي والكلام يساعد في حلّ مشكلات نفسية عويصة يا عيّاش. لكي نطوِّق مشكلتك، عليك أن تُخرج الواقعة بتفاصيلها من ألفها إلى يائها. يجب أن تتحدّث، بحرّية مطلقة، عن مشاعرك وآلامك. تحدّثْ لي عن كلّ ما يدور بداخلك. هذا يُسمّى علاجا بالمحادثة. هذا سيساعد على توضيح المشكلة وبالتالي وضْعها في حجمها من دون مبالغات تُضخّمها. أخْرِجِ الواقعة بتفاصيلها، وتقَيّأْها على هذه الأريكة الّتي ستستلقي عليها الآن. بإمكانك أن تستعيد السيطرة، أن تجد المخرج من حالة الانكسار هذه. المخرج هو أن تحكي. سأستمع إليك ما شئتَ من الوقت. اتّفقنا يا عيّاش؟

- سأحاول .. سأحاول.

كان يكرّرها وهو ينزاح بجسده إلى الخلف، ويرفع قدمَيه من الأرضيّة ويمدّهما على الأريكة مستلقيًا على ظهره، واضعًا رأسه على الوسادة الأسطوانيّة الشكل.

- سأحاول الإحاطة بالحكاية من أوّلها.

- احك يا عيّاش. علاجُك معلَّقٌ بعنق حكايتك. هات الحكاية.

وهكذا، أقرِّب الكرسيَّ الجلديّ الأبيض من الأريكة، أجلس وبين يديّ سجلٌّ وقلم. قاطَعَ عيّاش ساقَيه عند نقطةٍ فوق الكاحلين، وشبك أصابعه على صدره، وأرسل عينَيه إلى السقف. وتحدّث:

- اتُّهِمْتُ بالتعاون مع سارِقِي تمثال باخوس. كنت واحدًا من الحرّاس الثلاثة القائمين على حراسة الموقع الأثريّ في تلك الليلة المشؤومة. وقد قسَّمونا على ثلاث مناطق. ومن سوء حظّي أنّي كنت المسؤول على المنطقة الّتي فيها التمثال الرخاميّ الغالي. لقد سرقوا باخوس على بعد ثلاثة أمتارٍ أو أربعةٍ من المكان الّذي استلقَيتُ فيه. كان السارقون يعرفون قيمة التمثال، فهو أعظم تحفةٍ في الموقع وأنفَسُها، لذا خطّطوا لكلّ شيء. حتّى القهوة الّتي كانت معي في الترمس شككت أنّهم دسّوا فيها مخدِّرًا عندما تركتُ مَتَاعِي قرب البوابة الشرقيّة لأقوم بجولةٍ تفقّديّةٍ في مجال الحراسة الّذي أُسنِدَ إليَّ. وحدَه الله يعلم ما حصل لي في تلك الليلة، أكان نومًا أم إغماءً! وقعت السرقة ما بين الثانية والخامسة صباحًا. ومع بزوغ الفجر، عندما استيقظتُ على دوارٍ فظيعٍ يلفّ رأسي، كان التمثال الغالي قد اختفى ولم يبقَ في مكانه إلّا حُفرةٌ والسرابُ. لقد اختفت كتلةُ الرخام الكبيرة الملتحمة بالأرض، كما لو أنّ الأرض ابتلعتْها أو ارتفعتْ إلى السماء. انتظرتُ حلول الصّباح، وأسرعتُ لإخبار المُحافظ، فاتّصل بالسلطات المعنيّة، فتحرّك رجال الدرك نحو الموقع الأثريّ.

تمثال إله الخمر يُسرَق من موقع وَلِيلي

(جريدة الواجهة - صفحة الأحداث - عدد الاثنين 10 ماي 1982)

عمليّة سرقة سابقة من نوعها حدثت يوم السبت الماضي بموقع وَلِيلي الأثريّ. تمثالٌ رخاميٌّ نفيس، صار في عداد الغياب. تمّت سرقته ليلًا من مدخل وَلِيلي، حيث كان يقف منذ قرونٍ بقامته المتوسّطة وسُمْرته الرخاميّة. وقد بدأ التحقيق حول ملابسات الواقعة بانتقال وحدات من الدرك الملكيّ إلى عين المكان.

تمثال إله الخمر الرومانيّ تحفةٌ أصليّةٌ. نُسخةٌ وَلِيليّةٌ نادرة وفريدةٌ من نوعها. لذلك لا يُستبعَد ضلوع عصابةٍ دوليّةٍ لتهريب الآثار في هذه السرقة الّتي تشكّل ضربةً موجعةً للتراث الإنسانيّ بشكلٍ عامٍّ ولتاريخ منطقة وَلِيلي وزرهون بشكلٍ خاصّ.

# تهامي

**الأربعاء 15 دجنبر 1993**

- قلتَ في المقابلة الأخيرة إنّك كنتَ صانعَ فسيفساء في صِباك. هلّا حكيتَ لي عن الفسفسائيّ الصغير الّذي كنتَه.

هكذا وَجَّهتُ حَكيَه في الجلسة الثامنة الّتي لم تتجاوز مُدّتُها ثلاثين دقيقة. وقد لبس يومها معطفًا طويلًا، وحذاءً أسود شتويًّا. كان الجوّ في الخارج رطبًا غائمًا بعد ليلةٍ طويلةٍ لم تتوقّف فيها الأمطار. وتمنّيتُ لو قُمتُ بنزهةٍ هذا الصباح في الحديقة العموميّة قبل المجيء إلى العيادة. طلبتُ منه أن ينزع المعطفَ ليرتاح في استلقائه. ففعلَ وظلَّ في كنزةٍ صوفيّة. كان يلفّ وشاحًا من الكشمير على عنقه. أشرتُ له أن يزيله أيضًا حتّى يتسنّى له الاسترخاء التامّ على الأريكة. فأزاله وعلَّقَه على مشجبٍ حيث علّق المعطف، واسترخى على ظهره وشبك أصابعه فوق بطنه. وتحدّث:

- عندما بلغتُ المستوى الإعداديّ، أرسلتني أمّي إلى خالي الّذي يسكن بضواحي فاس، كان يمتلك ورشةً خاصّةً بصناعة الفسيفساء المغربيّة، أو الزّليج البلْديّ كما نسمّيه نحن المغاربة. في أيّام العطل والآحاد أشارك خالي وعمّالَه شغفَ الصنعة العجيبة، وقد وجدتُني أشحذ انتباهي كلَّه لمتابعة أيادي العمّال الدّرِبَة وهي تصنع الجمالَ من قطعٍ طينيّةٍ لفظتْها الأفران. مع مطلع كلّ صباح، تتحوّل الورشة إلى خليّة نحلٍ تبدع في صناعة الفسيفساء. تصدح أصوات المطارق هنا وهناك وهي تتسابق

لصوغ قِطعٍ فنّيّةٍ ملوّنةٍ شديدة التميّز والجمال. يُحمل جزءٌ منها لتزيين أرضيّات المنازل والحيطان والأعمدة والنوافير والأرصفة والأحواض والسّقايات، ويُقطَّع الجزء الآخر بدقّةٍ متناهيةٍ على شكل مربّعاتٍ أو مثلّثاتٍ أو مستطيلاتٍ تُثبَّت بالملاط فوق أسطح ناعمة، لتشكيل ديكوراتٍ ولوحاتٍ وتُحَفٍ تُعرَض في مخزن الورشة.

مع توالي التدريب والمِراس بدأتُ أفلح في صنع بعض التشكيلات متتبّعًا ترسيماتٍ يقترحها عليَّ خالي. ثمّ ما لبثتُ أَن استغنيتُ عن ترسيماته، بعد أن شجّعني على إطلاق العنان لخيالي «المبدع» كما وصفه مداعِبًا زهوي وغروري. ومضيتُ أُبدِع لوحاتي الخاصّة: هي تشكيلات ورودٍ ونجومٍ وشموسٍ وأغصانٍ وفراشاتٍ محلِّقة وغيرها. وقد فتنتْ تلك اللوحات كثيرين ممّن زاروا الورشة، فضمّوها بلا تردّدٍ إلى التحف الفسيفسائيّة الّتي طلبوها. ستّ سنواتٍ مرّت في فاس مرورَ البرق. ستّ سنواتٍ درستُ فيها بجدٍّ وأزجَيتُ وقتَها الفائضَ عن الحاجة في الورشة. وقد غَدَت تلك الصنعة عندي هوايةً وعشقًا، وكنت سأبقى وفيًّا لعشقها لولا نداء الجامعة الّذي تزامن مع انتقال أمّي مع أخويَّ للعيش في مكناس بعد أن اشترت، من مالِ قطعَتَيْ أرضٍ باعتهُما، بيتًا متواضعًا بحيّ «الروى»، الحيّ الّذي شُيِّدتْ به قديمًا اسطبلات السلطان مولاي إسماعيل. كنت سأبقى وفيًّا لعشق الفسيفساءِ الفاسِيّةِ لولا دخول التاريخ إلى حياتي من بوّابة جامعة مولاي إسماعيل. كان التاريخ والحضارة تخصّصي وقدري، ذاك التخصّص المشَرّع دومًا على أبوابٍ قديمةٍ لا تُسدّ.

صمتَ وهلةً، واستوى جالسًا. وكان ذلك إيذانًا بنهاية الجلسة.

قام واتّجه نحو الباب. فلوّحت إليه بيدي مودِّعةً:

- إلى اللقاء. عسى أن تراودك أفكارٌ طيّبةٌ في الجلسة القادمة.

# ليالي وَلِيلي

## (رواية)

## أريادنا نُوِيل

## جواد

**السبت 4 فبراير 1995**

وجاءت سعاد ذاتَ سبْتٍ باردٍ بُعيدَ الغروب، وهي ترتدي معطفًا شتويًّا فوق فستانٍ أزرق، وتضع لثامًا على وجهها، وفي قدميها جزمةٌ بيضاء. سلّمت عليَّ بخدَّين تشوبُهما حمرةُ البرد، ودخلت إلى البيت بعفويّةِ امرأةٍ أَلِفَت دخولَ بيوتِ الآخرين دون أن تهيمن عليها سلطةُ المكان. نزعت المعطف الثقيل وعلّقتْه على مشجبٍ قربَ المدخنة، وجلستْ. على مائدة غرفة المعيشة، كانت صينيّة الشاي وطبقٌ صغير من الغاتو وآخر به تمرٌ وتينٌ جافّ. التقطت بسبّابتها والإبهامِ حبّةَ تمرٍ وقضمت شقَّها قبل أن تزيل النواةَ وأكلت الشقّ الثاني ثمّ أتبعتهما رشفةَ شاي مُنكَّهٍ بعشبة «الشيبة».

وبعد أن تلمّظت مذاقَ رشفتَين أُخريَين، علّقتْ وهي تحضن الكأس بين راحتيها:

- بارعٌ أنتَ في إعداد الشاي.

- الفضل لِغارِس «الشيبة» هنا في زاوية الحوش.

- أنت محظوظ. حولك حديقةٌ بأكملها، يمكنك أن تغرس فيها ما شئتَ من النعناع و«الشيبة»، ولديك هنا زيتونٌ بالجملة. والبيت جميلٌ وهادئٌ بعيدٌ عن ضوضاء الناس - لأنّ عينَيك الواسعتين جميلتان، فمن الطبيعيّ أن ترَيَا البيت جميلًا.

ابتسمتْ وأحنتْ رأسَها مُبديةً خجلًا مُحبَّبًا، والكأس ما تزال بين كفّيها.

ثمّ أضفتُ:

- وفستانك أيضًا جميلٌ.

- أعجبك فستاني؟

- أعجبني لأنّك تلبسينه. ويناسب قامتَك وامتلاءك. دعيني أَرَهُ جيّدًا.

مددتُ إليها يدي لأجعلَها تقف. فشدّتْ عليها بأصابع ناعمةٍ وشمختْ في وقفتها. وضعتْ يدَها على خصرها بِخَفَرٍ. استدارتْ بفرح امرأةٍ تعلن العصيانَ عن الوحدة، بمرحِ امرأةٍ مهجورة غمرَها الظّل طويلًا. كان الفستان الأزرق المفتوح يتدفّق على القوام الممتلئ راسمًا معالم أنوثةٍ باذخة. رائحة طيبها الخفيفة بدأت تأخذ طريقها إلى أنفي فتلفحني برغبةٍ لا تقاوَم في الاقتراب منها.

فعلّقتُ:

- رائعٌ جدًّا. وصاحبتُه أروع.

- روعتك يا صديقي المعلِّم.

وضحكتْ بنعومة، ضحكةً تشوبُها لمسةُ غنَجٍ أضفتْها على قافيةِ الضحكة. كانت ضحكةً طالعةً من أعماق صدرها الممتلئِ المُلتَجِّ بالرّغبات. وجنتاها المدوّرتان تزداد مسحةُ الحمرة فيهما عندما تضحك. ما أشدّ فتنة بسمتها! غادةٌ حُلوة لا يزال ماءُ النَّضارة يجري في محيّاها.

عادتْ وجلستْ إلى جانبي على الأريكة. مدّتْ يدَها إلى البرّاد البعيد عنها، فغزتْني جحافل روائحها الشذيّة. صبّت الشايَ في كأسي الّتي لم يبقَ فيها سوى رشفةٍ أو ثلاث، فحاذى وجهُها وجهي، حتّى لمسه. لفحتْني وجنتُها المدوّرة البارزة المشوبة بالحُمرة وهي تَمِيسُ على خدّي. فقبّلتُ الوجنةَ فازدادتْ حُمرتُها. وضعت البرّادَ في الصينيّة، ومالتْ بجسدها عليَّ. مسحت بيدها على عنقي ووجهي وقبّلتْ فمي. ولم ننتظر. سبقتْنا اللهفةُ ونضَّتْ عنّا الثيابَ في غرفة المعيشة وأسقطتْنا صرعى حمّى الجسد.

انتقلنا إلى غرفة النوم. ورضعنا نشوتَنا، على مَهَلٍ، حتّى قتلنا ذاك الحيوان النائم تحت الجلد وسقطنا على السرير في استرخاء. اشتممتُ رائحةَ جلدها من اندياحِ عرق إبطَيها. استعذبتُ تلك الرائحة الّتي لا تفتأ تحيي ذلك الحيوان الّذي اسمُه الشهوةُ وتعيده ليسكن جلدي، رائحة اختلطتْ بالعطر الخفيف الّذي رشّتْ به فِتنتَها. تقدّم الليل وهي لا تزال متألّقةً في غلالتها الخفيفة الشفّافة الّتي ترسم امتلاء جسدها الرّيان. وعندما سألتُها عن أيمن طمأنتْني بأنّه يدبِّر شؤونَه بنفسه دون حاجةٍ إليها.

اتّكأتْ على كوعها جاعلةً تحته وسادة. وهي تنظر إليَّ، سرحت أصابعها فاستقرّت على شفتها السفلى. وذكّرتني حركتها تلك بامرأة الفسيفساء. فخاطبتُها:

- وأنت على ذاك الوضع، تذكّرينني بامرأةٍ سمراء، امرأةٍ جميلةٍ توجد معنَا في هذا البيت.

فتساءلت دون أن تبدي اهتمامًا بكلامي، معتقدةً أنّي أمزح.

- وأين تخبِّئ هذه المرأةَ يا زير النساء؟

- في هذه الغرفة.

نظرت إليّ مستغربة، بعينَين مستفسرتَين.

فأضفتُ:

- تحت السرير..

وعندما زحفتْ على السرير، ومدّت رأسَها لتُطلّ إلى أسفله، انفجرتُ ضاحكًا.

- أتمزح معي أيّها الخبيث؟

رفعتُ الحصيرة عن الأرضيّة المزخرفة، وكشفتُ لها عن المرأة العارية إلّا من قماشٍ يغطّي ما تحت خاصرتها. فقامت من طرف السرير ونظرت إليها مليًّا:

- أليست جميلة؟

- إنّها فسيفساء قديمة.. لقد سبق لي أن رأيتها.

نظرتُ إليها مستغربًا:

- رأيتِها من قبل!.. أتمزحين؟

التصقت عيناها بامرأة الفسيفساء. وفجأةً، تغيّرت ملامحها. انقلبت التماعةُ عينَيها كآبةً صارخة. سكنتْ حدقتَيها مسحةٌ من الحزن ما فتئت تأخذ شكلَ غيمةٍ منذرةٍ بالقطرات. انكمشت جالسةً فوق السرير معانقةً ركبتَيها. وبدأت سماء عينَيها تمطر. جلستُ بجانبها.

ورفعت وجهها المنكبّ على حجرها:

- لماذا تبكين؟ أيّ ذكرى لئيمةٍ أثارتها فيك هذه الحصيّات اللعينة؟

انسابت بين أناملي قطراتٌ ساخنة. فمسحتُ عينَيها بظاهر كفِّي. وقلت:

- ما الأمر يا فتاة؟

فتحتْ فمَها لتتكلّم. ثمّ أغلقته. وعاودَها البكاء. فمددت يدي إلى منضدة السرير الجانبيّة والتقطتُ منديلَ كلينيكس الورقيّ، ووضعته في يدها. مسحتْ وجهها. وفاضَ بَوْحُها:

- رأيتُها قبل سنواتٍ عندما كنت أنظّف هذه الغرفة. أرسلتْني أمّي عند المعلّم السي تهامي.

- تقصدين المدير تُهامي. كان يسكن هذا البيت؟!

- نعم. كان حينَها ما يزال معلِّمًا، يرسلنا إلى البيت أنا وفتاةٌ أخرى لننظّفه. وذات يومٍ، أرسلني وحدي. كانت هذه الغرفة خاليةً من الأثاث. ولمّا فرغتُ من غسل أرضيّتها، وبينما أنشِّفها بخرقةٍ كبيرة، سمعتُ باب البيت ينفتح. دخل عليَّ وهو يبتسم تلك الابتسامة الّتي كان يبتسمها عندما يأتيه أحدُ التلاميذ بهديّةٍ من بيضٍ أو قوارير لبنٍ أو ثمار. توغّل في الغرفة بحذائه محدِثًا لطخاتٍ على الأرضيّة، وكنت سأعاتبه عليها لو لم يكن معلّمي. لكنّه مشى غيْرَ مبالٍ باتّساخ الأرضيّة الّتي نظّفتها للتوّ، حتّى بلغ مركز هذه الفسيفساء، وقال لي مشيرًا إلى المرأة السمراء: «تعالي انظري إلى هذه المرأة ماذا تلبس». فأجبت: «لا تلبس شيئًا..!». وأضاف مازحًا: «قلِّدي وقفتَها لأرى». أعجبتني دعابته، وبدأت أقلّد وقفتَها وأنا أضحك. كان ينظر إليَّ وينقل نظرته إلى المرأة المنحنية، مقارنًا بين وقفتَينا. يرفع يدي حينًا، ويثني قدمي حينًا آخر.

ويضع يده على صدري تارةً أخرى. ثمّ عبّر عن عدم رضاه بتقليدي لها قائلًا: «إنّك مثقلة بفستان الفلّاحات ولا يمكنك أن تحاكي أميرةً موريّةً مثل هذه». لم يعجبني كلامه، وأضاف مستدركًا وهو يلوي شفتَيه بما يشبه الازدراء: «يمكنك أن تفعلي مثلها إذا نزعت الفستان». ولكي أثبت له أنّي لست مجرّدَ فلّاحة، نزعتُ الفستانَ على الفور. فأضاف وسبّابتُه مصوّبةٌ تجاهي يصعِّدها ويُنزِّلها عموديًّا: «وكذا هذا القميص والسروال وكلّ شيء». تردّدتُ لحظةً، وخجلتُ أمام معلِّمي، وهو لا يزال يقول: «كلّ شيء، كلّ شيء». يكرّرها حتّى صارت أمرًا لا يمكنني أن أرفضه لمعلِّمي. كلمة «فلّاحة» ظلّت تصفع كبريائي. كنت أعرف جمالَ جسدي. أراه في المرآة عندما أستحمّ فأمتلئ زهوًا. أردت أن أنتزع من هذا الظالم كلمةَ اعترافٍ بأنّي أحسنُ من هذه الأميرة السمراء النائمة

على الأرضيّة. تعرّيت تمامًا. وهنا برقتْ عينَا السي التهامي. واقترب منّي: «جيّد جدًّا، جيّد جدًّا يا فتاة!» وفي لحظةٍ مّا خلتُني أحصل على علامة عشرة على عشرة في تمرين الإنشاء، وأسمع منه عبارة: «جيّد جدًّا يا سعاد!». دنا منّي وتظاهر بأنّه يصوِّب وقفتي لتصير مثل وقفة الأميرة السمراء. وشرع يتحسّس ذراعي العارية وأطرافًا أخرى من جسدي، جسدي الّذي كان متبرعمًا قبل أوانه. لقد كنت في الرابعة عشرة من عمري، وكان نهدايَ بارزَين، كلّما لعبت مع الأطفال اهتزّا وأثارا فضولهم. حتّى الكبار كان بعض البذيئين منهم يطلب منّي رشفة حليب من صدري الملآن، فأرميه بحجارة أو أقول له: «سير تقوّد»، كما تعلّمتُ من صديقةٍ شرسة مع الأولاد.

شرع السّي التهامي يتحسّس جسدي ويلمسني في ساقيَّ ونهديَّ بنعومةٍ، وهو يردّد: «جيّد جدًّا، إنّك تبلين حسنًا يا فتاتي! أنت رائعة! أنت بارعةٌ يا أميرتي..! دعيني أقبّل رأسك.» وبدأ يقبّل جبهتي، وجنتيّ، كلَّ ناحية من جسدي. فأشعر بارتخاءٍ لم أجرِّبه من قبل في حياتي. واصلَ تحسُّسَه ظهري، فخذيّ، ساقيّ، حتّى بدأت أحسّ، وأنا في وقفتي تلك برطوبةٍ بين ساقيّ. وكانت تلك أوّلَ مرّةٍ يقع لي فيها ذلك. أخذني المعلّم تهامي و»نَعّسَني» على المرأة السّمراء، ونعَس هو فوقي. وعندما نهض كانت هناك بقعةٌ حمراء بين ساقَي المرأة السمراء المرسومة على أرضيّة الفسيفساء.

# جواد

**الأحد 9 أبريل 1995**

أسترخي على أريكة غرفة المعيشة لأُكمِلَ متابعة فيلم «بِينْ هور» الملحميّ، إخراج وليام وايلر. جودا بِين هور التاجر اليهوديّ سيتحدّى الرومانَ لمّا اجتاحوا القدس، يقف في وجه صديقه «ميسالا» المحارب في الجيش الرومانيّ الّذي سيغدو قائدًا تحت إمرة ماركوس. سوف تُنفَى عائلة جودا وَيُزَجُّ بالأخير في قبو سفينة العبيد ليجدِّف معهم صوبَ البحر اليونانيّ. لكنه سيعود من قلب البحر ليركب عربةَ السباق.

أُطفئ التلفاز. تتّجه بي قدماي لا إراديًّا صوبَ المكتب. أجلس أمام رزم الأوراق. أكتب عنوان «أيدمون» بخطٍّ مضغوطٍ وأشرع في رسم أجواء الاحتفاء بعيد الشكر، شكر الإله جوبيتر. لقد استحوذ عليَّ سباقُ العربات الرومانيُّ، مثلما استحوذ في ما مضى على امبراطوريّةٍ بأكملها. فكّرت أن أجعل أيدمون مشاركًا في السباق، لكنّي ارتأيت في نهاية الأمر أن يكون متفرّجًا مع سيلينا. فكّرتُ أن أجعل ماركوس يخسر أمامَ منافسٍ موريٍّ راهَن عليه أيدمون. شخصيّة ماركوس فارس في فيالق الجيش الرومانيّ يخسر السباقَ في نهاية المطاف مثلما وقع لمسالا سيفروس في الفيلم. ثمّ انصرفت إلى عروض «الإعدام بالوحوش». فقد قرأت أنّ عقوبة الإعدام تتمّ أحيانًا عن طريق الإدانة بالوحوش إذا تعلّق الأمر بالسكّان «الأحرار» في المقاطعات الرومانيّة بشمال إفريقيا. أمّا المواطن الإمبراطوريّ الّذي يُعتَبر «الأكثر تشريفًا»، فتنفيذ عقوبة الإعدام في حقّه، عندما يُدان بجُرم، يكون سريعًا وغير مؤلم.

انطلقت أصابعي تكرّ بالقلم على بياض الأوراق. وبخفّةٍ، وجدتُني أكتبُ، أباشرُ مطاردةَ المشهد، مشهدِ الحشود المتحلّقة بقفصٍ عملاقٍ تحوَّل ركحُه إلى مائدةٍ للنمور. واصلت الكتابة بهوس، مقتحمًا أحياء وَلِيلي، عابرًا بين جدرانها وممرّاتها المرصوفة بالحجارة. كنت أسير في ليالي وَلِيلي، مع الفتى الموريّ، ومعنا سيلينا الوديعة، تحت سماءٍ مكفّنةٍ بسحبٍ سوداء تنتظر قيامَ الفجر.

*(عزيزي القارئ.. ما دمت تقرأ هذه الرواية فكن على يقين بأن قناة ضَاد هي من قامت بتوفير هذه النسخة! لذا تأكد من أنك تقرأها من قناتنا الرسمية على تطبيق تيليجرام. نعتذر على مقاطعتك، نتمنى لك قراءة ممتعة).*

تركت المكتب راضيًا عمّا كتبت. شعرت بالجوع. أخرجت فخذ دجاجٍ طازجًا من الثلّاجة. سخّنتُه، وأكلتُه مع مرقٍ وسَلَطة طماطم وخيار. قمتُ وأحضرت علبتَي جعّة. وضعتهما على المائدة. شغّلت التلفزيون، كانت القناة الأولى تعرض فيلمًا وثائقيًّا عن البدو الرُّحّل، لم أرغب في متابعته. عالجت مشغِّل الأقراص الموصول بالتلفاز، ألقَمتُه شريطًا لأغانٍ فرنسيّة. انبعث لحنٌ محرِّضٌ على الحياة. كان شارل آزنفور يغنّي:

J’ai joué de la vie

Comme on joue de l’amour et je vivais la nuit

Sans compter sur mes jours qui fuyaient dans le (*temps)

***

بالأمس، أطلَّ رقمٌ أمريكيٌّ على شاشة الهاتف الرقميّة، فتجاهلتُه، ولم أُجِب. واليوم ظهر لي الرقم ذاته ولم أردّ، وظهر رقمٌ آخر يتصدّره رمزُ الولايات المتّحدة (001)، رمز الصّدارة، «النامْبر وان» عالميًّا، ولم أُجِبْ. إنّه رقمٌ مخيف. مخيفةٌ هي الصدارة، تضعنا كرهًا وقهرًا في مراتب لاحقة. فضعفنا يدفعنا إلى الحقد على المتصدّرين. وحقدنا عليهم يصير أكبر عندما يريدون أنيشتروا أشياءنا وأصواتنا وأقلامنا ليزوّدوا بها رصيدهم، رصيد البقاء في الصدارة.

الكلمات قطراتُ دماء دَلَقَتْها روحُك العطشى يا جواد. فكيف لك أن تعطيها لهذا الّذي لم يصنع شيئًا غير مَدِّكَ بحفنةِ دراهم؟ الكلمة لن تغفر لك الخيانة. سوف تقف في حَلقك كعَلَقة، كلقمةٍ تأبى أن تكون سائغة، وإذا ما ناديتها في لحظات الصحو أو السُّكر، فكن على يقينٍ أنّها لن تجيب النداء. سوف تبقى نصوصُك لقيطةً لا أبَ لها لأنّك وهبْتَها مَن ليس أهلًا لها كي يتبنّاها. للكلمة حرمة. وقد اختارتك. ربّة الإلهام أرادتك أنت. وهبتك رحيقَ الكلمة وعسيلتَها الغالية، وظلّتْ، بلا كللٍ، تنبجس لك كأشعّة الصباح لتعايدك وتطمئنّ على رعيّتها الّتي استودعَتْها في كفّك البيضاء.

* لعبتُ الحياةَ/ مثلما لعِبْنا الحبَّ، وعشتُ الليلَ/ دون أن أعوّل على أيامي الّتي تهرب مع الوقت.

تتسلّق الشمسُ سماءَ التخييل قبل أن تغيب بين أصابعك قانعةً بما نثرته من سردٍ دافئ. وفي الليل تأتيك حيواتٌ لم تتصوّرها، تأتيك كقبسات نارٍ مضيئةٍ تسرج لياليَ وَلِيلي المظلمة، كلماتٍ مطواعةً لا تجد عسرًا في سحْبها من أعنّتها المكابِرة، في استجلابها من آبارها الغائرة، في لملمة حطبها وإيقاد لهيبك. هي الكلمات الحبلى وجدت فيك مأوى، ملاذًا فيك ألفتْه من مستسهليها، من مبتذِليها، من خاذليها، من لصوصها. تراكمت في كفّك السخيّة، وبين أصابعك نامتْ، وعلى بنانك نبتَ عُشبُها ودرّ حليبها الأسود. انزلقت من البنان إلى أوراقك ودفاترك، اندلقتْ من قلمك، لتقطن هناك في أرض البياض. فكيف ستخون اندلاقَها الواثق في حبرك؟!

أيّ كاتبٍ أكون؟ مَن أكون دون تلك الذات المعتصمة بعُمقِها، الممعنة في اجتراحاتٍ حَرَّى تنتصر لقيم الجمال؟

ليس كاتبًا من يرتضي بيعَ بنات خياله لصوتٍ مجهولٍ قادمٍ من أثيرِ بلادٍ نائية.

# أريادنا

**الأحد 11 يونيو 1995**

ما زلتُ أذكر أنّنا كنّا مسترخيَيْن على سرير غرفته بالبيت القرويّ، عندما شرع يحكي لي عن غراميّاته مع سعاد.

انسحبَ جواد من أمام المكتب مع حلول الظلام كي يستعدّ لاستقبال سعاد الّتي رمَتها الأقدارُ إلى أحضانه. في زيارتها الأسبوعيّة، جرت العادة أن يتحدّثا في المطبخ أو غرفة المعيشة. لا تتوقّف عن الكلام وهي تنظّف الأواني وتجمعها. ترتّب البيت بحركاتٍ تلقائيّةٍ وهي تتنقّل بين غرفه. يأكلان فطائر الجبن الّتي تحبّها سعاد مع الشاي. لقد جاءت لتساعده في الاعتناء بنفسه، تقولها ضاحكةً في غنج. غَزلَا أحاديثَ طويلةً عن كلّ شيء. سعاد من النساء القرويّات اللواتي يتمتّعن بلسانٍ ذَرِبٍ لا يدركه الإعياء. كان مزاجُها مرحًا. تبتهج لكلّ ما بدر من جواد مهما كان تافهًا. وتتحوّل إلى آلة ضحكٍ صغيرة: لا تتعب من إنتاج نسخٍ لضحكةٍ واحدةٍ لا يتغيّر سوى لونها.

تحت رشاش مصباحٍ خافت الإضاءة، يتوسّط غرفةَ النوم، رمتْ ثوبَها وهي تقف على حافّة السرير كما لو أنّها تقف على منصّةِ مسبح. فانكشفت لجوادٍ تفاصيلُ أخرى في جسدٍ مكتنزٍ مُلتَجٍّ موشومٍ بالظلّ والرغبة. هي ذي المرأة الفرطاسيّة عندما يسكن خوفها في أحضان رجلٍ طوت إليه فراسخَ الليل كي يعالج حزنَها ويداوي رضوضَ وحدتها. بدفءٍ ووحشيّةٍ وشرَهٍ، تغرفهذه المرأة الحبّ. تغزو جوادًا بثالوثها

المدمِّر: جسدها وشهوتها وفمها. ولا تنفكّ تلهج ببذاءاتٍ لتستفزّه كي يقتل الوحش الّذي هاج في دمِها. ينام وحش الرغبة بداخلها ولا يموت.

تظلّ متّكئةً على صدره شاردةً على طريقتها اللذيذة. ثمّ تستيقظ من شرودها حكاياتُها. تلملمُ من ماضيها حكيًا منثالًا بلا نهاية. ولم تهتمّ بأنْ تسأل جوادًا، في مقابل ذلك، عن حياته. بدت كأنّها غير معنيّةٍ بسماع شيءٍ منه. استرسل حديثُها وحكت عن زواجها وهي بعدُ في السادسة عشرة. أقنعت أبوَيها برغبتها في الزواج من عاشور بسبب الحبّ الأهبل الّذي يكنّه لها. كانت تريد أن يستر شرفَها المفقود. تمنّعت عليه حتّى أحبّها بجنون. وليلةَ الدخلة عرف الحقيقة «المرّة» الّتي ابتلعها على مضض. لم تحكِ له الحقيقة. حلفت له بالأيمان الغليظة، أنّها عندما قابلته ليلًا، ذات لقاءٍ خاطفٍ في فترة الخطوبة، قُبيل الزواج، ولثمَ فمَها ولمَسَ جسدَها، لازمتْها سخونةٌ طوال الليل. وشرعت تفرك ما بين ساقَيها حتّى جرحتْ نفسَها وخرج الدم. ورغم أنّ عاشور أظهر تَصديقًا لِما حكتْه، فقد ظلّ شرخٌ صغيرٌ ينام بينهما بسبب شكوكه الحائمة حول «شرفها». وما فتئ الشرخ يكبر ويكبر بعد سنةٍ من الزواج.

عندما تصمت يحاول جواد أن يبدأ الحديث. لكنْ سرعان ما يشعر بشيءٍ من السخف عندما يشرع في الحكي عن طفولته القاسية، عن أصياف قريته المنجميّة بالأطلس المتوسّط، عن أبيه الّذي مات حاملًا كراهيته للعالم، عن الفلّاحين الفقراء الذين غلبَهم الجوع والعطَش بعد أن استنزفت شركة الاستغلال المنجميّ مياهَ القرية الجوفيّة، عن عمله في مهنٍ قاسيةٍ ودراسته بالجامعة ونضاله مع رفاق فَصِيل الطلبة القاعديّين، عن حبّه الفاشل مع طالبةٍ مكناسيّةٍ محجَّبةٍ كانت تأتي إلى غرفته الّتي تَقاسَمَها مع طالبٍ آخر، لتدخّنَ الشيشة وتقرأ شعرًا رديئًا

أو تكتبه أو تراجع مقرّراتها. وعندما يبدأ في لمسها وتقبيلها، عندما تسخن، تداهمُها حالةٌ رهيبةٌ من الصرع وتظلّ تحملق بعينَين مخيفتَين في الفراغ وتختلج يداها وقدماها. فإذا زايلتْها النوبةُ غطستْ في دموعها.

عمَّ سيحدِّث هذه المرأة العشرينيّة الفرطاسيّة الّتي لا تترك الصمتَ يتسلّلُ بينهما ليسرّب ولو ثوانيَ من الوقت الفائض؟ لا يحلو له الحكي بإسرافٍ إلّا عندما يسكر. أمّا وهو صاحٍ، فيحاول أن يحكي شيئًا، لكنّه لا يجد في ذهنه متّسعًا إلّا للفسيفساء. يسأل:

- ما رأيك في فسيفساء المرأة السمراء الّتي هيّجت عليك مواجع الذكرى؟

- قبيحة.

قالت جملتَها، وضمَّتْ شفتَيها كما تفعل طفلةٌ عندما تغضب.

- لا أقصد المرأة. ألا ترَيْن أنّ هذا ليس مكانَها الصحيح؟

- الفسيفساء، حسب ما أعرف، توضع في أرضيّات غُرف الطعام وليس في غرف النوم.

- ملاحظة ذكيّة. إذَن، فنحن وهذا السرير نوجَد في غرفة طعام. الغرفة الأخرى الأصغر منها هي الّتي خصّصها صاحب البيت للنّوم.

- ولمَ لا تنام هناك؟

- فكّرت في هذا منذ اليوم الأوّل. لكنّ الغرفة الصغيرة لا تدخلها الشمس. بها شيءٌ من الرطوبة. وطلاءُ سقفها يتقشّر ويتساقط، وليس فيها سوى طاقةٍ صغيرةٍ عاليةٍ قريبةٍ من السقف.

- إذَن، ما سرّ هذه الفسيفساء الّتي استقرّت في غرفة نومك؟

وبدلًا من الجواب، سألَها جواد:

- ألا تبدو قديمةً جدًّا بالمقارنة مع الزخارف الأخرى الّتي تغطّي الغرفة؟

تقوم، ترفع حصيرَ الدوم، وتطلّ عليها بحذرٍ كما لو أنّها تخاف أن تنقضّ عليها الذكرى المؤلمة فتمسكها من خناقها. ثمّ تنظر إلى الإطار المحيط باللوحة المركزيّة. وتنطق:

- صحيح. معك حقّ. ثمّة فرقٌ كبير. لوحة المرأة مكعّباتها قديمة، أمّا مكعّباتُ الإطار فلم يمرّ عليها وقتٌ كثير.

ثمّ تسأل بشرودٍ:

- وماذا يعني هذا؟

- يعني أنّها لوحةٌ فسيفسائيّةٌ مسروقة.

- مسروقة؟! وتضرب بيدها العاجيّة على صدرها شبه العاري فيرتَجُّ، وتسأل باهتمام: ومَنْ سرَقَها؟

- سُرقتْ من الموقع الأثريِّ المجاور وزُرِعت في أرض هذا البيت.

- يا إلهي الكبير! ولكنْ كيف أمكنَهم اقتلاع أرضيّةٍ فسيفسائيّةٍ دون إتلافها وتشتيت حَصَاها.

- هذا بالذات ما حيّرني.

فتقول بلامبالاةٍ متقمِّصةً شرودَها.

- وحدَه الله يعلَم ما فعلت الأمريكيّة بهذا البيت؟

- وتعرفين أنّه في ملكيّة الأمريكيّة؟

- بل وأعرف أكثر من ذلك: صار تُهامي هو الّذي يتصرّف فيه. ويقولون، والله أعلم، إنّ الأمريكيّة الّتي اسمُها لينا حوّلت ملكيّةَ البيت إلى عشيقها اللعين.

- لكنّ الحارس جبيلّو هو الموكَّل من طرف الأمريكيّة لكرائه، في انتظار أن يجد لها شاريًا.

- لا. الحارس مجرّد وسيط، يضعه تهامي في الواجهة.

وأضافت بسخريّة وغضب:

- نقودك يا عزيزي الّتي تدفعها كلَّ شهرٍ تذهب إلى جيب سيّدك التهامي، لعنةُ الله عليه. رزأني في شرفي، الله «يرزِيه».

# أريادنا

**السبت 24 يونيو 1995**

لم تأخذني الغيرة عندما بالَغ جواد في اجتِرارِ مجْدِ فتوحاتِه الغرامية مع سعاد. فقد تركتُه يحكي على هواه، دون أن أقاطِعه أو أبدي امتعاضًا ولا حتّى ملَلًا. بل كنت أحترق فضولًا لأعرف كيف انتهى جموح هذه العلاقة، متسائلةً إن كان لتلميذه أيمن دَخلٌ في انقطاع ذلك الشغف الّذي سرق ليالِيَ طويلة من حياة جواد. كنّا مسترخيَيْن بغرفة المعيشة، واضعةً الحاسوبَ الصّغير على حجري، وأصابعي تَكُرّ على لوحة مفاتيحه، ملتهمةً كلّ كلمة ينطق بها جواد عن عِشْقِه الممنوع. كتبتُ:

يدقّ دقّتَين على حديدِ البابِ بقبضةٍ حذرةٍ. يسمع المزلاجَ ينزاح. ويطلّ وجهُها الصَّبُوح من العُتمة. يدخُل، فيضمّها وقوفًا لِصق الباب. يشدّها إليه من بطنها، ومن خصرها، فينطوي لحمُها الطريّ تحت يده.

- الكلب لم ينبح اليوم. ماذا فعلتِ به؟ يهمس في أذنها.

ووضعت كفَّها على فم جواد. وبهمسٍ يكاد لا يُسمَع قالت:

- ششششوت. قد يكون أيمنُ مستيقظًا.

وبالهمس نفسه يجيب:

- أحترق شوقًا إلى حضنك.

- دائمًا بداخلك بركان.

- فلتُخمديه يا فتاة! فتضحك بغُنّة. وكم يروقها أن يخاطبها بصفة «فتاة». ينحني ويقبّلها من جديد. لتتجاوبَ معه في قبلةٍ طويلةٍ رشفا منها لذاذة الريق الأوّل. انزلق بشفتيه إلى الخدّ. قبّلها بحمّى متوحّشةٍ على وجهها وعنقها وخلفَ أذنَيها.

- انتظر ريثما ينام الولد.

- ومتى عرف البركان الّذي بداخلي كيف ينتظر؟!

- تعالَ يا بركاني المحموم ندخل الغرفة.

وتسحبه من يده بسعادة امرأة مهجورةٍ تستقبل عشيقَها في منتصف الليل. ودون أن يشعلا ضوءَ الغرفة، جرّهما جسداهما إلى بَراري الّلذة وبحورِها.

قامت وأضاءت مصباح الغرفة. حشَرَت لحمَها العاري في غلالةٍ رقيقة، وذهبت لتطلّ على غرفة أيمن كي تتأكّد أنّه نائم. وعادت لتتربّع على السرير وتتابعَ حديثًا هامسًا كانت قد بدأته عن جمالها الساحق. قالت إنّها كانت أجمل بنات فرطاسة، وإنّه ما استهوى رجالَ القرية موضوعٌ آخر سوى جمالها. وتمضي تحصي بأصابعها العشرة الشباب الذين فتنوا بها، وتذكر أسماءهم، وعروض الزواج الّتي ردّتها بسبب وفائها لحبّ عاشور. تفتل شعرَها وهي تتكلّم، تكوِّمُه في الخلف على شكل إسفنجةٍ وتمسكه بدبّوس. تأتي على القصص والمتاعب الّتي تسبّب لها فيها هذا الشعر البنّيّ الفاتح المائل إلى الشقرة الّذي فتَنَ عاشورَ. وهي تسرد مَجْدَ جمالها، كان جواد يفكّر في الطفلة الّتي وقفت يومًا بين يدي

التّهامي وهو يلاعبها، الطفلة الّتي سبقها إلى النضج نهدَاهَا، الصبيّة ذات العينَين الصافيتَين البريئتَين، المذعورة من نزْفِها وألمها.

رآها تبكي ويغمر ماء دمعها ذاك الصفاءَ، ويلطخ نزْفُها تلك البراءة. كانت مستلقيةً على الفراش ولا تفتأ تذكر عاشور. لكنّ عاشور غاب عنها، وتركَها تعيش من بقراتها وأحيانًا على نفقة أبيها الّذي يقطن بضاحية فرطاسة غير بعيدٍ عن بيتها. تسكن هنا في هذا البيت الصغير، وهو كلّ ما استطاع زوجُها أن يوفّره لها. رحل وانقطعت أخباره.

لم يناما حتّى وقتٍ متأخّر. فات جواداً أن يستيقظ فجرًا ليغادر قبل استفاقة القرية. كان صباح الأحد. وهما نائمان، داهم أيمن الغرفةَ مناديًا أمّه لتعدّ الفطور. دخل ووجدهما عاريَين إلّا من الشهوة المنطفئة على جسدَيْهما الممدّدَيْن على السرير. وفتح العشيقان عيونًا مثْقَلة بالنوم، كما لو أنّهما فتحَاها على حُلمٍ سيّئ الإخراج.

ولا أحد من العاشقين كان يتوقّع أنّ لقاءهما هذا سيكون خاتِمة عِشقهما المسروق. كان ذلك آخر يوم يلتقي فيه جواد وسعاد. ليس بسبب صدمةِ ضَبطِهما المحرِج من طرف أيمن، بل إنّ عاشور عاد من غيبتِه الطويلة عشيّة ذلك اليوم، عشيّة يومِ الأحد.

## الفتى الموريّ

## (رواية)

## جواد الأطلسيّ

## سيلينا

وانحدرنا راكضَيْن، كطفلَين، في مرحٍ نحو الشارع الرئيس الّذي يشقّ المدينة من منتصفها. كانت جنباتُه غاصّةً بالمتفرّجين من ساكنةِ وَلِيلي ومن وافدي القرى والضيعات المجاورة. كان سباق العربات الخشبيّة قد بدأ. العربة يجرّها حصانٌ واحدٌ تقليدًا لسباق مضمار مكسيموس الّذي يموت فيه متسابقون كُثُر. إنّه الحدث الّذي يستحوذُ على شغف هذه الحشود فتقطع من أجله المسافات الطويلة وهي لا تبالي. الحدث الّذي يستحوذ على شغف إمبراطوريّةٍ بأكملها، حدثٌ يختزل هويّتنا الرومانيّة الضاربة في العراقة، الرياضة الأخطر الّتي عرف الرومان كيف يصنعون منها الإثارة والشغف الحقيقيَّيْن. وكَمْ حكى لي أبي عن ولعِهِ بهذه الرياضةِ. فقد تعوَّد، في شبابه، أن يذهب ليحضُرَ السِّباقات في مضمار سيرك «مكسيموس» العملاق بروما حيث يجتمع مئتان وخمسون ألف مشاهدٍ للامتلاء بالإثارة الرهيبة. مناظر مرعبةٌ كثيرًا ما تتحوّل إلى حوادث مميتة.

كانت أصوات التهليل والصفير وقرقعة العجلات قد ملأت سماء وَلِيلي. سباق العربات المثير ينطلق فتُدَقّ الطبول وتَدُقّ معها قلوب المتفرّجين المتمترسين بجنبات الشارع الكبير. انطلق المتبارون من

مركز المدينة وجابوا الشارع الرئيس وخرجوا من بوّابة طنجيس الشماليّة، لينعطفوا يمينًا راكضين بمحاذاة السور في اتّجاه شرق المدينة، في مسارٍ متعرّج، قبل أن يدلفوا من البوّابة الشرقيّة حيث يقف تمثالُ باخوس، ليعودوا إلى نقطة الانطلاق، في دوراتٍ معدودة محفوفةٍ بالخطر، يكون أوّل مَن يتجاوزها هو الفائز.

قيادة العربة الخشبيّة المسحوبة بحصانٍ واحدٍ تتطلّب مهاراتٍ عاليةً. المتسابقون يرتدون ملابسَ مدرّعةً ذات أكمام تسقط على الكاحلَين وتربط عاليًا عند الخصر بحزامٍ سميك. وعند الظَّهر يكون هناك شريطان متقاطعان في الجزء العلويّ من الظهر يمنع اللباس من الانتفاخ أثناء السباق. كان الجزء الأكثر إثارةً عند المشاهدين هو المنعطفات الضيّقة ومداخل المدينة. هذه المنعطفات خطيرةٌ وقاتلة: فالعربة إذا لم يصدِمْها الخصمُ في المنعرج، قد تسحقُها العربات الأخرى الملاحقة لها بسرعةٍ جنونيّة، عندما تبطئ السيرَ لتنعطِف.

في النهاية لم يربح المتسابقُ الّذي راهنت عليه، وهو الرومانيّ ماركوس، ابن صديق من أصدقاء والدي. كان من جنود الدفعة الأخيرة الّتي التحقت بفيالق وَلِيلي. لقد خسرتُ الرهان أمام حبيبي أيدمون. كان رهاني لو فازَ متسابقي الرّومانيّ أن يحفظ أيدمون ثلاثَ قصائدَ لِهوراس ويستظهرها أمامي بيتًا بيتًا. لكنّ الفائز كان المتسابق الموريّ الّذي راهن عليه أيدمون بثلاث قُبلٍ أطبعها على فمه عند نهاية السباق.

إنّه الحبّ الّذي تدفَّق بيننا كقَدر. إنّه الجمال الّذي تزيّى بكمالٍ فريدٍ نسجت الطبيعةُ مصادفاتِه العجيبة بين آدميَّين ولدتهُما تربتان تنأى بهما المسافة وتمتدّ بينهما فراسخُ من البراري والبحار والثقافة. إنّه الحبّ الشرس الّذي نَتَأ كتغريدةٍ بديعةٍ بيننا، كتنهيدةِ لَذاذةٍ طاغية.

حبٌّ نتأ كفسيفساء رومانيّة شرعنا نتهجّى كطفلَين صغيرَين ألوانَ حُصيّاتها المرصوفة على بهجة قلبَيْنا الكبيرين. حبّ تبرعم على شفير المتناقضات، فكبُر بتلك الوداعة الشرسة، في عامٍ، في أشهرٍ طويلةٍ كأبديّةٍ واعدة. لو أحببت رومانيًّا أشقر لما أعطاني نصفَ أنصاف ذاك الحبّ. لو سلّمتُ شفتيَّ الممتلئتَين لفارسٍ قادمٍ من روما لما قضمَهُما إلّا مثلما يتناول شريحة لحم ضأنٍ مجفّفٍ مطبوخٍ بلا توابل. مع أيدمون كان للنَّفَس وزن، وللنظرة طعم، وللحبّ لون، وللقبلة وقعٌ أشبه ما يكون بالتحليق بلا جناحَين فوق جِنانٍ بِكْرٍ لم تطأها أرجلُ الراكضين وراء الحبّ بلا خِفافٍ تقيهم صقيعَ اللهفة.

كان عليَّ أن أسدّد رهانَ أيدمون. تلك القبلة الّتي ستكون بيننَا لأوّل مرّة. سوف تستنزفني تلك القبلة، وتحملني إلى مرافئ الأنثى البالغة الّتي طوَت ثوبَ صِباها. سوف تحمل شيئًا من عذريّتي، أنا الّتي لم أجرّب أن أقبّل فتيان معارفنا إلّا من الخدود عند تحيّتهم أو توديعهم. لكنّي لم أجرّب من قبل تقبيلَ شابٍّ ملءَ فمي الظمآن إلى سُقيَا الرُّضاب.

شعرنا بالجوع فهَرَعْنا إلى صفّ عربات الطعام الرابضة في زقاق المخبزة. أكلنا رغائف محشوّةً بقطع لحم الضأن وصلصة لذيذة، وعدنا إلى الساحة.

في الباحة القريبة من الساحة العموميّة، كانت الحشود على موعدٍ، بعد الظهيرة، مع استعراضات الفرسان وألعاب الصيد وعروض الحيوانات المدرَّبَة. الشباب يمتطون جيادَهم ويرتدون زيًّا عسكريًّا موحّدًا ويخوضون مبارزاتٍ مبتَذَلة. يستعرضون مهارات الرماية والقفز بأحصنتهم على الحواجز. لم نحضر لمتابعة المبارزات في الساحة. كانت مبارزاتٍ سخيفةً لا تعدو كونها تمثيلًا مبتذلًا يؤدّيه فرسانٌ

مبتدئون تقفز بهم الخيلُ وتطيش سهامُهم المصوَّبة نحو ألواحٍ خشبيّةٍ منحوتةٍ على هيئة كائناتٍ بشريّةٍ بلا وجوه.

وفي انتظار أن تبدأ عروض الحيوانات الغريبة، تلك الّتي شيِّد لها، على منصّة الساحة، قفصٌ حديديٌّ عملاقٌ على شكل غرفةٍ كبيرةٍ مستطيلة، انطلقنا نشقُّ الجموعَ في اتّجاه الحيّ الجنوبيّ. كانت أزقّةُ هذا الحيّ خاليةً عندما بارحت الشمسُ كبدَ السماء، وكذا أزقّة المدينة بأكملها. كلّ الساكنة اجتمعت هناك في الساحة العموميّة لمشاهدة عروض الفرسان. توغّلنا، على غير هدًى، بين الأزقّة. وسرنا بين الدروب والممرّات الملتوية الّتي تَغنَم استراحةً نهاريّةً من خيالات العابرين. فقد تقاطر الرجالُ والنساء والأطفال على الساحة العموميّة لمشاهدة عروض الفرسان الشباب. ونحن العاشقين اغتنمنا الفرصة للمشي بحرّيةٍ بعيدًا عن الأعين الفضوليّة. كنت أعرف أنّ البوّابة الجنوبيّة تُفْضِي إلى مرجٍ لا يطال عشبَه اليباسُ على طول فصول العام. يمتدّ على ضفّة وادي خومان، تتخلّله بضع أشجارٍ وأجماتٍ من التوت البرّيّ. سحبتُ أيدمون من يده إلى هناك، وسبقَنا الفرحُ.

إلهي كم كان لذيذًا وهو يداعب وجْنَتي، يضغط على كفّي. يقرص ظاهرَها برقّة. يطوّق كتفي بذراعه. يستغفلني فيقبّل خدّي. أتظاهر بالغضب. أنحني وأقتلعُ قبضةً من العشب وأضربه بها فيضحك. يعود ليضع ذراعَه على كتفي. ويهمس في أذني:

- كم تبدين جميلةً وأنت تسيرين على... على...

وأشار إلى الأرض، فأكملت له الكلمة الرومانيّة:

- العشب. اسمه العشب.

ضحك، ونطق الكلمة. كرّرها كما لو أنّه يتذوّق طعمها، وأردف:

- كم تبدين جميلة وأنت تسيرين على عشبٍ تحدّى زحفَ الخريف.

ولمّا صرنا في ظلّ صفصافٍ تدلّى فوقنا، أمسك بيدي وسحَبَها إليه قليلًا. نظرَ في عمق عينيَّ نظرةً تطفح بالتماعةٍ ساحرة. كان في عينَيه نداءٌ يحرّضني على التوغّل أكثرَ في مساحته المستفحلة. وكنت قد غطست في بحر عينَيه. انتبذتُ فيهما الأقصى. ضممتُ يدي الأخرى إلى يده اليسرى. كانت كفّاه كبيرتَين تبرز من ظاهرهما عروقٌ رقيقة. ضغط بهما على كفّيَّ الصغيرتَين ضغطاتٍ خفيفة. سحبهما إليه وباعَد ما بين ذراعَيه، فانفتح حضني أمام صدره، فأدركتُ أنّه يريد عناقي. خرستْ أصداءُ الهرج المنبعث من الساحة العموميّة. تلاشى من حوالينا المرجُ والعشب ووادي خمّان. عانقني. كانت له رائحةُ فحولةٍ مدوِّخة. تماهينا في عناقٍ طويلٍ كأنّه الأبديّة. عانقت فيه بداوتَه الحلوة. عانقت فيه أهالي المور وشراستَهم وقوّتهم. عانقتُ فيه سهلَ فوليبليس الممتدّ. كان فمه لصْقَ أذني، وذراعاه تَحوطانني وتشملانني بعطفٍ ما كان أسخاه! لم يعد يفصل بيننَا لا بحرٌ ولا خيطٌ ولا «حيط». حتّى نسيم العشيّ ما كان له أن يعبر بيننا في تلك اللحظة. كان جسدانا قد انصهرا وسطَ المرج تحت ظلّ الصفصاف المتدلّي. وحدَها قبلةٌ طويلة، بطول عمر الكون، أيقظت الزمنَ النائم بين شفاهنا.

# أيدمون

سرنا الهوينى نحو البوّابة، دون أن ننبس بكلمة، كما لو كانت الكلمات ستفسد طعم القبلات الثلاث الطويلة الراقدة فوق لسانَيْنا.

وصلنا وقتَ انتهاء عروض الفرسان السخيفة كما وصفتها سيلينا، فبدأت الحشود تزحف نحو الساحة الكبيرة لتلتحلق بمحيط المنصّة. كانت منصّةً عريضةً تحتلّ رقعةً كبيرة في منتصف الساحة العموميّة. كان القفص الحديديّ العملاق الّذي نُصِّب فوقها يبعث على الفضول والترقّب. قالت سيلينا والتماعةُ الدهشة والبهجة لا تفارق عينَيها السّماويّتَيْ الزرقة:

- في عيد الشكر الماضي لم تكن هناك سوى أقفاصٍ صغيرةٍ تُعرَض فيها الحيواناتُ الشرسة الضخمة.

فقاطعتُها:

- ولكن كيف تُحمَل أقفاصُ هذه الوحوش الثقيلة إلى المنصّة.

- تُسحَب إلى أعلى المنصّة بالحبال. تُسحَب من قبوٍ أرضيٍّ يقَعُ تحت أرض الساحة.

- هل توجد أقبيةٌ تحت هذه الساحة الّتي نقف على أرضها الآن؟

- بالطبع ثمّة أقبيةٌ تحت أرض الساحة، ومنها تمتدّ أنفاقٌ ترسم التواءاتِها المظلمة تحت المدينة بأكملها. وحدَهم مربّو الحيوانات ومروّضوها يعرفون مواقعَ أبواب الأقبية ومداخل الأنفاق.

- وكيف كان الاستعراض يتمّ؟

- نمورٌ وأسودٌ ودببةٌ وخنازير برّيّة، تُستَعرَض على المنصّة في أقفاصها دون أن تُفتَح. وهي سجينة الأقفاص يحمل إليها الحرّاس قضبانًا طويلةً وسياطًا يستفزّونها بها لتهتاج، فتُصدِر زمجَرَتَها الوحشيّة الّتي تنتشي لسماعها الحشودُ وتتفاعل معها بالصفير والهتاف، إذ لم يكن ثمّة مروّضون قادرون على تدريبها لتأتي بِحركاتِ وحوش السيرك الرومانيّ. ولكن راج هذا العام أنّه شوهدت، قبل شهور، نمورٌ وأشبالٌ تنزل في أقفاصٍ وتودَع بأقبية الساحة العموميّة، ومعها مروّضون غِلاظٌ جاؤوا من نوميديا.

- وما الّذي ينوون فعله بهذا القفص العملاق؟

ما كدت أُنهي نُطق الكلمة الأخيرة من سؤالي حتّى تعالى هتافُ الحشود من زاوية المنصّة. وعلى الفور اندفع إلى جوف القفص ستّةٌ من المساجين العراة إلّا من خرقةٍ تشدّ على ما تحت الخاصرة. كانوا مذعورين يتخبّطون ويصطدم بعضهم ببعض. أيديهم مقيّدةٌ خلف ظهورهم، وأجسادُهم سمراء تلمع تحت شمس ما بعد الظهيرة. وارتفعت الهمهمات:

«العصاة.. المتمرّدون الموريّون.. المجرمون».

أيّ هديرٍ بدأ يرجّ جنبات الساحة في تلك اللحظة! وأيّ فضولٍ صار يتعلّق بنواصي الحشود الّتي كان بينها موريّون كثيرون!

اهتدى المساجين إلى طريقةٍ يفكّ بها بعضُهم قيودَ بعض. يستديرون وكلٌّ منهم يولّي الآخرَ ظهرَه ليفكّ القيود. ولمّا اصطدموا بصلابة الحبال اهتدوا إلى أسنانهم. تحرّر السجين الأوّل فانكبّ على قيود زملائه ليفكّها بيدَيه وأسنانه. وعندما تحرّر الثاني هبّ هو أيضًا لتحرير زملائه الذين ما زالوا يتخبّطون في أغلالهم، حتّى تحرّروا جميعًا إلّا واحدًا. حينها، وفي لحظةٍ منفلتةٍ هدأ خلالها هُتافُ الحشود، سُمِعَت قرقعةُ انفتاح بابٍ أرضيّ في قلب القفص العريض. ارتفع غطاءُ المنفذ الأرضيّ فصمتت الحشود واشرأبّت الأعناق إلى دفّته الحديديّة المشرَعة في وجه المساجين. انبثقت من المنفذ ثلاثة نمورٍ ضخمة. واتّجهت نحو المدانين الذين انتفضوا في هلعٍ محاولين القفزَ بعيدًا عن الوحوش الجائعة. ولزيادة الإثارة رُمِيَ، في تلك اللحظة، بِعِصيٍّ وهراواتٍ إلى أرضيّة القفص كي يدافع بها المساجين عن أنفسهم. تكتّلوا جميعهم في زاوية القفص وأشهروا عصيّهم. هجم النمر الأوّل فانبروا له بضرباتٍ متلاحقةٍ فتراجع. أمّا النمران الآخران فقد ظلّا يكشّران عن أنيابهما ويُضَرْضِران في تحفّزٍ حيوانيٍّ نحو الكتلة البشريّة المكوّمة في زاوية القفص. وفجأةً اندفعَا في وقتٍ واحدٍ نحو الأجساد الآدميّة. كانت هجمةً ثنائيّةً لم يتوقّعها المساجين. تشتّتوا وقفزوا في كلّ جانبٍ تاركين واحدًا منهم، كان أضعفَهم، هو ذاك الّذي ما زال القيدُ يشدّ يدَيه إلى ظهره. أسقطه النمران وشرعَا في نهشه بضراوةٍ على وقع صرخات الحشود المرعوبة والمنتشية في آنٍ واحد. دبَّ الذعر إلى باقي المساجين فتفرّقوا: بعضهم رمى بعصاه وشرع في تسلّق قضبان القفص. وبعضهم الآخر أُسْقِطَ في يده ولم يعد يدري لنفسه ملاذًا من أنياب الوحوش.

النمر الّذي تلقّى وابلًا من الضربات آن له أن ينتقم عندما رأى السجين الأقرب إليه يتعثّر في تسلّق القضبان محاولًا الإفلاتَ بجسده من مائدة النمور. قفز بطريقةٍ استعراضيّةٍ مذهلةٍ وانقضّ على خاصرة السجين فأسقطه أرضًا ودقّ عنقَه بأنيابه أمام ذهول الحشود.

يا إلهي! بقي الآن أربعة مساجين على قيد الحياة: اثنان في الركن الأيمن الأماميّ من القفص متمترسان خلف عصوَيْن غليظَتين، بينما الآخران كان قد بلغا السقفَ الخفيض وظلّا معلّقَين هناك، كلّ واحدٍ في زاوية، كعنكبوتَين مرعوبَين. كان السقف خفيضًا لا يتجاوز علوُّه ستَّ أذرعٍ أو سَبعًا. الحشود تدرك أن لا منأى لهذين العنكبوتَين من المخالب الجائعة. قفزةٌ رشيقةٌ من أحد هذه النمور كافيةٌ لإسقاطهما أرضًا. لذلك تواصَلَ سُعار الهتاف.

كانت سيلينا إلى جانبي مرعوبة، فاغرةً فاها، وقد استبدّت بها حالة ذهولٍ أكسبت ملامحَها شحوبًا ظاهرًا. حشرت رأسَها تحت ذراعي، ورمت عليَّ بكامل ثقلها وهي تشدّ بساعدَيْها على وسطي شدًّا قويًّا كأنّما تحاكي، دون وعي، حركةَ ذينك السجينَين المتشبّثين بسقف الحياة وتحتهما الموت يتربّص بهما، في هيئة ثلاثة نمور. كانت سيلينا ترتجف:

- لا أريد أن أرى المزيد.. أرجوك.. أريد أن أذهب إلى بيتنا.

# سيلينا

حالما دخلتُ البيتَ. غمرني شعورٌ عارِمٌ بالنّدم لأنّي وضعتُ حدًّا للقاء اليوم. وتَمنَّيتُ لو بقيتُ معَ أيدموني لوقتٍ أطول. ورغم أنني فارقتُ أيدمون في زقاق بيتِنا، فقد رافقني طيفه ولازمني حتى عندما ولجتُ غرفتي. فطفقتُ أحدِّثه كما لو كان واقفا أمامي بقامته الرفيعة:

«آسفة يا حبيبي لأنّي جعلتك تغادر الساحة. كان يمكن أن نظلّ هناك حتّى ينتهي ذاك العرض الدمويّ، لكنْ اعذرني. فقلبي المرعوب لم يتحمّل. عندما كنتُ أنظر إلى أولئك الموريّين يَلْقَوْن حتفَهم تحت مخالب الوحوش الجائعة، تخيّلتُك، رأيتُك واحدًا منهم. تخيّلت حبيبي أيدمون تلتهمُه النمور من غير ذنبٍ سوى أنّه موريٌّ يُضمِرُ تمرُّدَه على الرومان. ولا أخفيك سرًّا أنّي فكّرتُ في حبّنا عندئذٍ. وقلت إنّ حبّي سيؤذيك يومًا إذا ما توغّلنا في شعابه إلى أبعد ممّا بلغناه الآن. أنا أخاف أن يكسرني فقدُك في هذه المدينة الّتي تأكل أهلَها الأصليّين وترمي بأبنائها لقماتٍ سائغةً للموت. كم يكفينا من الوقت لمواراة هذا الحبّ الأكبر منّا؟ أنا أريدك، نعم. أمس وأنت تصحبني إلى بيتنا، لستُ أدري لماذا انتابتني أفكارٌ سوداء تقول لي إنّي لن أعود إلى معانقة ابتسامتِك السمراء الحلوة. أنا حقًّا أريدك معي إلى الأبد، لكنّي أخشى أن تطالك، أنت أيضًا، تلك الأيادي الّتي جمعت الموريّين في قفصٍ، ليجابهوا الموتَ بأيْدٍ عزلاء وعلى ذاك النحو المهين.

إنّ العرض الدمويّ المروِّع الّذي شهِدناه يا حبيبي هو نسخةٌ ولِيليِّةٌ من العروض الّتي تحدُث بمدرج مكسيموس العملاق في روما. أخبرني أبي

أنّ العرض يسمّى: الإعدام بالوحوش (damnatio ad bestias). وقد بدأت أولى هذه العروض قبلَ نحو قرنَين من الزمن لمّا كان الهاربون من الجيش الرومانيّ يُجمَعون ويُسحَقُون واحدًا تلو آخر تحت أقدام الفيلة. ومنظّمو هذه العروض (bestiarri) يدركون حجم الإثارة الّتي تخلقها مواجهةُ مقاتلٍ سجينٍ لعددٍ من الكائنات الجائعة من أسودٍ ونمورٍ لا ترى فيه سوى وجبةٍ دسمة. والجمهور بغريزته يكون في صفّ الحيوان، يريد أن يرى ابنَ جنسِهِ طريح المخالب. إنّها متعةُ رؤيةِ أحدهم يموت على مائدة الوحوش.

يا حبيبي، لقد أراد مُفَوّضُ مقاطعةِ موريتانيا تانجيتانا، الّذي نصَّبَه الإمبراطور ماركوس أوريليوس، أن يمضي بعيدًا في إخضاع القبائل المورية البارعة في حرب العصابات. إنّهم محاربون شرسون احتموا بالجبل وباتُوا يهاجمون الرومانَ ويصطادونَهم في كلّ مكان. أراد أن يقحم سجناءَ الخصوم في لعبة من ألعاب «البيستاري» ليجابهوا موتَهم المعلّق على أنياب نمورٍ جائعة. المفوّض العسكري الرومانيّ أدانَ هؤلاء الموريّين الثوار، وهو يرى فيهم أعداء الإمبراطوريّة، بالموت بين مخالب النمور على الركح، أمام الحشود، كي تصل أصداء المشهد الدمويّ إلى قادتهم المتمترسين في الجبل فتضعف مقاومتهم الشرسة. إنّه درسٌ موجَّهٌ إلى الموريّين الذين يتحدّون سلطة المفوِّض الروماني العازم على تفتيتِ المقاومة ودَحْرِها بعيدًا نحوَ الجنوب.

أتعرف يا حبيبي أنّ هذه الحيوانات لو لم تكن مدرّبةً على الهجوم لتعثّرتْ في تردّدها، لخافتْ وارتكنتْ إلى زاوية القفص العملاق في خنوعٍ ورعبٍ من هتاف مئات المتفرّجين. لو لم تكن متمرّنةً لما أقدمت على

المناورة في وجه رجالٍ أقوياء يحملون العصيّ الغليظة. وفوق هذا فالنمور لا تملك غريزةً طبيعيّةً لالتهام اللحم البشريّ.

سوف تسألني يا حبيبي من أين لهذه الوحوش الرقطاء بتلك الدربة وذاكَ المراس، ومن أين أتتها تلك الشراسة. أقول إنّي علمت من أبي أنّ في سراديب الساحة الخفيّة مدرِّبين قادمين من مواطن هذه النمور، يضطلعون بترويضها وفق أنظمة تدريبٍ صارمةٍ ليضمنوا أنّ حيواناتهم ستعمل حسب الطلب. إنّهم لا يطعمونها سوى لحم البشر. نعم يا حبيبي لحم البشر. يُقدّمونه لها نيِّئًا كي تتعوّد عليه فتُقدِم على الافتراس لنَيْله بالقوّة عندما ينهشها الجوع الضاري. هناك في سراديب الساحة المظلمة يجرّبون حيواناتهم على السجناء والثوّار الموريّين، ومن لحمهم يطعمونها!».

# أيدمون

وحدَها الفسيفساء صنعتْ قدرَ الْتِحامي بسيلينا الشقراء. لقد بلغتُ عُقرَ بيتها أركبُ بساطًا من فسيفساء. عندما بحث أبوها عن صانع فسيفساء، لإكساء أرضيّة صالةٍ من صالاته، دلّوه على فلافيوس. لم تكن تلك هي المرّة الأولى الّتي يسند إليَّ فيها فلافيوس عملًا لأنجزه وحدي دون الحاجة إلى مساعدته. لقد رغب أبو سيلينا في إكساء صالة الطعام بفسيفساء فريدة.

كلّفني العملُ على فسيفساء الصالة حوالي ثلاثة أشهرٍ من الانكفاء الشيّق في حضرة سارقةِ قلبي الحسناء سيلينا. ظلّت تحوم بي، وأنا منهمكٌ في رصف الحُصيّات، كفراشةٍ تغزل ألوانَ الفرح.

الفسيفساء الّتي أنجزتها في صالة الطعام الرئيسة خرجت إلى الوجود حاملةً قدْرًا كبيرًا من الإتقان وفيضًا استثنائيًّا من الجمال. قبل أن أشرع في رصف حُصيّاتها، أعددتُ لها رسمةً على رَقٍّ مستطيل. أرَيْتُها لصاحب البيت، والد سيلينا، فأثنى على دقّة تخطيطي لها. وزاد انبهارُه عندما حدّثتُه عن برسيفوني إلهة الربيع الّتي اختطفها هاديس إلهُ العالم السفليّ*.

* تقول الأسطورة إنّ هاديس رفضَ بنات الأولمب اللواتي عرضهنَّ عليه أخوه زيوس. لكنْ لمّا رأى برسيفوني ابنة إلهة الزراعة أغرم بها،٧فدبّر خطّةً لخطفها. وعندما نزلت ديميتر إلهة الزراعة وابنتُها من الأولمب للتنزّه تركت الأمُّ وحيدتَها برفقة الحوريّات. أخذتْ تبتعد عنهنّ وتشرد في المروج، لتقطف زهرة نرجسٍ، وفجأةً تنشقّ الأرض ويظهر هاديس بعربته المرعبة

لكم سحرَتْني حكايةُ إلهة الربيع يومَ حكاها لي فلافيوس الّذي تعلّمتُ على يده الفسيفساء. حكاها، مع حكايا وملاحم إغريقيّةٍ أخرى، بسرديّةٍ مفعمةٍ بالتشويق، فسكنتْني برسيفوني الجميلة، وآليتُ على نفسي أن أترجم مشهدَ اختطافها إلى فسيفساء حيّة. ويومَ جاءنا طلبُ والدِ سيلينا إعدادَ فسيفساء على أرضيّة صالة الطعام، انبريتُ لها بحماسٍ منقطع النظير.

---

الّتي تجرّها الأحصنة السوداء. ورغم صراخها وتَحَلُّق الحوريّات حولها في محاولةٍ يائسةٍ لإنقاذها، نزلَ بها هاديس إلى العالم السفليّ لتصيرَ زوجتَه ويجعلها ملكةً على عالم الموتى. حزنت ديميتر حزنًا شديدًا على ابنتها المفقودة فذبلت المحاصيل وعاش الناس مجاعةً كبيرة. تدخّل زيوس كبير الآلهة وألحّ على هاديس في أن يرجع برسيفوني إلى أمّها الّتي توقّفت عن إعطاء الحياة للأرض. أطعم هاديس زوجتَه حبّات رمّانٍ جعلتها ترتبط بالعالم السفلي. واتّفق مع زيوس وديميتر على أن تقضي برسيفوني ثلثَ العام معه ثمّ تعود وبدايةَ الربيع لتقضي مع أمّها ثلثي العام المتبقّيَين. حينها تكون ديميتر فرحةً بعودة برسيفوني فتمتلئ السنابل وتثمر الحقول، فتذهب إلى معبدها «إيليوسيس» لتلقّن كهنَتَها شعائرَها وأسرارَها ثمّ تصعد مع ابنتها إلى الأولمب.

# سيلينا

كنت أحوّم حوله مثل فراشةٍ تغزل بجناحَيها ألوانَ البهجة. إذ ظللتُ، طَوالَ المدّة الّتي قضّاها في بيتنا لإعداد فسيفساء صالة الطّعام، أراقبه وأتابع حركاته وسكناته. أعدَّ مِلاطًا من الرّمل والجصّ فرش به أرضيّة الصّالة، ثمّ تركها تجفّ. بعد يومين، عندما جفّت طبقة الجصّ، سطّر عليها بقلم الفحم أبعادَ المشهد. ثمّ صمّم الصّورة حَريصاً على نقل تفاصيلها الدّقيقة من رسمةٍ كان قد نقشَها على رَقٍّ. في الرسمة يظهر هاديس بجسده العِملاق وعضلاته البارزة ولحيته الكثيفة، يرفع برسيفوني بذراعَيْن قويّتين ليودعها عربتَه المجرورة بأربعة خيولٍ سوداء. وعلى يمينهما تندفع، صوبهما، ثلاثُ حوريّاتٍ في محاولةٍ يائسةٍ لتخليصِ إلهة الربيع.

في إثر تخطيط تفاصيل الرّسمة على طبقة الجصّ، جاء بالحجارة الملوّنة وبِقِطع الرّخام والخزف وحصى الأنهار وكِسَر الزّجاج الملوّن. وشمّر لدمجِها ورصفِها جنبًا إلى جنبٍ، لِكِساءِ الرّسمة.

بعد أسابيعَ من العمل الدّؤوب، استوت الفسيفساء، فأحاطها بإطارٍ مزخرفٍ مستطيلٍ غطّى زوايا الصّالة على نحوٍ بديع. وصبّ عليها خليطًا متماسكًا من الجير والرّمل لملء الفواصل والفراغات بين القطع، ثمّ نظّف سطحَها من بقايا الخليط.

لا أدري كم من الوقت مرّ عليّ وأنا واقفةٌ أتملّى ما صنعتْه يدا هذا الموريّ في صالة بيتنا. ظللتُ أدنو من مركز الفسيفساء وأبتعد، وكلّما

ابتعدتُ انجلى المشهد دقيقًا ومفعمًا بالحياة. القطع الحَجريّة الصّغيرة تلاحمت، تراصفت، تخاصرت وتكاتَفَتْ لتشكّل مشهدًا حيًّا ينبعث من الأرضيّة معلنًا عن أسطورةٍ تسرّبت في غفلةٍ من الزّمن لتستوطن أرضيّة صالة طعامنا. أقف عند باب الصّالة كتمثال. أدور حول هاديس العملاق. إلهي! أكاد أسمع صراخ برسيفوني العالقة بين تينك الذّراعين القويّتين وهي تستغيث بالحوريّات المرعوبات! أكاد ألامس حركة هاديس الّذي يخطو خطوته الواسعة حاملًا ضحيّته ليُودِعها عربتَه الذّهبيّة الرّهيبة المتّصلة بأربعة خيول سوداءَ قويّةٍ، وهي تنتفض بين يدَيه وتدفعُه بتعنُّتٍ وخوفٍ بيدها اليسرى المستقرّة على صدغه، بينما يُمناها مستسلمةٌ وتائهةٌ في الهواء، وساقاها البيضاوان المُطلّتان من تحت وشاحٍ قصيرٍ متشنِّجتان تركلان الفراغ.

هنا، يفيض الكمال الأنثويّ من جسد هذه الحسناء باذخًا عذريَّ التّفاصيل. كمالٌ يستوطن الثّديَ النّافر والعنقَ المنجرد والفخذَ الطّازج الّذي غرقتْ فيه أصابع هاديس. وهنا أيضًا يطلّ الكمال الذّكوريّ من عضلات هاديس البارزة وقامته الرّفيعة. هناك حركةٌ متدفّقةٌ من المشهد. ثمّة حياةٌ نابضةٌ في تدرّجات ألوان المكعَّبات، وأحاسيسُ قويّةٌ منبعثةٌ من قلب الفسيفساء. ثمّة تضادّاتٌ تلتقي ها هنا أمام ناظري لتصنع الجمال: القوّة والرّقّة، الذّكورة والأنوثة، الشّدّة واللّيونة. إنّها قوّة العالم السفليّ عندما تعانق رقّة الرّبيع.

كنتُ قد تركتُ بابَ البيت الخارجيَّ مفتوحًا كي يدخل أيدمون وقتما يصل. لقد تأخّر هذا الصّباح على غير عادته. أعرف أنّ الانكفاء على الحصيّات أجهده، فمَيْلُه إليها بكلّ ذلك الشّغف الّذي لم يثر استغرابي، أنا الّتي خبرت كيانه المسكون بفنّانٍ رهيف الإحساس ومتّقِد الخيال،

بدا شبيهًا بمَيْلِ ناسِكٍ متعبِّد. أمسِ فحسب أنهى رصْف الفسيفساء، فوعدته بأنّنا سنحتفل بالمناسبة اليوم. إذ لن يعود والدي أنطونيس إلى البيت إلّا بحلول المساء.

فقد ذهب إلى إحدى ضيعاتنا ليراقب غلّة العام ويقف على عمليّة قطْف العنب ورعاية الكروم. أما أوكتافيا فستلزم الدّور السّفليّ، ولن تصعد إلينا إلّا إذا ناديتها. وهو ما يمكن أن يعدّه أيدمون تواطؤًا جميلًا بيننا نحن الاثنتين.

اخترت للمناسبة فستانا أبيضَ رقيقًا متدفّقًا على جسدي. أخيرًا جاء أيدمون قُبيل الظهيرة. وقف مستندًا إلى باب الصّالة وعيناه على الفسيفساء وعليَّ. لم يبرح وقفته الجامدة برهةً، بينما ظللتُ واقفةً على الإطار المزخرف الّذي يؤطّر لوحةَ الفسيفساء. كنت حافية القدمين، وحافية القلب. رفعتُ عينيّ إلى باب الصالة. كان هناك ينظر إليّ. في نظرته الكثير من الحبّ، فيها دفءٌ طاغٍ لا يخطئه الفؤاد. دفءٌ يخطف القلبَ والرّوح ويسحبهما إلى مراتعَ خصيبةٍ معشوشبة. هاتان العينان كأنّما قُدّتا من عذوبة. هذا الجسم كأنّما صاغته بنان آلهة المور. تسارعتْ دقّات قلبي. حبيبي في بيتنا. لا أدري لماذا أنظر إليه اليوم نظرةً مختلفة. في الأيّام المنصرمة الّتي كان يأتي فيها صباحًا، ظلّ يكتفي بإلقاء التّحيّة علينا، ليدلفَ بعد ذلك إلى صالة الطّعام ويغرقَ في فسيفسائه. لمس أبي نبوغَه الفنّي فاطمأنّ إلى صداقتنا. وكثيرًا ما قاسمَنا المجلسَ في البهو، فانبهر والدي بحذق أيدمون وبسعة معلوماته واطّلاعه على الأساطير اليونانيّة القديمة. ودُهش من انفتاحه على الفنّ الإغريقيّ وإحاطته بأشكال الفسيفساء والنّحت والفنّ الرّوماني عمومًا. سأله أبي يومًا ماذا تعني له الفسيفساء:

- الفسيفساء حبٌّ قبل أن تكون صنعة. إنّها الشّغف الممزوج بلعب الطّفولة. هي البهجة الّتي تتيح للعين والأصابع أن يلتقيا على مبعدةٍ من الجمال الحقيقيّ، وعلى مقربةٍ من تخومه المسوّرة، فيتّفقا على أن يتضافر جهداهما على الإدلاج في سراديب المعنى، على الرّقص فوق أرضيّةٍ يصنعانها من قطعٍ وحصيّاتٍ منذورةٍ لاحتواء ضروبِ ذلك الجمالِ الحقيقيّ ولأْمِ تشكيلاته العصيّة.

لا يزال أيدمون على العتبة. لكنّ الصّالة امتلأت به، بروحه الّتي سكنت الأرضيّةَ وفضاء الغرفة كاملةً، تمامًا مثلما سكنتها روح برسيفوني الّتي أحببتها، وحسْبُ، لأنّ حبيبي صنعها وأخرجها من غياهب الحكايات الأسطورية لتتبدّى على أرضيّة بيتنا. شردتْ عيناي وهما تشملان بنظرتهما حبيبي الواقفَ في عنفوانه العاشق عند العتبة. تطأ قدماي الإطار وتتقدّمان إلى عمق الفسيفساء، إلى حيث ترسو عربة هاديس الذّهبيّة، بقدَمين حافيتَين، أتوغّل في مجال الفسيفساء. وأقول بدلالٍ:

- أريد أن أكون برسيفوني. اخطفني! خذني إلى موتي المشتهى. إلى العالم السّفليّ! واجعلني ملكةً على عالم الموتى!

# باخوس في العيادة

## (مذكّرات)

## نوال الهناوي

## تهامي

**الأربعاء 9 فبراير 1994**

- ولأنّي كنت في عزلةٍ هناك قربَ وَلِيلي، أعيش في اغتراب، وكانت ليالي وَلِيلي طويلةً، فقد شغفتُ بالشراب. وكان لي من قبل شغفان آخران هما الكتابة ومتابعة مباريات كرة القدم، هجرني اثنان وبقي واحد..

هكذا بدأ الحكيَ في الجلسة الحادية عشرة وهو مستلقٍ على الأريكة هذه المرّة.

- فأنا، كما سبق أن قلت لك مرارًا يا سيّدتي الدكتورة، رجلٌ لا يصحو من سكرٍ إلّا على سكر. أنا باخوس. ولم أحقد يومًا على زملائي وهم ينادونني بهذا اللقب، وقد فطنوا إلى مفعوله في نفسي. لذا يردّدونه، فيداعبون بذلك شغفي الباخوسيّ. أنا باخوس يا سيّدتي، أعاقر الخمرَ باستمرار. ومن الجيران الفرطاسيّين من يصفني بالسكّير الّذي لا يصحو. كنت أشرب محاولًا أن أنسى حرماني من رؤية زهرة وسامي.

- هذا يسمّى اضطراب تعاطي الكُحول يا تُهامي. وكثيرًا ما تصحبه اضطرابات صحيّة ونفسيّة أخرى كالقلق والاكتئاب. ويمكن التعافي منه

باتباع برنامج علاجٍ دقيق والاستفادة من دعم نفسيٍّ متواصلٍ، أو حقْنِ أدويةٍ مثل عقار النالتريكسون.

- لن أستطيع الإقلاع عن الكحول يا دكتورة. حتى وإن قاطعتُه أيام العمل، ففي نهاية الأسبوع وفي العُطَل لا تمضي نهاراتي دون شراب، فلا يدخل بطني غير النبيذ والمكسّرات من جوزٍ ولوزٍ وفستقٍ وزبيب. وأنا في عزلتي هناك، لا رفيق لي غير النّبيذ. هناك حيث لا أرى سوى أجسام الفرطاسيّين النحيفة، وأطياف نسائِهم الملفوفات في ألحفةٍ أو «حايْكات» حائلة الألوان. أخترق القرية صعودًا إلى المدرسة تاركًا سيّارتي في ساحة الجامع، فألتقي نظراتِهم المنخفضة الحادّة نفسها، وتطالعني بشرتهم الخبزيّة المكويّة بأشعّة الشمس.

سكتَ لحظة ثمّ أردف:

- أتدرين أنّ بعض القرويّين ظنّوني ممسوسًا لمّا رأوني، أو زعموا وحسْب، أنّني كنت أتحدّث مع نفسي في ذلك الممرّ الضيّق المفضي إلى المدرسة؟! بلغني أنّ بعض الفرطاسيّين الفضوليّين شاهدوني، أكثر من مرّة، أمشي منحنيًا وأنا أحرّك يديَّ وكأنّي أهدِّد وأتوعّد سرابًا، ثمّ أتوقّف في منتصف الطريق وأشرد فترةً طويلة، قبل أن أبتسم بِبَلاهة وأستأنف المشي. وقال آخرون:

«ألا تعلمون أنّ مدير المدرسة يذهب إلى ضريح مولاي إدريس زرهون وهناك يبكي ويتكلّم بمفرده!؟».

هذا ما قالوه رغم أنّي لم أذهب إلى ذلك المقام إلّا مرّتَين بِتُّ في إحداهما بين جدرانه مستندًا إلى صندوق الضريح حتّى الصبح. والحقّ أنّي

استعدتُ في تلك الليلة المشهودة النومَ الّذي هجرني بعد الفاجعة. نِمتُ ليلتَها ملء جفْنيَّ حتّى طلوع الشمس، بعد أسابيع طويلةٍ من الأرق الفظيع. لقد قادني شيخٌ غريبٌ إلى مقام مولاي إدريس زرهون، تأمّلت حلقات الذكر والسّماعَ وقراءةَ الأوراد، وانخرطتُ في بعض فقراتها. انكفأت عند أقدام الضريح وبكيت في انخذالٍ جنائزيّ.

- هلّا حكيتَ لي تفاصيل زيارتك هذه للضريح؟

- قبل أن أحكي لك ما جرى في تلك الزيارة المريبة، دعيني أعترف لك أنّي فقدت سيطرتي على حياتي، على الأقلّ في الأسابيع الأولى الّتي تلَتِ الفاجِعة. أتذكّر أنّني كنت حزينًا كسماءِ تلك العشيّة ببلدة زرهون. أوقفت الرونو 19، سيّارتي الجديدة، بموقف السيّارات المتاخم لساحة مولاي إدريس المركزيّة. كانت الساحة متنزّهًا للأُسَر ومرتعًا لأطفالهم، ومزارًا لبعض السيّاح وطالبي بركات الضريح الذين انتشروا في المحلّات المجاورة لاقتناء التحف والتذكارات الزرهونيّة وحلوى الزيارة أو «الباروك». جلستُ أحتسي قهوةً وأدخّن في تيراسِ مقهًى بعثرَ طاولاتِه تحت مظلّاتٍ تغطّي الجانبَ الأعلى من الساحة. جاءني النادل وسأل: «هل اسمك تهامي؟». أجبت بنعم. فقال، وهو يشير إلى زاوية الساحة الغربيّة: «إنّ هناك رجلًا يطلبك». رفعت عينيَّ إلى حيث تتّجه سبّابتُه. فرأيت الرّجل في جلبابٍ قصيرٍ أبيض مخطّطٍ يشير إليَّ بيده. نهضتُ وسرتُ في اتّجاهه. وما كاد يراني أبرح المقهى صوبَه حتّى سارَ بخطًى واثقةٍ في اتّجاه البوّابة الكبيرة المقوّسة المفضيةِ إلى الضريح. وقبل أن يغيب في الممرّ العريض المسقوف وسطَ حشدِ العابرين سرتُ في إثره مدفوعا بالفضول. سلك الزقاق الأيمن وكان مدخلُه مسقوفًا أيضًا، وبوّابته صغيرةً مقوّسة. صعد بضع درجات قبل أن ينعطف يسارًا.

وعندما اقترب من المنعطف التفت خلفه مرّتين ونظر إليّ. تبعتُه في الأزقّة الملتوية. المشي في مثل هذه الأزقّة الأفعوانية يبعث في الواحد شعورًا بالترقّب. حثثتُ الخطى حتّى صرت بمحاذاته ونظرت إلى وجهه نظرةً جانبيّة، وقبل أن أتبيّن ملامحه دار على عقبَيه، بحركةٍ سريعة، وعاد من حيث سلكنَا. توقّفت وصحت فيه:

- يا شيخ! من أنت؟ ولماذا طلبتني؟

ولم يجب. بل لم ينظر إليّ حتّى. وما زال يمشي أمامي في الزقاق الضيّق الخالي من المارّة. وعندما ألححت عليه بالنداء:

- يا شيخ! أيّها الشيخ الغريب!

توقّف فجأة. رفع رأسه وحدَجَني بنظرةٍ قاسية. كان وجهه أبيض مشرقًا تتناقض ملامحه السمحة المتناسقة مع نظرته الحادّة. وتمتم بصوتٍ جهوريّ تحرّكتْ معه اللحية البيضاء صعودًا ونزولًا:

- أنت قاتل.

أحسست ببرودةٍ تسري في عِظام ساقَيّ. حضرني مقتل ابني. خفق قلبي بسرعة، فَغَرْتُ فمي وهرب الصوت من حلقي. تحرّك الرجل. اندفعتُ بشكلٍ آليٍّ خلفَه خطواتٍ عديدةً قبل أن يعود الصوت إلى حنجرتي. تمتمتُ:

- لكن.. ماذا تقول؟! لست قاتلًا.. لم يَبدُ عليه أنّه سمع كلماتي. مضى في الزقاق الملتوي. تنحّى عندما دنَا من حمارٍ قادمٍ من الاتّجاه الآخر يرزح تحت أكياسٍ ثقيلة. نزل الدّرجات برشاقةٍ لا يمتلكها شيوخٌ في

مثل عمر هذا الغريب، ودلف من التقويسة إلى الممرّ العريض المسقوف. وبدلًا من العودةِ إلى الساحة أو اجتيازِ المعبرِ ليدلف من بوّابة الزقاق الأيسر، سار في المعبر العريض فتأكّد لي أنّه يطلب الضّريح.

تبعتُه. وفي المدخل، تجاوز العارضةَ الخشبيّةَ الّتي وُضعت هناك لإجبار الداخلين على الانحناء احترامًا لمقام الوليّ. كان الممرّ المفضي إلى الضريح ينضح بطاقةٍ مغناطيسيّةٍ دفعتني دفعًا إلى التقدّم أمامًا. انحنيتُ أنا أيضًا تحت العارضة. شيءٌ مّا جذبني إلى الداخل غير الشيخِ المهيب: مزيج من الفضول والأمل الواعِد بالراحة والشفاء من كآبتي المُقيمة. تجاوزت البوّابة الحديديّة الضخمة المشرعةَ على مصراعَيها، وسرت في رواقٍ فسيحٍ مبلّط بالزليج في اتّجاه البوّابة الرئيسة المفضية إلى باحة الضريح.

تذكّرتُ أوّلَ مرّةٍ أزور فيها هذا الضريح، في شبابي، عندما كنت طالبًا بمكناس. منذ ذلك العهد عرفت نسَبَ دفين الضريح. عرفت أنّه أحد أحفاد عليّ بن أبي طالب. هذا القرَشِيّ الّذي فرّ من بغداد ليحلّ بوَلِيلي فيؤسّس بها أوّل دولةٍ إسلاميّةٍ بالمغرب مستقلّةً عن المشرق في القرن الثامن الميلاديّ. في الباحة نزعتُ حذائي وحملته في يدي، كما رأيت الشيخ يفعل بنعله. مدّت لي سيِّدةٌ شمعةً وشرعت تقول:

- ما مرادك يا برّاني؟ ماذا تسأل؟ ألك طلبٌ عند مولاي إدريس؟ أما تعلم أنّ أهل المغرب من العاصمة ومن كلّ الأصقاع يقصدونه بالطلبيّات فينالون منه الكرامات؟ اعمل النيّة والحاجة مقضيّة.

ولّيتُ عن العجوز دون أن أمسك منها شمعتَها المضاءة. رفعت عينيّ فرأيت الشيخ قد تجاوز نافورةَ الماء الّتي تتوسّط الباحة، وغاب في مدخلٍ مقوّسٍ ينتهي بدرجٍ هابط. أسرعت إلى الدرج. كان مؤلَّفًا من اثنتي عشرة درْجةً تُفضي إلى باحةٍ ثانيةٍ تتوسّطها هي أيضًا نافورةٌ للوضوء. وكانت أكبر مساحة من الباحة الأولى. وقفتُ في نهاية الدرج، ومسحتُ بعينيّ الباحةَ المحاطة بالأعمدة الرخاميّة. أربعة أبوابٍ كانت هناك في الجنبات. لم أعرف أيَّ بابٍ عَبَرَ الشيخ. لقد اختفى. كان زوّارٌ كثيرون يجلسون على حصيرٍ قرب الباب الأيمن. وعلى عتبته المفروشة بزربيةٍ حمراء، وقفَ رجلان مهيبان كلٌّ منهما يرتدي جلبابًا أبيض ويعتمر طربوشًا أحمر وينتعل «بَلغة». بدَا من وقفتهما أنّهما يترقّبان زوّارًا مُهمِّين، ومن هيبتِهما أنّهما من أشراف الضريح. اتّجهت إلى حيث تُقرفص جمهرة الزوّار. وجلست بينهم بعد أن وضعتُ فردتَيْ حذائي جانبَ الحصير. وانصرفتْ عيناي تتنقّلان بين أعتاب الأبواب الأربعة، وهما تتطلّعان في يأسٍ إلى ظهور طيفِ الشيخِ. في تلك اللحظة تناهت إلى سمعي أصواتُ التهليل والتكبير، وما لبث صداها أن تصاعد وتردّد بين الجدران بقوّة. اشرأبّت الأعناق إلى الدرْج المشرف على الباحة. فظهرتْ منه مقدّمةُ الموكب الكبير. سمعت، وسط لغط التهليل، رجلًا على يساري يقول لمُجانِبه: «هذا وفْد الطريقة العلّاويّة قادمًا من مكناس». لقد نسيتُ أنّ تلك العشيّة كانت عشيّة عيد المولد النبويّ.

وفي هذه الذكرى تأتي طوائف الزوايا محمَّلةً بالهدايا إلى الشرفاء الإدريسيّين لإحياء حفلات دينيّة بالضريح وإقامة حلقاتٍ للذّكر وتلاوة الأوراد.

امتلأت الباحةُ برجال الوفد الصادحين بالتهاليل والمدائح. كانوا يتميّزون من بقيّة المريدين والمنتسبين المحلّيّين إلى الطريقة بجلابيب فاتحة الصفرة وطواقي باللون نفسه. كانت وجهتُهم القبّة الحسنيّة* المحاذية للضريح.

ازدحمت صالة القُبّة بالوافدين. صلّوا فيها صلاة المغرب جماعةً. ثمّ انتقلوا إلى قبّة الضريح الإدريسيّ. دخلت مع الداخلين. وسرتُ حتّى الركن بمحاذاة القبر الضخم المغطّى بقبّةٍ من الخشب المنحوت والمرصّع بتشكيلاتٍ من قِطَعٍ نحاسيّةٍ وذهبيّة. استوى الجميع جلوسًا. شرعوا في قراءة آياتٍ قرآنيّةٍ بشكل جماعيّ، وبعدها أقاموا ما يُعرف بالحضرة. ثمّ قرؤوا سورةَ الواقعة وأتبعوها الأوراد على الطريقة الصوفيّة العلاويّة.

استمرّ الحفلُ الدينيّ إلى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل. وُزِّعت علينا كؤوس الشاي والتمور والحلويّات المتنوّعة. وعاد المريدون لقراءة سند الطريقة الصوفيّة العلاويّة «إغاثة المستغيثين، برجال الله الصالحين». قرأ افتتاحيّتَها شيخٌ لم يكن من الوافدين، كان يلبس جلبابًا أبيض مخطّطًا. وعلى الفور قفزتْ إليَّ ملامحه الّتي كنت قد حفظتها قبل ساعات. إنّه الشيخ الغريب الّذي وصفني بالقاتل. خفق قلبي. تَلتِ السَّندَ حصّةٌ من السماع بصوت المريدين الشباب. أنشدوا قصيدة «دمعي مهطال» لشيخ الطريقة أحمد بن مصطفى العلّاوي. كانت كلمات القصيدة ورخامة أصوات المريدين تنفذُ إلى داخلي فيغمرني خدرٌ واسترخاء لذيذ:

---

* سُمِّيت حسنيّة نسبةً إلى الحسن الثاني الملك الّذي بناها.

دمعي مهطال
من عيني مضّاها
يـا برد الآصـال
سلِّم على طـَهَ
سلِّـمْ عليـه
يا نسيم القُربِ
واذكُـر إليـه
لـوعتي وحبّي
صـبْـرٌ مُحـال
عن حضرة البَها
يا برد الآصـال
سلِّم على طـهَ

أخذني سحرُ صوت المريدين الشباب، فأنساني حضورَ طَيفِ الشيخِ الغريب. تعلّقت عيناي بالثريّا الضّخمة المدلّاة من سقف القبّة. أرخيتُ جسدي مستندًا إلى خشب الضريح. وغرقتُ في نومٍ عميقٍ خالٍ من الكوابيس. لم يوقظني أحد. نمتُ حتّى طلوع النهار.

# عيّاش

**الثلاثاء 5 يناير 1993**

وسألتُه بصوتٍ قريب إلى الهمس:

- كان التمثالُ كبير الحجم وثقيلًا ملتحمًا بقاعدته الحجريّة عشراتِ القرون، فكيف سيختفي بتلك السرعة دون أن ينتبه الحارسان الآخران إلى صوت رافعةٍ أو سيّارةٍ تنقله من تخوم الموقع؟

- لم يكن قطعةً أثريّة يقدر على حملها رَجلان، كان يزن ما يقارب قنطارَين. اجتُثّ من قاعدته بعنايةٍ فائقة، وبمهنيّةٍ عالية. إنّه تدبيرٌ جبّارٌ حبكته عقولٌ كبيرة. لعلّها مؤامرةٌ، صفقةٌ، خطّةٌ وراءها مافيا خبيرة، مافيا دوليّة تتاجر في سرقة الآثار. لقد نفيتُ معرفتي بسارق التمثال، ولم يصدّقوني طبعًا. ولمّا أضفت أنّ «من أراد أن يسرق صومعةً فإنّ عليه أن يهيِّئ لها حفرة واسعة وعميقة يدفنها فيها»، ضحكوا بسخريَة. وبدأت حفلة التعذيب. أكرَموا جسدي الهزيل بالسوط ولَسَعات الكهرباء. وعندما جاوزَ التعذيب الحدَّ الّذي يمكن أن أتحمّله، «اعترفتُ» لهم.

- اعترفت! بماذا يا عيّاش؟

- نسجت قصّةً كاذبةً أسعفتني بها مخيّلتي لأنجو بجلدي الّذي ألهبتْه السياط. قلت كاذبًا إنّ ثلاثة رجالٍ ملثّمين أوقفوني مساءً في طريقي إلى الموقع، ساوموني على التمثال، وأعطوني ثلاثةَ آلافِ درهم، لأساعدهم

بإلهاء الحارسين الآخرين، وإبعادهم عن المنطقة الّتي يوجد بها التمثال. وعندما تردّدت في الموافقة، هدّدوني بقتل ابني اليافع المهدي. وعند حلول الساعة الثانية ليلًا، ظهر أولئك الرجال، كانوا أربعةً هذه المرّة وخامسُهم بغلُهم. سلكوا المنفذَ الشماليّ الّذي يسلكه عمّال الموقع. حفروا قاعدةَ التمثال بعناية، ورفعوه بالحبال على ظهر البغل القويّ، وقد ساعدتُهم بإمساكِ لجام البغل!

- إلهي كيف اعترفت بهذا. لقد جعلتَ نفسك شريكًا في الجريمة!

- لقد أفقدني السوط والكهرباء صوابي.

**بحثا عن الإله باخوس.. اعتقالاتٌ بالجملة وتعذيبٌ حتّى الموت**

**(جريدة المهجَر العربيّ- صفحة الأحداث - عدد الثلاثاء 6 يوليوز 1982)**

**... الموقع الرومانيّ الأشهر بالمغرب تعرّض لسرقة أنفَس تحفةٍ كان المغرب يتوفّر عليها، هي تمثال باخوس (إله الخمر عند الرومان) الّذي اقتُلِع من قاعدته وسُرق في ظروفٍ غامضة. وقد عاشت قرية «فرطاسة»، المتاخمة لمدينة وَلِيلي، أحداثًا مُرعبة عقب هذه السرقة، أحداثًا لم تأتِ الصحف المغربيّة على ذِكر تفاصيلها بسبب الرقابة الصارمة المفروضة عليها. كان الملك الحسن الثاني، في أوائل شهر ماي الماضي، يستعدّ لزيارة الولايات المتّحدة الأمريكيّة حينما تلقّى خبرَ سرقة التمثال الغالي. كان يعلم قيمةَ تلك التحفة النفيسة الّتي تقدّر بملايين الدولارات. إذ توجد تماثيلُ لإله الخمر المذكور في الكثير من المتاحف العالميّة لكنّها مُجرّدُ نسخٍ غير أصليّة. ليبقى**

**تمثال وَلِيلي هو الوحيد الأصلي والفريد على الإطلاق. كان الملك يعلم هذه الحقائق فأصدر أوامره المباشرة للنبش عن هذا الإله تحت الأرض أو الإتيان به من عنان السماء قبل عودته من أمريكا.**

**ساعات قليلة مرّت على ذلك الأمر الملكيّ الصارم، فطوّقت السلطاتُ القريةَ المقابلة لموقع وَلِيلي بأكثرَ من 50 سيّارة جيب تابعة للدرك الملكيّ، فيما تكفّلت طائرات الهيلكوبتر بتمشيط المكان حتّى لا يتسلّل أحدٌ خارج القرية. كانت نتيجة ذلك الحصار اعتقال الكثير من رجال القرية، خاصّة المشتغلين بالموقع الأثري وأقاربهم، وتعذيبهم مدّةَ أسابيع، ما أدّى إلى وفاة أربعة أشخاصٍ متأثّرين بالتعذيب في مخافر الدرك من أجل انتزاع اعترافاتٍ مُزيَّفة من أناسٍ بسطاء لا يفرّقون بين الحجر العاديّ وتحفةٍ نفيسة.**

# ليالي وَلِيلي

## (رواية)

## أريادنا نويل

## جواد

### الاثنين 11 شتنبر 1995

أخرج من البيت حاملًا محفظتي الجلديّة. أقطع الحوش. أتجاوز البابَ القصبيّ فأسحبه خلفي، لأمضي خائضًا طريقي اليوميّة نحو المدرسة. أسير في مسربٍ نحتَتْه الأقدام بين الأشجار والكروم المتناثرة في جنبات الطريق الوطنيّة. هذه الطريق القادمة من مكناس تخترق سفوحَ مرتفعات زرهون متّجهةً شمالًا نحو سيدي قاسم وفاس. كرومٌ وصبّارٌ شوكيّ وشجر أوكالبتوس تؤثّث المرتفع المؤدّي إلى فرطاسة رغم أنّ الزيتون يبقى معلنًا سيادتَه على هذا الفضاء. أعبر الطريق الوطنيّة. أمرّ بالقرب من نزل «وَلِيلي» العتيق. أتوغّل في المرتفع رأسًا لأصل إلى الطريق المعبّدة المتعرجة صعودًا إلى مركز قرية فرطاسة.

واجهات البيوت الفرطاسيّة وسطوحها ما زالت لم تنضُ عنها ثوبَ سكونها الصباحيّ. أنعطف يمينًا، أتجاوز مسجدَ القرية. أسلك ممرًّا طويلًا يفصل بين ضيعتَين فسيحتَين مُسيّجتَين ينبعث من حظائرهما ثغاءُ الشياه وروائح بعر البهائم. أبلغ منتهى الممرّ لأصعد بضعة أمتارٍ قبل أن يلوح لي سورُ المدرسة العالي.

المدرسة تتربّعُ على خاصرة جبل زرهون. لا تتوفّر إلّا على ثلاث قاعاتٍ للدرس وواحدةٍ متعدّدة الوسائط وفضاءٍ خاصٍّ بالإدارة. في تمام العاشرة دقّ جرس الاستراحة فخرج التلاميذ إلى الساحة. حملت كرسيًّا واتّجهت به إلى ظلال زيتونة وارفةٍ. جلست في استرخاء، وأرسلتُ نظري نحو المنحدر المأهول بالشجر والخضرة، غير آبهٍ للصرخات الصغيرة الّتي يَدلُقُها التلاميذ وهم يتراكضون بمَرَحٍ في الحيّز المستوي من هذا المنحدر الفادح الّذي شُيِّدَت على تربتِه المدرسة.

من هنا، من سفح الجبل الزرهونيّ، تبرز فرطاسة كاملة. من هنا تستولي العينُ على مشهد السهل الفسيح الممتدّ إلى حدود التلال الجنوبيّة والغربيّة الّتي يتوارى خلفَها منبسط مكناس: ضِياعٌ متفرّقة هنا وهناك، حقولٌ على شكل مستطيلاتٍ ومربّعاتٍ تتخلّلها قطعٌ أرضيّةٌ حُرثت حديثًا. إنّها لوحة فسيفساءٍ كبيرة ممتدّة تسكن هذا السهل الّذي كرّت عليه حوافرُ خيول الرومان الغازية وتفصّد على ترابه عرقُ الموريّين وسالت دماؤهم.

وأنا جالس على الكرسيّ تحت الزيتونة الوارفة، جاءني الصوت من خلف:

- صباح الخير.

- صباح الأنوار. قلتُها وأنا ألتفت إلى صاحب الصوت الجهوريّ. وأردفتُ عندما رأيته:

- السي تهامي، يا مرحبا.

صافحني بيدٍ كبيرةٍ ظاهِرُها بارزُ العروق. كان رجلًا عريض الكتفَين، طويلًا وعلى درجةٍ متوسّطةٍ من النحول. شعرُ رأسه خفيفٌ، وجبهته ضيّقة. أسنانُه متناسقةٌ وبيضاء لا تشي بأنّه يدخّن. عيناه باردتان غامضتان بلونٍ بنّيٍّ خفيف، لم أرَ فيهما ظلًّا للطفلة سعاد، ولا أثرًا للعشيقة الأمريكيّة لينا. لكنّ تلك البرودة الثاويةَ في نظرته جعلتني آخذ عنه انطباعًا خاصًّا: وهو أنّه بئرٌ من الأسرار وحقلٌ ملغوم، رجلٌ لديه حسٌّ مراقبةٍ حادٌّ جدًّا:

- كيف حال كاتبنا الجميل؟

- على ما يرام. شكرًا لك.

- عيناك تبدوان متعبتَين، كأنّك لم تنم. هي الكتابة إذَن، أليس كذلك؟

- لم أتعوّد النوم باكرًا. أسهر كثيرًا. الكتابة لها مزاجُها، تأتي عندما يحلو لها.

- حدّثتَني قبل أشهر عن مشروع روايتك. أين وصلت في رحلة الحبر الشّاقة؟

- لقد أكملتُها قبل أيّام. بقيتْ بعض اللمسات والتصويبات.

- ممتاااز! هنيئًا لك. هنيئًا لك يا صاحبي.

كرّر تهنئته بنبرةِ مَن سمع خبرًا مفرحًا جدًّا، وضرب على ذراعي بودٍّ، وأردف:

- لمدرستنا أن تفخر بأمثالك من أساتذتها الذين يعرفون كيف يوفّقون بين التدريس والبحث والتأليف.

- شكرًا أستاذ. أنا أيضًا سعيد لأنّي أشتغل مع رجلٍ مثقّفٍ مثلك يقرأ ويكتب أيضًا.

- الكتابة عندي مجرّد هوايةٍ مزاجيّة يا صاحبي، أنت تعرف وضعي والعملَ، قليلًا ما أفرغ من جحيم الأوراق والوثائق والمراسلات الإداريّة والذهاب إلى نيابة التعليم. هذا يُرهقني كثيرًا، ولا يترك لي حيّزًا من الوقت لأكتب.

وأضاف بنبرةٍ أجهَد فيها حلقَه لتخرج صادقة:

- سعيدٌ لأنّك أنهيت كتابةَ روايةٍ أخرى. وإنّي لأغبطك لأنّك كاتب جيّد.

حينها رنَّ جرس انتهاء الاستراحة. عاد التلاميذ إلى أقسامهم. قمتُ من جلستي. وسار المدير بخطواتٍ واسعة. نظرتُ إليه عندما افترقْنا، وهو يخطو. كان ظهره مستقيمًا، وكتفاه مشدودتَين، وكأنّه مستعدّ لمعركة. ولست أدري لماذا عَلِق هذا التشبيه بذهني وأنا أتابع تهامي بعينيَّ حتّى ابتلعته بناية الإدارة.

اتّجهت إلى قسمي. مررتُ بزميلي الأستاذ حسن. كان جالسًا هناك على الكرسيّ قرب باب قسمه. الأستاذ حسن رجلٌ كهلٌ قديم في الحرفة كما يقولون، لحيتُه قصيرةٌ خالطها الشيب. أحترم حضورَه وأسترشد بخبرته أحيانًا. أخرجَ علبة النشوق من جيبه. مدّ سطرًا من «الطّابا» على ظهر يده. واستنشقه في دفعتَين. ثمّ مسح منخرَيه في خرقة، وقال كأنّما يعتذر:

- أريد أن أنقطع عن التدخين. والطابا تساعدني.

وعندما اقتربت من باب قِسمي، ناداني:

- جواد. معك سيجارة؟

# جواد

**الخميس 14 شتنبر 1995**

سوف يقتحمون بيتَك يا جواد بحثًا عن نصّ الرواية. الله وحدَه يعلم من أين جاؤوا بمفتاح الباب.

كان الوقت في الساعة الحائطيّة الجديدة، الّتي اشتريتها من محلٍّ بحيّ الهديم، قد قارب الحادية عشرة ليلًا. اتّجهت إلى المطبخ لآتي بالحساء: كسرولة حساء متوسّطة الحجم بعثتْها لي سعاد. ما أسخاك يا سعاد! مذ عرفتك لم أعد أشعر أنّي غريبٌ في هذه الديار. حتّى عند فراقِنا، تُصرّين على العناية بي عن بُعد. ملأتُ من الكسرولة زبديّة، وشرعتُ في احتساء «الحريرة» بعد أن ألقمتُ مشغّلَ الأقراص فيلمَ سبارتاكوس للمخرج ستانلي كوبريك. لقد استندَ فيلم ثورة العبيد هذا إلى روايةٍ للكاتب الأمريكيّ هوارد فاست تحمل العنوانَ نفسه. كنت أشاهد الشريط للمرّة الثالثة.

لقد حرصت، منذ أيّام الجامعة، على أن أمتلك مكتبةَ أفلام. ضممتُ إليها مجموعةً مختارةً من الأفلام التاريخيّة، وأفلامًا بالأبيض والأسود أبرزها مجموعة هيتشكوك. ومن الأشرطة ما أعدتُ مشاهدتَه ثلاث مرّاتٍ أو أربعاً دون أن أمَلَّهَا. لحظةَ تصاعدِ موسيقى بداية الفيلم وظهور مقاصل العبيد إثْرَ معركتهم الأخيرة ضدّ الجيش الروماني عام 73 قبل الميلاد، سمعتُ رتاجَ الباب ينفتح. لِوَهلةٍ خِلت الصوتَ آتيًا من التلفزيون، من قلب الفيلم، لكنّ قرقعة انفتاح الباب كانت قويّةً.

فأيقنت أنّ أحدًا يداهم بيتي. كنت في لياليَّ الأولى بالبيت أحرصعلى إغلاق الباب من الداخل بالمزلاج الحديديّ الموصول بالباب. لكن مع الوقت صرتُ أكتفي بقفل الرتاج.

انفتح البابُ وانغلق، وعلى الفور ظهرَ رجلان بالردهة. تسمَّرتُ في جلستي، وملعقةُ الحساء جامدةٌ بين أصابعي، وأخذتُ أنظر إليهما بفزعٍ غيرَ مستوعِبٍ هذا الاقتحام المفاجئ الّذي لم أكن أشاهده إلّا في الأفلام.

نطقتُ بصوتٍ غلبَ فيه الفزعُ على الاستنكار:

- من أنتما؟

فتكلّم أضخمُهما جثّةً بصوتٍ أجشّ مشروخ النبرة. كان متوسّطَ القامة، وجهُه يأخذ شكلًا مربّعًا، وذَقنُه حليقٌ:

- ضيفان ثقيلان. أليس من اللّائق أن ترحّب بضيفَيك؟

- ماذا تريدان..؟ وكيف لكما أن..

فقاطعني الرجل الطويلُ هذه المرّة بصوتٍ رقيقٍ حادٍّ لا يتناسب مع ذَقنه البارز على نحو لافتٍ:

- بعثنا السيّد «الأمريكيّ».. يريد الأمانة..

- من؟.. أيّ أمانة؟

فردّ ضخمُ الجثّة:

- الرجل الّذي يهاتفك ولا تردّ على اتّصالاته.

كان البدين ينظر إليّ بعينَين صقريّتَين، تُوحيان بأنّهما رأتا الكثيرَ من الجرائم فلم يعد فيهما متّسعٌ للمشاعر. تأمّلتُ وجهَه المربّع الشكل جيِّدًا، وعرفته: إنّه هو نفسه الّذي كان يرتدي القبّعةَ ويضع على عينيه النظّارة في ذلك اليوم البعيد، هو مَن سلّمني ظرفَ الثّلاثين ألف درهم قبل سنة.

أيعقل أنّ ما كنت أخشاه قد وقع؟ كان عليَّ أن أفهم أنّ شخصًا يعرف تفاصيل سرّيّةً عن حياتي لن يصعبَ عليه اقتحامُ بيتي وقتَمَا أراد. ولكنْ من أين له بالمفتاح؟ وكيف عرف أنّي أنهيتُ كتابة الرواية؟

صحيحٌ أنّي لم أُجِبْ على مكالماته الهاتفيّة المزعجة، ولكنْ ما هكذا تُسوَّى الأمور. لم أتوقَّع سيناريو كهذا.

وفجأةً أمرَني مربَّعُ الوجهِ، وهو يسير في الردهة ويجيء بقامته المتوسّطة.

- هات المخطوطة الّتي فرغتَ منها.

بدا لي أنّها لم تكن المرّةَ الأولى الّتي يدخل فيها الرجُلان إلى هذا البيت. لم يكونا غريبَين قطُّ عن جدرانه. حاولت أن أضلّلهما:

- لم أنْتَهِ من كتابتها.

فزعَقَ الضخم بصوته الأجشّ:

- أتعبث معنا؟ لقد مضى أسبوعٌ على انتهاء الأجل المتّفق عليه.

- لم أتقدّم في النصّ كثيرًا، بل إنّي لم أكد أتجاوز الصفحات الأولى، والرواية يلزمها بحثٌ وقراءةٌ وسفرٌ ووقت، وو و.

- عدم الردّ عن المكالمات لا يعني سوى شيءٍ واحدٍ هو الإخلال بالاتّفاق، رغم تسلّمك المال، أو أنّك كتبت النصَّ وفكّرتَ في الاحتفاظ به لنفسك.

- قلت لكما إنّي لم أكمل النصّ.

استلّ السمينُ من حزام سرواله سكّينًا كبيرة، وألصقَ نصْلَها بعنقي. ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ، وأنا أحدّق في النصل الّذي ينتهي بمقبضٍ خشبيٍّ تَشُدُّ عليه أصابعُ ثخينةٌ. لم أرَ يومًا سكّينًا يُقرَّب إلى وجهي بهذا الشكل.

- من الأجدى لك أن تعطينَا المخطوطة، وإلّا اقتلعتُ عينَك هذه، فتُمضي بقيّةَ عمرك في الكتابة بعينٍ واحدة.

ثمّ مدَّ السكّين إلى حجري، فأحسستُ وخزَ النصل بين ساقيّ، وأردف:

- أو سأنتزع خصيتَيْك أيّها الكاتب. سيكون ملهمًا أن تكتب دون خصيتَين، أليس كذلك؟!

وانفجر مقهقهًا. حتّى رفيقُه النحيل الّذي بدا هادئًا ضحكَ لهذه الدعابة السخيفة، واتّجه بساقَيْن متباعدتَيْن إلى المكتب العتيق. ألقى نظرةً غير مباليةٍ على كتب الدولاب. سحب الكرسيَّ الدّوّار وجلس عليه بجسده الطويل، وهو يقول بصوته الرقيق:

- أَرِنَا ما كتبتَ، هيّا.

- لم أُنْهِ النصَّ بعد. قولا لسيّدكما أن يمهلني وقتًا إضافيًّا.

ودون أن يأبه لكلامي، شرعَ يقلّب الأوراق الّتي تعلو المكتب. وعندما مالَ بجسده النحيل ومدَّ يده إلى الجارور اندفعتُ نحوَه لا إراديًّا لأبعده عن المكتب، فأمسك بي ضخمُ الجثّة من قميصي وطرحني أرضًا أمام باب غرفة النوم، وأشْهَرَ السكّينَ في وجهي:

- سوف ترى أسوأ كوابيسك هذه الليلةَ أيّها الحثالة. لكي تعرف جزاء التلاعب مع أسيادك وسرقة مالهم. أيّها المحتال النذل.

كانت يدا الطويل قد وقعتَا على دفاتر المخطوطة. تصفّحها وهو يقول بشماتة:

- يبدو خطُّك جميلًا أيّها الكاتب، مثل خطّ فتاة.

وضحك في استهزاء. جمعَ كلّ الأوراق المكتوبة الّتي وجدها في الجارور وفوقَ المكتب. وحشرَها في كيسٍ بلاستيكيٍّ أسودَ كان في جيب سترته. وسارَ نحو الباب. وعندما خرج، أفلتَني السمينُ، وتبعَه، بعد أن غمّد السكّين تحت ملابسه.

# جواد

**الأحد 24 شتنبر 1995**

عادةً ما أقضي النصفَ الثاني من نهار يوم الأحد في بلدة زرهون المجاورة متنقّلًا بين مقاهيها وأزقّتها الضيّقة. أقتني ما أحتاج إليه من بضاعةٍ ولوازمَ وأعود إلى فرطاسة على متن سيّارةٍ أو ناقلةٍ.

أمّا مساء هذا الأحد فقد اتّصلتْ بي سائحةٌ أمريكيّةٌ من أصولٍ إيطاليّة. قدّمت نفسَها على أنّها تُدعى أريادنا نويل من بوسطن، وقد حصلتْ على رقم الهاتف من لينا الأمريكيّة. وأضافت أنّها كاتبةٌ وباحثةٌ في الآثار. قالت إنّها تُحدّثني من نزل «وَلِيلي» القريب من الموقع الأثريّ، وتريد لقائي.

توجّهتُ على الفور إلى باحة نزل «وَلِيلي» المتاخم للطريق الصاعدة إلى فرطاسة، ذلك النزل العتيق الّذي بات نزلاؤه يَقلّون مع حلول الخريف. المكان ارتبط لديَّ برشفات شاي «عمّو عْلي»، صاحب النزل، الّذي يُعِدُّه بإتقانٍ منقطع النظير. متى رآني في المساء عائدًا من المدرسة أوقفَني ليستضيفَني على شايه الذائع الصيت عند ساكنة المنطقة.

رأيتُها من جانب الطريق. كانت الوحيدة في باحة النزل، وقد جلستْ إلى طاولةٍ تشرف على رؤيةٍ بانوراميّةٍ تطوِّقُ أطلالَ وَلِيلي والسهل المترَع بأشجار الزيتون. كانت ترتدي ثوبًا سماويَّ الزرقة. وفي يدها كأسٌ

فخّاريّةٌ تمسكها من المقبض. كانت ترتشف من كأسها قهوةً بالحليب وعيناها مصوّبتان نحو فضاء الموقع الأثريّ.

تحيط رأسَها ثَروةٌ من الشعر الذهبيّ الأشقر. وجهها مشرقٌ جميلٌ في استدارته وعاجيُّ البياض. وتبدو في منتصف ثلاثيناتها.

رفعتْ رأسَها في اتّجاهي فالتقت نظرتانا. وبحركةٍ تلقائيّةٍ راقتْني، رفعتْ لي نخبَ كأسها. من يرى حركتها تلك سيجزم أنّها تعرفني من قبل. ابتسمت بلا كلفة. فاقتربتُ منها وأنا أطوّق بنظرتي عينَيها العسليّتَين الصافيتَين. كانت تنثال منهما نظراتٌ بِلوْن هدوءِ ذلك المساءِ:

- أتسمحين لي باقتحام عُزلتك، لندردش نكايةً بالصمت المخيّم على المكان؟

وابتسمت ملء فمها الطفليّ:

- مرحبًا سيّد جواد.

نطقتْ ترحابَها وهي تمدّ إليَّ يدًا عاجيّةَ البياض رقيقة الأصابع. ثمّ بسطتْ كفّها بحفاوةٍ ودعتْني لأجلس إلى الطاولة الخشبيّة العتيقة. وأردفتْ والبريقُ العسليّ الأخّاذُ يملأ عينَيها:

- عرفتُ أمسِ من دليلٍ سياحيٍّ أنّ النزل يقع قريبًا من الموقع الأثريّ. لذلك قدِمتُ إليه لأمضي فيه بضعة أيّام.

- مرحبًا بكِ في وَلِيلي.

شكرتْني بأنجليزيّة باذخة، ونظرت إليَّ نظرةً فاحصةً لتستحثّني على الكلام. قلت:

- أتردّد إلى هنا بين فينةٍ وأخرى لأستمتع بالشاي الّذي يعدّه «عمّو عْلي» صاحب النزل. ثمّ إنّ المدرسة الّتي أعمل بها، تقع قريبًا من هنا في المرتفع. وأشرتُ بأصبعي نحو جبل زرهون.

- جميل. أخبرتْني لينا بأنّك مدرِّس، وتُجيد الأنجليزية. سعيدةٌ أنّني وجدت هنا من ينطق الأنجليزيّة بشكلٍ جيّد.

- وأنا أسعد، لأنّي مع باحثة آثارٍ قادمةٍ من بلاد العمّ سام.

وابتسمت لمجاملتي بفمها الصّغير الرقيق الشفتَين.

- لستُ باحثة آثار بمعنى الكلمة الدّقيق. قُلْ كاتبة وباحثة هاوية.

- لا شكّ أنّك تشتغلين بحفريّات وَلِيلي.

- نعم.. أشتغل بالفسيفساء.

وكأنّي ما تركت الفسيفساء الملغزة في بيتي، وفي فسيفساء روايتي الضائعة، إلّا لأجدها تنتظرني في عينَيْ هذه الشقراء وفي كلماتها الأنجليزيّة الباذخة النبرة. أيُّ تواطؤٍ للمصادفات هذا الّذي بدأ يلفّ ذراعَه المريبةَ على خاصرة هذا الفضاء الوَلِيليّ المثخَن برواسب المغرب القديم في أزمنته الآفلة؟

قالت أريادنا إنّها تبحث في الفسيفساء الرومانيّة بشمال إفريقيا، المنطقة الزاخرة بأنواعٍ عديدةٍ من الموزاييك المأثورة عن العصر

الرومانيّ. لقد قرأتْ عن فسيفساءات الشمال الإفريقيّ. وعثرت في المتاحف الإيطاليّة والفرنسيّة على عددٍ من النماذج الفسيفسائيّة الّتي خلّفها الوجود الرومانيّ في هذه المستعمرات.

كانت نماذج متنوّعةً تتيح الاطّلاع على صورٍ من الحياة اليوميّة لهذه البلاد في عصر الإمبراطوريّة، مثلما تتيح التعرّفَ على عوائد الأهالي في تلك الحقبة وطقوسهم وطرائقهم في تذليل الطبيعة. قالت:

- عرفت أنّ المجموعة المغربيّة من أثرى مجموعات الفسيفساء الرومانيّة في شمال إفريقيا. وتأكّد لي ذلك ممّا رأيتُه هذا الصباحَ في زيارتي الاستكشافيّة لموقع وَلِيلي. وجدتُ نماذجَ تعبّر عن اصطباغ مدينة وَلِيلي بالثقافة الرومانيّة، كما تمثّل أنشطةَ الحياة اليوميّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة وتصوّر المناظرَ المتعلّقة بالأساطير القديمة. ولكن لم أجد في هذه النّماذج لوحاتٍ فسيفسائيّةً توثّق للحياة السياسيّة في الحقبة الرومانيّة. لم أجد ولا فسيفساءَ واحدةً تصوِّر إمبراطورًا مثلًا، أو فسيفساءَ لقائدٍ من قادة الجيش الإمبراطوريّ أثناء اجتياح أراضي شمال إفريقيا لإخضاعها للسلطة الرومانيّة.

فقلتُ معقّبًا:

- الفسيفساء في الأصل وضعت للتزيين لا لمعالجة موضوعاتٍ سياسيّة. وصُنّاع الموزاييك استبعدوا عن فنّهم كلَّ الرسوم الّتي تذكّرهم بالاحتلال ودماءِ الحرب.

عدّلت جلسَتها، رفعت خصلاتٍ شقراءَ سائبةً تسلّلتْ إلى جبهتها المستديرة. واحتست من كأسها الخزفيّة، وعلّلتْ:

- لأنّ العنصر الجماليّ البصريّ هو رهان صانع الفسيفساء.

- تمامًا.

وأردفتُ:

- كنت منشغلًا، في الأشهر الأخيرة، بكتابة روايةٍ استلهمتُ فيها فضاءَ وَلِيلي، لذلك اضطُررتُ إلى الاطّلاع على كتُبٍ عُنِيَتْ بالفنّ الرومانيّ. وجدت أنّ فنّ الفسيفساء شغل مساحةً كبرى في فنون الرومان البصريّة، ولا سيّما في الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث الميلاديّ. ولاحظتُ أنّ الفسيفساء الأكثر انتشارًا في كلّ أقطار الإمبراطوريّة، وبالخصوص بشمال إفريقيا، هي الفسيفساء المصوّرة للطبيعة.

- واو! لم أكن أعرف أنّك كاتب! لم تقل لي لينا عنك سوى أنّك تعمل بمدرسةٍ مجاورةٍ للموقع وتجيد الأنجليزيّة. أمرٌ رائعٌ فعلًا أن تكون روائيًّا. ثمّ إنّ استلهام فضاءِ وَلِيلي وفسيفساءاتها سيكون له أثرٌ ساحرٌ في روايتك، دون شكّ.

تنحنحتْ كأنّما تستعدّ لتسكب مزيدًا من الكلام، مزيدًا من الفسيفساء:

- أنا أيضًا بحثتُ في الكُتُب وفي متاحف إيطاليا وفرنسا. ولم أجد في الفسيفساءات الرومانيّة المأخوذة (والمنهوبة) من شمال إفريقيا غير الأشكال المكرورة لمناظر الطبيعة وأنشطة الحياة اليوميّة القديمة.

شملتني بنظرةٍ وديعة. ورفعتْ عينَيها إلى الأفق واستعادتْهُما لتثبّتهما على وجهي. رفعتْ سبّابتها الطويلة وكأنّها تذكّرت نقطةً مهمّة:

- ولا بدّ أن أستثني من فسيفساءات الطبيعة هذه لوحًا فسيفسائيًّا عثرتُ عليه بمتحف اللوفر أثناء زيارتي لباريس، يناير الماضي. وجدتُه معروضًا على إحدى المصاطب بجناح دينون. أثارتني كسرات هذا اللوح المرمّمة. كانت ثمّة كسراتٌ فسيفسائيّة أربعٌ شكّلتْ في مجموعها لوحةً مستطيلةً تصوِّر، كما هو مكتوبٌ على الملصق التعريفيّ الخاصّ بالتحفة، محاربًا موريًّا يقاوم الرومان. الفسيفساء مأخوذةٌ من موقع فوليبيليس بالمغرب، وتعود إلى منتصف القرن الثاني الميلادي.

آه لهذا البذخ المنسكب من حضور شقراء أمريكيّةٍ ذاتِ أصول إيطاليّة، بذخِ الشغف الّذي تتحدّث به عن الفسيفساء، بذخِ نبْرِ صوتها الأغنّ، بذخِ وجهها. وَجهٌ يأخذُ شكْلَ بَيضَةٍ. امرأةٌ أرشِّح وجهَها البَيْضَوِيّ العذب ليكون أجملَ وجهٍ يمكنني أن أراه في فرطاسة أسابيعَ أو أشهرًا معدودةً قادمةً قبل أن أطالع وجهًا يسمو إلى جماله، وجه سيتّفِق كلّ الفرطاسيّين والزرهونيّات على أنّه الأبهى.

لقد بدا لي من لقائنا الأوّل أنّي في طريقي إلى الإعجَاب بهذه الإيطالية الأصل، روميّة طالعة من جداريّات الفنّ الرومانيّ.

# أريادنا

**الاثنين 25 شتنبر 1995**

في لقائنا الثاني بباحة النزل، أريته صورة فسيفساء المحارب الموريّ على حاسوبي المحمول الحديث الطراز. كانت لوحة الفسيفساء سليمة، ولا أثرَ لشقوق كسراتها. لكن عند تقريب الصورة بالزّوم تلوح آثارُ ترميمٍ حديثة. في وسط إطار الصورة تظهر هيئة رجلٍ طويلٍ أسمر، عريض الكتفَين، يلبس ثوبًا باهت البياض أطول قليلًا من التونيكا الرومانيّة، محْتَزِما بِزَنّار يتدلّى منه غِمدٌ مزخرف. كانت قدمه اليمنى منسحبة قليلًا إلى الخلف، أمّا جسده فمندفعٌ بكلّ ثقله إلى الأمام، يسبقه سيفُه الّذي لم يبد منه غير المِقبَض. كان في وضعيّة هجوم. يبدو كأنّه يسدّد طعنةً نجلاء إلى شخصٍ خارج إطار اللوحة. وفي الزاوية اليمنى تُلاحَظ كلمةٌ لاتينيّةٌ من خمسة أحرف:

**MAURI**

«الموري» هي التسمية اللّاتينيّة لسكّان البربر في موريتانيا الطنجيّة. أشرتُ بسبّابتي إلى الصورة، وقلت:

- رُصّتِ الكسرات الأربع وأُلصقَ بعضُها ببعضٍ على لوحٍ مستطيلِ الشكل غطّته كاملًا، وكان طوله يقارب مترًا ونصفًا، وعرضه يتعدّى نصف المتر بقليل. حوافّ هذه الفسيفساء، كما عاينتُها باللوفر، سليمةٌ من الرضوض حتّى إنّ جنباتها لم تفقد شيئًا من مكعّباتها. وإن كنت أشُكّ في فقدان اللوحة كلمةً أو حروفًا بعد كلمة «**MAURI**»، لأنّ

المكعّبات الحجريّة الصغيرة الّتيوُضعت في الزاوية اليمنى من اللَّوحة كانت مختلفةً عن باقي الحُصيّات الأصليّة.

سألني دون أن يبعد عينَيْه عن ملامح المحارب الموريّ الجامدة المطلّة من شاشة الحاسوب.

- ما الّذي طعنه هذا الرجل؟

أجبت بشرود:

- لا أدري. المطعون موجودٌ خارج إطار اللوحة. لذا أشكّ في أنّ هذه الفسيفساء بكسراتها المرمَّمة تنتمي إلى مشهدٍ كبيرٍ يصوّر لقطةً من حربٍ أو قتال.

فقاطعني:

- ولكن لماذا تبدو الحوافّ سليمة؟ وهل قُطعتْ شوائبُ الكسور ونُحِتَت على هذه الهيئة المستطيلة لتليق بالعرض في المتحف؟

- لا أعتقد ذلك. يبدو لي أنّ شِقًّا آخر من اللوحة مفقود. وهذه القطعة المرمّمة ليست سوى قطعةٍ من تبليطِ فسيفسائيٍّ كبيرٍ يضمُّ قطعتَين أو أكثر. هذه الفسيفساء الناقصة كانت إلى جانب قطعةٍ أخرى في مثل حجمها، على الأرجح، تغطّيان أرضيّةً بأكملها.

- ولنفترض أنّها جزءٌ من تابلوه فسيفسائيٍّ كبير، فكيف قُطعتْ من الأرضيّة على هذا النحو المستطيل المتناهي الدقّة؟

فأجبتُ دونما اقتناع:

- يبدو أنّها أُنجِزتْ هكذا بشكلٍ مستقلّ.

- ولكن كيف؟ هلّا شرحت لي يا أريادنا.

- أُنظر، هذه القطعة الفسيفسائيّة تبلغ مساحتها، كما قستُها في المتحف، 140 سم على 86 سم بالضبط. أي إنّها متوسّطةالحجم وتتّخذ شكلًا مستطيلًا. القطع المتوسّطة الّتي تأخذ الكثير من الوقت، وتتطلّب الدقّة والتركيز، كان الفسيفسائيّون القدماء، كما قرأت فيكتاب فسيفساء، يصنعونها إمّا على بلاطاتٍ جصّيةٍ أو على ألواحٍ رخاميّةٍ أو على ما يشبه أطباقًا أو على قِطعٍ كبيرةٍ من الخشب مغلّفةٍ بقماش. تُرصف المكعّبات وتُلصق بغراء. وعندما تكون القطعة (اللوحة الجزئيّة)جاهزةً تُدمَج في الأرضيّة لتُشكّل مع قطعٍ أخرى متاخمةٍ لها مشهدًا واحدًا متكاملًا.

- أفهمك الآن. ولكن أين القطع المفقودة. هل نُهبت؟

- ربّما.. وربّما لم تُكتشَف بعد.

لا شكّ أن جوادًا تذَكَّرَ لحظتَها فسيفساءَ السمراء، لكنه تريّث في إخباري. قال لي لاحِقًا إنّه لَجمَ رغبةَ إخباري وإِطْلاعي عليها منذ لقائنا الأول. من جهتي، لم أكُن مستعجلةً فأطلب منه أن يصطحبني ليُطلِعَني على الفسيفساء المنتزعة من الموقع، تلك الّتي حدّثتني عنها لينا بحماس. كنتُ موقنةً أنّه سيحكي لي فيما بعد عن تلك اللوحة الفسيفسائيّة وعن سِرِّها الملحاح.

❃❃❃

لمّا عاد إلى بيته الأعزل الرابض على مرمى حجرٍ من أطلال وَلِيلي، وقف يتأمّل تابلوه الموزاييك الغريب الّذي حيّره. وقد كتم أمرَه عنّي رغم تجاذبنا أطرافَ حديث الفسيفساء المستفيض. تابلوه لم يَحْلُ له إلّا أن يحتلّ غرفة النوم. ومن النادر أن تُزيَّن غرف النوم بالموزاييك. الردهات وصالات الجلوس أَوْلَى بهذه الفسيفساء كما عوّدتنا كلاسيكيّات الرومان القدامى. ولكن أيّة نزوة زجّت بفسيفساء بديعة كهذه إلى أرضيّة غرفة نوم بيتٍ أعزل؟

أخذَ شريط قياسٍ مِتْريٍّ وشرع يقيس أبعاد اللوحة، دون احتساب الإطار المزخرف الّذي بدا جليًّا أنّه حديث الصنع. كانت أبعادها كالآتي: (140 سم على 86 سم). وهي نَفسُ قياساتِ فسيفساءِ الصورةِ الّتي أريتُه إيّاها في حاسوبي، تلك الّتي التقطتُ لها صورةً بمتحف اللوفرفي زيارتي الأخيرة إلى باريس. إنّها بنفس أبعادها! لا شكّ أنّها لوحةٌ فسيفسائيّةٌ نُهِبَتْ من الموقع المجاور، فأُدُمِجتْ في تبليطِ أرضيّةِ الغرفة وأُحيطَتْ بزخارف هندسيّةٍ بديعة.

# الفتى الموريّ

## (رواية)

## جواد الأطلسيّ

## أيدمون

أدنو منها وأحملها بين ذراعيّ. أرفعها، تمامًا مثلما فعل هاديس ببِرسفوني في الفسيفساء النّائمة تحتنا. أجمد على تلك الوضعيّة محاكيًا وقفة إله العالم السّفليّ. وسيلينا، من فرط سعادتها وشقاوتها، تنتفض بين ذراعيّ، مادّةً يدًا إلى ذَقني وباسطةً الثّانية في الهواء:

- برسيفوني اهدئي! هيّا لنركب العربة! سآخذكِ إلى العالم السّفليّ لأجعلك ملكةً على الأموات والأحياء على حدٍّ سواء.

أُنزِلها برفق. فتقف أمامي بكلّ رقّتها، بأنوثةٍ ضاجّةٍ، بدفءٍ مندلعٍ من تحت الفستان الرّقيق. ثمّ تعانقني، وتهمس في أذني:

- أرِني مملكتي يا سيّد العوالم السّفلية!

- مملكتكِ مملكة عشق. مملكتكِ الجديدة مملكة حبّ. وأنت المليكة فيها، وأنا حارسها وقلبي.

- ياه! ما أحلى كلماتكَ حبيبي! ما أعظم الإحساس الثّاوي في هذا القلب المفعم بالجمال!

ثمّ تضرب بقبضة يدها الصّغيرة على صدري وتضحك.

- ما أرقّ صوتكِ عندما تضحكين! ضحكتكِ فسيفساءُ نادرة رُصفت على أرضيّة قلبي المترع بك. دعيني أفتّش عن الحصيّات واللآلئ الّتي تليق لمحاكاة عذوبة بسمتك!

ويندلق المزيد من ضحِكها النّاعم.

- ضحكتكِ رنّة مزمار أورفي. وابتسامتكِ ومضة برقٍ تصعق قلبي المتولّه إليك.

تقف سيلينا في قلب الصّالة. فيتدفّق على نتوءات جسدها ثوبٌ أبيضُ رقيقٌ يرسم ثنيّاتٍ مَوْجِيّةً ناعمة. تخطو بقدمَين حافيتَين. وتطأ الفسيفساء بفرحٍ طفوليٍّ غامر. وتهتف دون انقطاعٍ بكلام الحبّ، فيتكرّر صدى صوتها الرقيق في الصّالة الفارغة إلّا من الفسيفساء ونحن وهوانا الّذي يملأ زوايا المكان. تمسك بطرف فستانِها، وتنثني لتجلِسَ على الأرضيّة العارية. تُميل رأسها إلى الوراء. فيسبقها شَعرُها الأشقر ليستلقيَ في دَعَةٍ على الفسيفساء، تمامًا حيث تقف عربةُ هاديس الذّهبيّةُ في انتظار أن يعتليَها جسد برسيفوني الباذخ.

وما تَلبَثُ أن تَقومَ من مكانها، وتمشي جيئةً وذهابًا فوق الفسيفساء، ثمّ تعود لتقفِزَ إلى ذِراعَيَّ:

- أريد أن أكون برسيفوني..

ها هي شقرائي محمولةً بين ذراعيّ، تتمسّك بثوبي كما لو أنّها على موعدٍ مع الغرق في غياهب العالم السّفليّ. كنت أنا أيضًا غريقًا. إذ طفقتْ

حواسّي تنفصل عن العالم المحيط بي. ولم أعد أسمع غير وقع نداءٍ رومانيٍّ متكتِّمٍ يندلع من زوايا صالة الطّعامِ العاريةِ إلّا من الفسيفساء الّتي تزيِّن أرضيّتها. كان نداءً مكتومًا يتصاعد دافئًا من قلب الفسيفساء، مطبوعًا بأنفاس سيلينا.

# أيدمون

وَفي حُلم موشومٍ رأيتُني أسيرُ في مَسربٍ يؤدّي إلى المدينة. وقفت فجأةً عندما ظهر لي الحدّاد بوكوس. لم يكن يراني من حيث كُنتُ أراه. رأيتُه منتصبًا بهيئته العملاقة عند بوّابةٍ ضخمةٍ تحت ضوءٍ فضّيٍّ خافتٍ خمّنتُ أنّه ضوء القمر. حينَها ظهرت في المشهد امرأةٌ تركض في اتّجاه البوّابة يلاحقُها سربٌ من الخفافيش. تلوذ المرأة الراكضة بالمعلّم بوكوس. يفتح لها ذراعَيه ويحتضنها. يحيط بهما السرب الكثيف فيغيبَان في السواد. يتلاشى السواد فيختفي الرجل والمرأة وسربُ الكائنات الليليّة المحلّقة. وعندما أدنو من مكان اختفائهما، أُلفي حفرةً عميقةً تسحبني إليها بقوّةٍ جبّارةٍ فأهوي في غَيَابَتِها. يحطّ جسدي على أرضٍ ناعمة. أتلفّتُ يمنةً ويسرةً دون أن أفكّر في الوقوف. ولم أعرف إن كانت لقدمَيَّ في تلك اللحظة قدرةٌ على الوقوف أم لا. تحين منّي التفاتةٌ إلى الأرضيّة. أنظر إلى ما بين ساقيّ المنفرجتَين فأرى زخرفةً تنبعث منها هالةٌ لونيّةٌ باهرة، زخرفةٌ آسرة تغطّي الأرضيّة الّتي أجلس فوقها، زخرفةٌ تحمل تشكيلةً خرافيّةً من الألوان، نقوشٌ جميلةٌ تملّيتُها فبدتْ لي مألوفةً جدًّا، وكأنّ لي عهدًا قريبًا بها، وكأنّ يديّ هما اللتان صنعتاها. كان تشكيلًا فسيفسائيًّا يسرُّ العينَ ويصدمها في آنٍ واحد. نقشٌ فسيفسائيٌّ يصوِّر امرأةً سمراء جبهتُها عريضة والذَّقنُ حادٌّ، يغطّي عنقَها وكتفَها شعرٌ أسود طويل. وبجانبها رجلان أحدهما أسمر والآخر أبيض. الأوّل يسدّد طعنةً نجلاء إلى قلب الثاني بخنجر. على وجه الرجل الأبيض ترتسم نظرة فزع، نظرةُ احتجاجٍ يائس، نظرةُ شخص يتلمّظ مرارة الخذلان، نظرة من يطرق بابَ الموت بقبضةٍ غير واثقة.

تنتزع اليدُ الخنجرَ من صدر الرجل وتشهرها في اتّجاهي، وكأنّما تصوّبها إليَّ أنا الجالس على بساط هذه الفسيفساء الّتي تعرض مشهدًا متحرِّكا نابضًا بالحياة. وعلى نحوٍ غير مفهومٍ تنتأ اليدُ الممسكة بالخنجر من الأرضيّة، كوتدٍ لفظته الأرض. أردت أن أقوم، أن أقف، أن أزحف، أن أتراجع إلى الخلف، لتفادي النّصل الّذي بدا لي ملتهبًا كالجمر. ولم أملك أدنى قدرةٍ على الحركة. كانت أطرافي مشلولة. النصل الملتهب يقترب في إصرار، تدفعه اليد السمراء، إلى أسفل بطني، إلى منطقة ذُكورتي! وفي تلك اللحظة استيقظت.

لأوّل مرّةٍ أجدني في فراشي مبلّلًا بالعرق من رأسي حتّى أخمص قدميّ. كان الوقت فجرًا وقد تناهت إليَّ أصوات ديكةٍ وهي تتنافس في إعلان قدوم الصّباح. أيّ حلمٍ صفيقٍ هذا الّذي يسرق منّي الصّحوَ والنوم معًا فجرًا؟ أفقت، كأنّي لم أفق. وبقيت أسيرَ الحلم. وجدتُ راحة يدي تشدّ على أسفل بطني. بسطتها أمامي على ضوء قنديلٍ أشعلته حالَ استيقاظي، فوجدتها ترتعد وكأنّ جزءًا من وعيي المشتّت كان يتوقّع أن يجد بها دمًا. يدي ترتجف كما لو لمستُ جرحًا غائرا ببطني. جسستُ أسفل بطني. تفحّصت كفّي بحثًا فيها عن تلك النقوش الّتي تركتُها موشومةً في أرضيّة الحلم. الرجفة سكنتْ جسدي بالكامل وتفصّد منه العرق. وغزا أطرافي كلَّها خَدَرٌ. طفق ذهني يجترّ تفاصيل الحلم، من لحظة استنجاد المرأة بالحدّاد إلى لحظة سقوطي أسيرَ الأرضيّة المزخرفة الّتي طلع لي منها نصْلُ الخنجر القاتل. إلهي ما هذا الّذي فعله بي هذا الحلم؟ ما هذا الرعب المَشُوب بخدرٍ يلتهم فيَّ الأوصال حتّى بعد مغادرتي بحرَ الحلم ورُسُوِّي على يابسة اليقظة؟ خرجت من الكوخ متمايلًا أرمي الخطو كتمثال. كانت غلالة الظلمة في الخارج قد بدأت في الانحسار والصُّبح يطلّ بعيون خجولة. دخلت إلى العُشّة

القائمة جوار الكوخ. أشعلت نارَ الموقد. سخّنت بُرْمَةً فخّاريّة من الماء على الأثافيّ، ودلقتها كاملةً على جسدي. نشّفت أطرافي بخرقةٍ سميكة. وعندئذٍ فحسْب تخلّصت من رعشة الحلم.

لقد تحرّيت عن مشهد الحلم الرهيب في كلّ الفسيفساءات الّتي صادفتها، في كلّ النقوش الّتي طالعتني، وفي رقوق الأرملة الرومانيّة. تحرّيتُ عنها في ذاكرة فلافيوس صانع الفسيفساء عندما ألححتُ عليه في السؤال. ولم أصادف منها شيئًا سوى الهباء. وعندما أعياني البحث، ملأتْني قناعةٌ بأنّ هذه الفسيفساء لا توجد إلّا في رأسي الّذي حلم بها ليلتها. غمرني يقينٌ ملتبسٌ بأنّ تلك الفسيفساء لم تصنعها يدا إنسان. والآن، وقد غدوتُ حِرفيًّا يمتهن رصفَ الحُصيّات، أقول لفسيفساء الحلم تلك:

أيّتها الجميلة المنفلتة من عِقال الوجود، إنّك منذورةٌ ليدين كي تُحيلَاك واقعًا، هما يداي.

# أيدمون

سوف يتحقّق حلم فلافيوس. فقد رُخّصَ له في إنشاء ورشةٍ صغيرةٍ للفسيفساء بالحيّ الجنوبيّ. كانت في الحيّ نفسه ورشةٌ كبيرةٌ يملكها حرفيٌّ رومانيٌّ عجوزٌ يشغِّل معه فتَيَيْنِ ذاع صيتهما في صنع نماذجَ جيّدةٍ في فنّ الفسيفساء.

كثُر الطّلب على ورشتنا. وأخذ العمل فيها يزدهر أكثر فأكثر. إذ بعْد نحوِ قرنَين من دخول الرّومان وَلِيلي، ومع تزايد حركة العمران، انتشرت الفسيفساء الرّومانيّة في كلّ أرجاء المدينة، وغدت صيحةً وموضةً لا بدّ من الاهتداء إليها للحكم على ثراء الشّخص وقيمته الاجتماعيّة. فعلى الرّغم من أنّها كانت مكلفةً، عمد الوَلِيليّون إلى البحث عن حرفيّي الفسيفساء البارعين كي يزيّنوا لهم أرضيّات بيوتهم. كان الزّبائن يطلبون اللّوحات الفسيفسائيّة الأكثر جودةً وأناقة. وبالضّبط تلك الّتي من نوع «أوبوس فيرميكولاتوم» (Opus vermiculatum). وهي فسيفساء المكعّبات الصّغيرة الّتي تنقل دقّة الصّورة. كانوا يختارون هذا النّوعَ لأنّه أكثر حساسيّةً وأناقة. وكم من زبونٍ عمد إلى كشط فسيفساءِ بيته القديمة ولا سيّما تلك الّتي من نوع «أوبوس سيكتيل» (Opus sectile) وهي لم تكن تُصنع بالمكعّبات، بل هي تجميعٌ لحجارةٍ مختلفةِ الأحجام بغية تكوين أشكالٍ هندسيّةٍ متنوِّعة. ومنهم من دعانا إلى تغطية فسيفساءَ قديمةٍ بأخرى جديدةٍ مثيرةٍ للعين والذّوق. اشتغلنا أنا وفلافيوس بحماسٍ مضاعفٍ على نماذجَ بمستوًى عالٍ من الجودة. كان رهاننا أن نُعدّلوحاتٍ أنيقةً متنوّعةً تجذب العين لعرضها على الزّبائن الّذين يزورون ورشتنا، ومن ثمّ تكون لهم خيارات أخذ ما يصلح

لأرضيّات صالاتهم وحمّاماتهم. كما اشتغلنا على تهيئة تابلوهاتٍ دقيقةٍ جاهزةٍ لدمجها في الأرضيّات. أعددنا تابلوهاتٍ من مختلف الأحجام على ألواح الخشب وبلاطات الجصّ وألواح الرّخام. وعلّقنا بعضها على جدران الورشة نماذجَ وعيِّنات.

كنّا نرسم التّخطيط الهندسيّ على هذه الألواح مباشرةً أو نغلّفها بأقمشة الكتّان البيضاء فنرسم على القماشة، ثمّ نثبّت المكعبّات على الرّسمة باستعمال غراءٍ لاصقٍ، وعندما تكتمل اللّوحة الفسيفسائيّة الّتي يطلبها الزبون، نرافقه إلى بيته لتثبيتها. نرفعها، نقلبها على طبقةٍ تحضيريّةٍ من ملاط الجصّ، نزيل القماشة، ونصبّ على اللّوحة خليطًا متماسكًا من الجير لملء الفواصل والفراغات بين القطع، ثمّ ننظّف سطح اللّوحة من بقايا الخليط. بعد ذلك نحيط اللّوحةَ بإطار الزّخارف الفسيفسائيّة الّتي تكون جاهزةً مُسبقًا على بلاطاتٍ من الجصّ. نركّب البلاطات بدقّةٍ بحيث تتكامل الزّخارف كما لو رُصّت على لوحٍ واحد. وقد تُدمج أكثر من لوحةٍ، على الطّريقة نفسها، في أرضيّةٍ واحدةٍ، فيكمّل بَعضُها بعضًا، وتشكّل مشهدًا واحدًا.

أو توضع متباعدةً تفصلها زخارفُ هندسيّةٌ، كما هو شأن فسيفساء الفصول الأربعة الأكثر رواجًا، أو فسيفساءات الكائنات البحريّة في أرضيّات الحمّامات.

وما إن علا كعبي في مراودة الحُصيّات، واشتدّ عودي في الإمساك بالزّمام العنيد لحرفة الفسيفساء، حتّى ركبني الطموح الآسر وصرتُ أتطلّع إلى مزيدٍ من النّجاح والنّبوغ في حرفة المكعّبات. فبتّ أرنو إلى الإتيان بصنيعٍ لم يهتدِ إليه حرفيّو وَليلي بمن فيهم معلّمي فلافيوس ذاته.

كنت أراهن على انتقاء مواضيعَ فريدةٍ لفسيفساءاتي القادمة. كان هناك منافسان شرسان في الورشة المجاورة. وجدتني أتجاوزهما، أحلّق دونهما في سماءٍ فسيفسائيّةٍ فريدة السُّطوع، سماءٍ فسيفسائيّةٍ لا تحدّها سقوفٌ، تاركًا إيّاهما يتخبّطان في فسيفساءاتٍ مقلّدةٍ فارغةٍ من روح الابتكار. فقد ظلّا يكرّران مشاهد الطّبيعة والصّيد، ومناظرَ مستوحاةً من الأساطير الشّهيرة الّتي وثّقها فنّانو التّصوير الحائطيّ أو نحتها نحّاتون إغريق ورومان.

وكم أمضيت اللّيالي في البحث وتصفّح كُتب الأساطير الإغريقيّة والرّومانيّة كي أستوحي منها مشاهدَ مثيرةً وحيّةً لأُسكِنَها أرضيّات بيوت أثرياء المدينة وقصورهم. أعطتني سيلينا نسخةً قديمةً من الإلياذة قرأتُ فيها ملحمة طروادة، وأُعجِبتُ بأخيل وهيلين والحصان الخشبيّ، فرسمت نقشًا لهما ونقشًا للحصان، ثمّ حوّلت النّقشين فيما بعد إلى لوحةٍ فسيفسائيّةٍ على بلاطةٍ جصّيّة. اطّلعت أيضًا على تراجيديّاتٍ لأسخيلوس وسوفوكليس فاستوحيتُ ممّا قرأتُ مشهدًا لأوديب مع ابنته أنتيجون. علاوةً على أنّني صوّرتُ مشهدًا للموزيّات ينثُرنَ وردَ الحُبِّ بآلاتِهنّ الموسيقيّة، وأرفقتُ المشهَد بأبياتٍ لصافو. وكنت أحرص على أن أُرفق كلّ مشهدٍ بجملةٍ تعبّر عنه. ثمّ إنّ سيلينا عيّنتْ لي أساطيرَ وقصصًا إغريقيّةً ورومانيّةً لأقرأها وأحيطَ بها قبل أن أستلهمَها في الفسيفساء كي أقنع الزّبون بالمشهد والقصّة الّتي ينطوي عليها معًا.

وجاء اليوم الّذي زار فيه الورشةَ مَلّاكٌ موريٌّ يسكن الحيّ الغربيّ. راقه أن حدّثتُه بالأمازيغيّة. كان اسمه سبالوس. مُنِح المواطَنةَ الرّومانيّة وأُعفي من أداء الضّرائب بعد أن صاهر أسرةً رومانيّةً عريقة. عاش مع

زوجته في بيتٍ ابتناه بالحيّ الغربيّ. ورغم المكاسب الّتي حظي بها لم يكن راضيًا على وضعه بوصفه مَلّاكًا موريًّا صودِر جزءٌ كبيرٌ من أراضيه الخصبة الّتي ورثها عن جدّه، وكان سيُجرَّد من كلّ أراضيه وتُفرض عليه السّخرة والضّرائب لو لم يتزوّج جوليا. غير أنّه على إثر مخاضٍ عسيرٍ سوف تموت جوليا وفي بطنها جنينٌ عالقٌ لم يُكتب له أن يرى النّور. وبعد أشهر قليلةٍ سيتزوّج امرأةً موريّةً أنسَتْه جوليا الشّقراء. منذ ليلة دخوله بـ«تالة»، غمرت البيت الفخم روحٌ جديدة. سعادةٌ حقيقيّةٌ تلك الّتي أحسّها سبّالوس تملأ أرجاء حجرات البيت. سعادةٌ لها طعمٌ قديمٌ يذكّره بالطّفولة البعيدة وبمذاق الثّمار الّتي لم يقطفها من ضِياعِه المُصادَرة. سعادةٌ لها طعم انتصارٍ رمزيٍّ على الرّومان الّذين اختاروا له حياةً لم يكن يريدها. اختاروا له زوجةً لم يكن ليختارها لولا الرّغبة في البقاء على قيد التّرف الّذي ورثه من جدّه شيخ قبيلةٍ عريقةٍ من قبائل المور.

هكذا كان يحكي لي سبّالوس وأنا في بيتِه الفخم أتهيّأ لأعدَّ تابلوه الفسيفساء على ثلاثة بلاطاتٍ جصّيّةٍ كبيرةٍ أتيتُ بها من الورشة. كان رجلًا مسنًّا، ولكنّ على وجهه سيماء رجلٍ امتلأ بالحياة وعاشها حتّى القلب. وأضاف:

- أُكرِهتُ على الزواج من جوليا يا ابن أهلي. مع توالي اللّيالي أَلِفتُها وألِفتْني إلى أن ماتت. تخيّل معي يا ابن أهلي فيْضَ السّعادة الّتي هجمت، كنسماتٍ عليلةٍ، على حياتي عندما حلّت ببيتي امرأةٌ موريّة. كانت لسعادتي يومذاك رائحةٌ عبقةٌ فريدة. هي مزيج من رائحة زهر البراري وشذى العشب المندّى في صباحات الرّبيع، رائحةِ طراوة تربةٍ بَلِيلةٍ، رائحةٍ تملأ صحن الدّور السّفليّ وتصعد متدفّقةً، محلِّقةً، لتغمر

غرفَ الطّابق، ومن هذه الغرف تَنْسَرِب نحو النّوافذ الزّجاجيّة، ومنها تقفز في الهواء، منتشيةً في عبقها الفرحان، معلنةً لساكنة وَلِيلي أنّ في هذا البيت رجلًا انبعثت في جوانحه بهجةُ روحِه الموريّة.

لقد أدرك سبّالوس أنّ الرّومان سرقوا منه بهجة الأرض ولذاذة القِطاف في الصّيف على إيقاع مواويل الفلّاحين الأمازيغ المجبولين على الفرح. الرّومان سلبوه زغرودةً لا تُتقنُ دَلْقَها سوى حناجر بنات المور الحرائر. لذلك حنق كثيرًا على الرّومان. أضاف:

- وها أنا اليوم أطالبكَ بأن تُوطِّن هذه السعادةَ على أرضيّة غرفة الجلوس، أو تُسْكِنَها حنَقي على الرّومان أو تصوِّرَ انتصاري الرّمزيّ عليهم. أريد شيئًا من هذا القبيل.

وهنا نطّت الفسيفساء الرّهيبة إلى مخيِّلتي، فسيفساء الحلم، المشهد الآسر الّذي ظلّ يناديني باستمرارٍ، يدعوني لأُخرجه إلى الوجود، لأصنعه بيديّ. سبّالوس يطالبني بأن أُسكِن ذاكرتَه الجريحةَ مع الرّومان في أحبّ غُرفِ بيته إلى قلبه وإلى قلب زوجته الودود. تالةُ عذبة الابتسامة. آه! ما ألطفها وما أرقّ قلبها وهي تستقبلني كلّ صباحٍ: تسحبني من يدي إلى صالة الطّعام، أتظاهر بالشِّبَع، لكنّها تسكتني بقولها:

- لا أريد أن تأتي شبعانَ إلى بيتنا يا ولدي. فوجبة الإفطار تنتظركَ كلّ صباح.

المائدة المستطيلة في زاوية صالة الطّعام ممتلئةٌ بما لذّ وطاب: خبزٍ مملّحٍ وحليبٍ ونبيذٍ، وتينٍ مجفّفٍ وتمرٍ وصحافٍ صغيرةٍ فيها بيضٌ مسلوقٌ وجبنٌ وعسل النّحل. أجلس على الأريكة الوثيرة. ألتهم قطعتين

من الجبن. آخذُ الخبز المملّح، أغمسه في العسل. ألتهم اللقمات بنهمٍ مصغيًا إلى وقْع ذوبانها اللّذيذ داخل فمي. أقضم بيضتَين تباعًا. أشرب قدحًا من لبن الغنم المغلّى. وأقوم إلى عملي بنشاطٍ عارم.

غرفة الجلوس تقع على يمين مدخل البيت. في بابها دفّتان خشبيّتان مفتوحتان على الباحة (الأتريوم) المحاطة بالغرف، تلك الباحة الّتي يتوسّطها حوضُ ماءٍ يعلوه سقفٌ مفتوح. قبل أن أُحضر البلاطات الجصّيّة، كنتُ قد أخذت مقاسات غرفة الجلوس. وحدّدت المساحة الّتي ستشغلها اللّوحة المركزيّة. استخرجت من عَيْبَتِي رسمةَ الرَّقّ، وعرضتها على صاحب البيت. وافق عليها سبّالوس قبل أن أشرح له أنّ هذا الّذي يطعن الآخرَ محاربٌ موريّ، وذاك المطعون قائدٌ أو مُفَوّض رومانيٌّ، والمرأة أَمَةٌ موريّةٌ استعبدها الرّومان. ولم أقل شيئًا آخر. لم أقل كلامًا آخر ظلّ عالقًا في مكانٍ قصيٍّ من مخيّلتي المولعة بالتّنبّؤ المريب.

وعدت إلى الورشة. هيّأت ثلاثة بلاطاتٍ جصّيّةٍ كبيرة. كلّ واحدٍ منها بطول ذراعَين ونصف، وبعرض أقلّ من ذراعَين. وضعتها جنبًا إلى جنبٍ على منضدة العمل. ومكثتُ في الورشة مدّة ثلاثة أيّامٍ أخطّط عليها الرّسم. وضعتُ أمامي الرَّقّ الّذي رسمتُ عليه مشهدَ ذلك الحلم، وانطلقتُ أنقل، بقلم الفحم الرّقيق، تفاصيله الهندسيّة محدّدًا مواقعَ المكعّبات بدقّةٍ، وبالخصوص في المواضع الّتي تتطلّب أحجامًا صغيرة. أنهيتُ تخطيط الفسيفساء الهندسيّ، ونقلتُ البلاطات إلى بيت سبّالوس وشرعتُ في رصف المكعّبات.

# سيلينا

طلب الموريّ المدعوّ سبّالوس من أيدمون أن يصوِّر له، بِلغةِ المكعّبات، مشهدَ انتصاره الرّمزيّ على ظُلم الرّومان. فقَرّ اختياره على مشهد موريٍّ يطعن قائدًا رومانيًّا يلبس التّوجا. أراني الرّسمة الّتي نقشها على الرَّقّ قبل أن يضع لها التّخطيط الهندسيّ على تبليطات الجبس، فذكّرتني بالنّقوش الّتي كان يبعثها إليّ في رسائلنا الأولى.

كان بإمكانه أن يشتغل في الورشة فيجهِّز أجزاء اللّوحة هناك قبل أن يذهب بها جاهزةً لتثبيتها على الأرضيّة. لكنّ جوّ بيت ذاك الموريّ المدعوّ سبّالوس كان مريحًا له، كما قال لي، أحسن بكثيرٍ من فضاء الورشة الضّيّق.

صار في الورشة عاملٌ مساعِدٌ بإمكان المعلّم فلافيوس التّعويل عليه. لكن أيدمون عبّر لي، ونحن نلتقي بمرج وادي خمان، عن عدم ارتياحه لكلاوديوس منذ اليوم الّذي وقف فيه أمام الورشة يستجدي فلافيوس كي يشغِّله بعد أن طُرد من الورشة المجاورة. قال إنّه تشاجر مع معلِّمه مالك الورشة العجوز المتسلّط الّذي لا يتوقّف عن سبِّه وشتمه وصفعه، وقد كان المعلّم فلافيوس حينها في أمسّ الحاجة إلى عاملٍ ماهرٍ يخفّف عليهما ضغطَ العمل أمام كثرة الطّلبات على فسيفساءاتهما المميَّزة. لذا لم يتردّد في قبوله. انبرى كلاوديوس يقلّد اللّوحات الشّائعة والمعروفة. كان عارفًا بأصول الصّنعة ومتقنًا لها أيضًا. لكنّه كان محدودَ الخيال ولا يبدع أشكالًا جديدة. فظلّ أسيرَ ما

هو مأثور. وعندما كان أيدمون ينهي لوحةً من لوحاته لم يكن ليغفل عن نظرات كلاوديوس الحاسدة إلى ما صنعته يدا حبيبي. قال لي:

- إنْ أنس فلن أنسى تلك اللّوحة الّتي اشتغلت عليها بحبٍّ أيّامًا طويلة، لوحةً استوحيتها من إنياذة فيرجل الّتي أعطيتِني نسختها الرّومانيّة.

- واو، وأيّ مشهدٍ من مغامرات إنياس استوحيتَه؟

- صوّرتُ إنياس في مواجهة العاصفة على سفينةٍ إغريقيّة. هو مشهدٌ بسيط. لكنّه كان يعني لي الكثير.

- أكمِلْ يا حبيبي!

- أمّا الفسيفساء فأنجزتها على بلاطةٍ متوسّطةٍ من الجصّ، وعلّقتها على الجدار المقابل لمدخل الورشة. وفي صباح اليوم الموالي وجدتها ساقطةً على الأرضيّة الحجريّة. كانت قد تحوّلت إلى شظايا. فغمرني إحساسٌ أشبه باليقين يقول لي إنّ كلاوديوس هو الّذي أسقطها وحطّمها.

- ولماذا يقدِم على مثل هذا العمل؟

- كان في نظراته إليّ وإلى لوحاتي كمٌّ كبيرٌ من الحسد.

لقد حاول أيدمون بعد ذلك أن يعيد الرسمَ الهندسيّ لمشهد إنياس والعاصفة، ولم يستطع.

# باخوس في العيادة

# (مذكّرات)

# نوال الهناوي

# تهامي

**الخميس 10 مارس 1994**

«عمّ سنتحدّث اليوم؟»، قال يسألني في حماسٍ بمجرّد أن دخل غرفة الجلسات وأغلق خلفه الباب.

- يُمكننا مواصلة حديث الجلسة السّابقة، أو الحديث عن شيءٍ مهمٍّ يشغل بالك.

«ما يشغل بالي الآن هو الرّواية الّتي أفكّر في كتابتها»، قال بسرعةٍ، وكأنّما كان يحضّر لحديث الكتابة وهو في طريقه إلى العيادة.

- جميل. لا شكّ أنّك أخذت بنصيحتي، ففي الكتابة بلسمٌ لا نظير له. أتدري أنّ الكتابة صارت في عصرنا علاجًا!؟ هذا واحدٌ من التّطوّرات المهمّة الّتي عرفها الطّبّ النّفسيّ في السّنين الأخيرة. ولكن تحت إشرافِ مُعالِجٍ مختَصٍّ طبعًا. أتعرف أنّ الكثير من الجنود الأمريكيّين الّذين عادوا من العراق في الحرب الأخيرة غدوا ممارسين للكتابة بوصفها جزءًا من العلاج النّفسيّ!

- رغم أنّي لست جنديًّا فالكتابة مغرية. وإن كنتُ صراحةً أشكِّكُ في فاعليّة هذا العلاج الحبريّ.

- أكّد ستيفن كينغ في إحدى مقابلاته أنّ الكتابة أسلوبٌ علاجيٌّ يتيح لك تقديم شياطينك من خلال القصّة. الكتابة تسمح لك بتقيّؤ كلّ غضبكَ وحزنكَ ويأسكَ على الورق.

صمتُّ لحظةً، فيما سألَتْ:

- هل أحرزتَ تقدّمًا في الرّواية؟

- كلّا، لا أستطيع أن أكتب.

- وما السّبب؟

- لا أعرف. أشعر بسخافة حبكاتي. يجتاحني إحساسٌ بأنّ بورتريهات شخصيّاتي مبتذلة. لم أتخلّص بعدُ من فشل روايتي الأولى الّتي أحرقتها.

- أحرقتها؟! غير معقول!

- لست أدري لماذا كنت أستمتع برؤية ألسنة اللّهب وهي تلتهم اسمي مطبوعًا على الغلاف الأخضر.

- لا شكّ أنّها مازوشيّةٌ من نوعٍ خاصّ.

- ممكنٌ جدًّا. رغم أنّي لم أجنح يومًا إلى استلذاذ تعذيب الذّات. كلّ ما كان هناك أنّ حلمي الأدبيّ حُكم عليه بالدّفن قبل أن يخطو خطواته الأولى. بحماسة المبتدئين، كتبتُ روايةً تحكي عن تحرِّياتٍ في جريمةٍ

وحشيّةٍ غامضةٍ راح ضحيّتَها طفل. ولم يكن الجاني سوى أبيه النحّاتِ. وقد دفعتْه إلى ذلك رغبتُه في الزواج من عشيقتِه الرّسّامةِ الّتي لا تستسيغ فكرةَ أن يكون لزوجها المستقبليّ أولادٌ من امرأةٍ أخرى. سيكتشف المحقِّقون سرَّ الجريمة، وذلك عبْر لوحةٍ مقلَّدة كانت الرسّامة الحسناء قد رسمتْها وأهدتْها إلى النّحات في بداية عِشقهما.

النسخة المقلّدة لِلَوحَةِ «إيفانْ يَقتل ابنَه» ستقود المحقّقين إلى الأب الجاني.. واخترتُ لها عنوان: زلّة قلم أحمر. لقد كانت زلّةً على كلّ حال، زلّةَ حبرٍ فادحةً.

- غريب! تلك الرّواية كتبتَها وطبعتها قبل موت سامي!؟

- نعم. كان ذلك قبل موته بشهرين تقريبًا. كانت الرّواية شُؤمًا، نبوؤةً مقيتةً لفقدٍ فظيعٍ لم أضعه يومًا في الحسبان. ألهمتْنِي كتابتَها تلك اللوحةُ الواقعيّةُ الفظيعةُ والمذهلةُ للروسيّ إيليا ريبين صوَّرَ فيها مقتل إيفانوفيتش على يد أبيه القيْصَر. طبعت الكتاب لدى دار نشرٍ وطنيّةٍ على نفقتي. ولم يلقَ أدنى صدًى يُذكر، باستثناء خبر الإصدار وبضع قراءاتٍ وجيزةٍ نُشِرت في جريدةٍ عافها القرّاء. بعد نشر الرّواية بنحو شهرين، ألمّ بي وقتَها إحباطٌ قاهرٌ جعلني أفكّر في هَجْرِ الكتابة نهائيًّا. فقد ملأَنِي يقينٌ بأنّي لن أَجد في المستقبل ذلك الصفاءَ الضروريّ للكتابة، يقينٌ بأنّ الكاتب الّذي فِيَّ لن يرفّ له حبرٌ على ورقٍ مهما حاول. هذا الشعور المحبِط لم يكن سببَ إحراق روايتي. وخيبةُ تجربة الحبر الأولى لم تكن قطّ دافعًا إلى ترميد الرواية. فبعد وقتٍ قصير من نشر رواية الشؤم تلك، تدخّلتْ المصادفات بتعسّفٍ مُجحِفٍ وأضافت إلى «زلّة قلم أحمر» فصلًا جديدًا من التّراجيديا الفظيعة، فصلًا نازفًا لن ينجح النسيان في إسقاطه من ذاكرتي ما حَييتُ، فصلًا واقعيًّا هذه

المرّة، هو موت ابني سامي. وذلك ما جعلني أنظر إلى الرّواية الفاشلة، الّتي حكيت فيها عن موتِ طفلٍ، باعتباره شؤمًا مسطورًا، ونحسًا يجرّ ذنَبه الطّويل ليطوِّق سعادتي.

فأحرقتُ أكثر من مائتي نسخة. كنت قد طبعت أربعمائة. طفقت أجمعها من المكتبات وأحرقها كمجنون.

أطلق تنهيدةً واستقام جالسًا على الأريكة. وضع قدما على قدمٍ، وأكمل:

- لقد ندمت على كتابتها وطبعها، فأحرقتُ نُسخها بيدي. تلاها فقْدُ سامي الموجع. وبعدَه سيأتي فراقي لزوجتي بوصفه هزيمةً أخرى قاسيةً تُضاف إلى سلسلة الهزائم الّتي استطابتْ جلوسها الماكر على دكّة حياتي. وكأنّ الحياة لم تخرجني إلى رحاب مسرحها إلّا لتجرّب عليّ ألوانَ تراجيديّاتها الإسخيلوسيّة. منهَكٌ أنا يا سيّدتي، منهَكٌ حتّى القلب، منهكٌ حتّى الوجَع.

وتابع كمَن جاءه الوحي فجأةً:

- ظلّت شخصيّات تلك الرّواية تطاردني في مناماتي وتوبّخني، ومنها مَن ظلّت تندب حظّها لأنّها ولدت بواسطة قلمٍ قُدِّر له أن يبقى في الظّل إلى الأبد.

- لا تيأس يا تُهامي! لا شيء يبقى في الظّلّ إلى الأبد. فمهما امتدّت الظّلال على مساحاتنا الخاصّة، تتبدّد مع أوّل تسرّبٍ للنّور.

- لا نور في نهاية النّفق يا دكتورة. لقد أخطأتُ بتوقُّفي عن الكتابة. الذّكرى الأليمة أنهكتني نفسيًّا. صارت لديّ أفكارٌ ضبابيّة. وحالما

أمسك بالورقة والقلم، أشعر بما يشبه شللًا في أصابعي، وأجد الأعذار الكثيرة لتأجيل الكتابة.

- أُكتب لكَ شيئًا سهلًا تحبّه! اكتب شِعرًا!

- لكنّي لم أكن يومًا شاعرًا.

- حسنًا، وجدتُها، اكتب المذكّرات! مثلي، أنا أيضًا أكتبها.

- هل صحيحٌ أنّك تكتبين؟ طبيبةٌ تكتب!

- ولِمَ استغربتَ؟ فقد كتبت نوال السّعداوي مذكّراتها على شكل رواية. وكتب ميخائيل بولغاكوف «مذكّرات طبيبٍ شابٍّ» أثناء ممارسته الطّبّ بأوكرانيا في نهاية الحرب العالميّة الأولى..

- «قرأتُ مذكّرات السّعداوي»، قاطعني. «إنّها مذكّراتٌ متمرّدة. بدت فيها صاحبتها ناقمةً على أنوثتها ومجتمعها الّذي ظلّ يحصي عليها أنفاسها».

- صحيح. لقد كتبتْ مذكّراتها على شكل روايةٍ حكت فيها حكيًا ذاتيًّا سيريًّا يتجاوز حدود الرّواية، لولا أنّها ابتعدت عن موضوع الطِّب النّفسيّ.

- «وأنتِ ماذا تكتبين في مذكراتك؟»، سألني مغمغِمًا بشيءٍ من الاهتمام.

وأردف:

- عن مرضاكِ؟ عنّي مثلًا؟

- هذا أمرٌ واردٌ جدًّا.

# عيّاش

**الاثنين 8 فبراير 1993**

- احكِ لي عن التّعذيب يا عيّاش!

صمت فترةً طويلةً تجاوزت دقيقتين. كان متّكئًا على الأريكة وعيناه إلى السّقف، يخلّل شعره الكثيف بأصابع يُمناه، ثمّ يُعيدُها ليُشبِكها بأصابع يُسراه الموضوعة على صدره. وكنتُ أجلس أمامه فوق الكرسيّ هادئةً أنتظره وفي يدي سِجلٌّ وقلَمٌ. وأخيرًا فتح فمَه:

- تَمّ فتْح تحقيقٍ أوّلًا مع المرشدين السياحيين بحكم العلاقات الّتي ينسجونها مع الزّوّار، ثمّ جاء دور الحرّاس وعمّال الموقع. اقتحم رجال الدّرك بيتي ليلًا بشكلٍ وحشيٍّ، اعتقلوني. أخذوني، أنا وكلّ عمّال الموقع القاطنين بفرطاسة، إلى مخفر الدّرك بمكناس. بينما اقتيد رِجالٌ آخرون إلى مخفرٍ ببلدة زرهون المجاورة. وهناك، في مركز الدّرك الملكيّ بمكناس، بدأت حفلة التّعذيب. تفنّن الجلّادون في التّنكيل بنا أثناء التّحقيق. سحقوا ضلوعَنا سحقًا. واستعملوا أساليب فظيعةً تسبّبت في مقتل أربعةٍ منّا، وجعْل آخرين مثلي يعترفون بما لم يفعلوه. ألقَمونا الهراوة والكيس النّتِن (الشِّيفون). كانت حصص التّعذيب فظيعة. لكنّ الحصّة الأولى، كما أتذكّر تفاصيلها، تبقى الأفظع والأشدّ هولًا.

ابتلع ريقه، واستَوى جالِسا على الأريكة. ضمَّ ركبتيه. وشرَع يعبث بأصابعه. كان يُفرِدُ سبّابَتَه والإبهامَ، ويُمسِك بهما أصابعَ الكفّ الأخرى،

ثمّ ينتقل لِيفعلَ الشيء نفسَه بأصابع الكف اليسرى، وهكذا دواليك، وكأنه يحصي أشياء تتناسلُ في دماغه بلا نهاية. نبّهتُه سائلة:

- ماذا تَعدُّ بأصابعك؟

«لا شيء» ردّ بلا مبالاة، واستأنف الحكي الّذي بدأه:

- أدخلني دركيّان إلى غرفةٍ باردةٍ قليلة الإضاءة. شدّا وثاقَ يديّ وقدميّ. وهبطا بعصَوَيهما على جسدي ضربًا عنيفًا مبرِّحا كأنّهما كانا ينتظرانني هديّةً يفرغان فيها ذاك الكمّ الدّفين من الأحقاد الّتي تسكنهما. كانا يفعلان ذلك وسط خليطٍ بذيءٍ من السّباب السّاقط يلفظانه بلا هوادة. ثمّ دخل دركيٌّ ثالثٌ بدا أعلى رتبةً منهما. جلس على كرسيٍّ، وشرع يطرح عليّ مجموعةً من الأسئلة بدمٍ باردٍ جدًّا. كنت ما أزال مقيّدًا ومقرفصًا عندما أخذ الدّركيّ آلةً سوداء بحجم مصباحٍ يدويٍّ، ربطها بموصل الكهرباء، ووضعها على قفاي، فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أنطرح أرضًا. فهِمتُ حينها أنّني تعرّضت لصعقةٍ كهربائيّةٍ قويّة. تلقّيتُ صعقاتٍ أخرى في أنحاء مختلفةٍ من جسدي، أفظعها صعقتان استهدفتا عضوي الذّكريّ. ظلّ جسدي يتمزّق في إثر كلّ صعقةٍ، وكلّ خليّةٍ بداخلي تنسف، وعقلي يشلّ، والحياة تنسحب من رئتيّ لِثوانٍ قبل أن تعود إليها مترنِّحةً. بينما شرع قلبي في خبطٍ قويٍّ كأنّه يُهدّد بسكتةٍ مفاجئة. استمرّ التّعذيب بالهراوة والكهرباء أيّامًا ثلاثةً عِشتُها كما لو كنت أقطن كابوسًا مُريعًا. وفي اليوم الرّابع «اعترفتُ». كانت اعترافاتٍ كاذبةً انتزعوها منّي انتزاعًا. كان هاجسي لحظتها الخلاص من ذاك الجحيم المريع.

# تهامي

**الخميس 28 أبريل 1994**

أوصلتني سيارة الأجرة في وقتٍ متأخر من الليل، إلى بيتي الكائنِ بحيّ ويسلان. وجدتُ الفيلّا غارقةً في صمتِها. زوجي غيّبَه العمل بفاس، ولم أره منذ أسبوعٍ تقريبًا. أخذتُ دُشًّا، وارتديتُ بيجامة جديدة. تناولت عشائي في المطبخ، واتّجهت إلى غرفة المكتب. ألقمتُ جهاز الرّاديو كاسيت شريطًا يحمل تسجيلًا صوتيًا لمقابلتي الأخيرة مع تهامي، فخرج صوتُه من الجهاز هادئًا:

- أنا ما عرفتُ قبل زهرة الفرحَ، ولا عرفتُه، بتلك الألوان القزحيّة، بعدها. لم أعرف الفرح الطّازج قبل زواجنا، ولا خَبِرتُه بعد تلك الأعوام الثّلاثة الّتي رتعنا في جنانها. في العام الثّاني انضمّ سامي إلى فرحنا فتضاعف. أكذب عليكِ إن قلتُ إنّي لم أعرف البهجة والشّغف مع امرأةٍ قبل زهرة. فقد عرفت كثيراتٍ، غير أنّ واحدةً منهنّ ظلّت الفُضلى والأكثر إغراءً. كانت أمريكيّة. ولم أنسها حتّى بعد زواجي بزهرة. اسمها لينا. كانت المالكة الجديدة للبيت الّذي استأجرتُه منذ تعييني الأوّل بفرطاسة. عندما اشترَتِ البيت أرغِمتُ على إخلائه لألوذَ ببيتٍ متواضعٍ قرب المدرسة. ولم تمضِ سوى ثلاثةِ أشهرٍ على سكَنِ الأمريكيّة وزوجِها بالبيت حتّى ترمّلتْ. وبينما كنتُ أتجوّل في أزقّة حيّ الهديم بمكناس ذات صيفٍ قائضٍ، لمحتُها بالمصادفة في زقاقٍ ضيّقٍ منحنيةً على سقّاية الماء تملأ كوبًا فخّاريًّا. وقفتُ إلى جنبها كما لو كنت أنتظر دوري لأشرب. مدّت إليّ الكوب بعد نظرةٍ قصيرةٍ ألقتها على

هيئتي. لم تتذكّرني، فقد سبق أن استقبلتُها هي وزوجها يوم جاءا لاستكشاف عشِّهما المستقبليّ رفقة صاحب البيت. كان ذلك في ربيع 1990. شكرتها بالإنجليزيّة فابتسمت ابتسامةً وديعة. ونقلت عينيها لتشردا في تأمّل الفسيفساء الّتي تزخرف السّقاية. راحت تتملّاها بإعجابٍ لافتٍ وتمرّر أصابعها على سطحها النّاعم. وجدتُ لحظتها الفرصة المواتية للحديث إليها.

قلت لها إنّكِ أمام فسيفساء مغربيّةٍ قِطعُها مصنوعةٌ من الطّين. فاستغربتْ.

شرحتُ لها مراحل تصنيعها بدءًا من انتقاء نوعيّة الصّلصال، مرورًا بعجْنه، وتجْفيفه وحرقه في الأفران، ثمّ صبْغه، وإعادته إلى الأفران مجدّدًا، وصولًا إلى تقطيعه بدقّةٍ متناهيةٍ على شكل مثلّثاتٍ صغيرةٍ أو مربّعاتٍ أو سُداسيّاتٍ تُصفّف على قوالب لتشكيل تُحفٍ فنّيّةٍ تزيَّنُ بها الجدرانُ والأحواض والنّافورات. ثمّ تجاذبْنا أطراف الحديث عن الفسيفساء المغربيّة وقارنّاها بالفسيفساء الرّومانيّة القديمة. وعندما ذكرتُ لها أمرَ البيت فغرت فاها من الدّهشة، وعاتبتني لأنّني لم أخبرها بمن أكون منذ البدء.

حدّثتني عن نشأتِها بِبُوسطن ونحن نتمشّى في الأزقّة حتّى دلفنا إلى السّاحة. لمّا وقفنا عند عتبة باب منصور العلج التّاريخيّ تملّتْ بُرجَيْه وأعمدته الرّخاميّة بانبهار. ثمّ راقبتْ وفدًا من السّيّاح ينزل من الحافلة يقتاده مرشدٌ مغربيٌّ، وشرعتْ تحدّثني بحزنٍ عن زوجها الزّرهونيّ، الدّليل السّياحيّ الّذي فتَنَها.

حكتْ لينا عن صالح وقالت إنّ زملاءها عادوا إلى أمريكا وبقيت هي إلى جانب «دليل قلبها» لتنعم برفقته ودفئه. إذ شُغِفت به حدّ الولَه. فقرّرا الزّواج بعد شهرين فقط من تعارفهما. أخبر صالح لينا بوجود بيتٍ قرب الموقع الأثريّ، بيتٍ عتيقٍ متين البناء، في إحدى غرفه تنام فسيفساء رومانيّةٌ رائعة. ولأنّ البيتَ كان مُستأجرًا ومسكونًا، فما كان منها إلّا السّعي الحثيث لشرائه، ولمّا رفض صاحبه عرضت الأمريكيّة مبلغًا كبيرًا فباعها إيّاه. لم يقيما في البيت سوى ثلاثة أشهرٍ، قبل أن يغيب صالح في جوف مغارةٍ إلى الأبد. كان قد رافق بعثةً أركيولوجيّةً إلى قصر «البرطقّيز»، كما يسمّيه الزرهونيّون نسبة إلى بُناته البرتغاليّين، ذلك الّذي تقع أطلاله في عمق الغابة على كتف جبل زرهون. نزل صالح إلى مغارةٍ مجاورةٍ للقصر الأعزل فغاب في ظلامها، ولم يصعد من جوفها حتّى الآن. وبموت زوجها، انقطع الخيط الّذي كان يربطها بالمغرب. لذا كانت تنوي مغادرته قريبًا، لولا لقائي الّذي أخّر رحيلها بضعةَ أسابيع.

ساد صمتٌ طويل. ففحصتُ جهاز الرّاديو كاسيت. كان الشّريط لا يزال يواصل دورانه. فانبعث صوت تهامي من جديدٍ:

- بدأنا نلتقي يوميًّا، بحكم أن المدرسة الّتي أعمل بها لم تكن بعيدةً عن بيتِها العتيق. كنت حينها أسكن وسط قريةِ فرطاسة. فكانت تدعوني إلى بيتها. حدّثتها عن محاولاتي في الكتابة وحُلمِي بأن أصبح كاتِبًا مُجيدًا فأُصدِرَ روايةً ناجحةً خالدة. اندلعت بيننا صداقةٌ شفيفةٌ وحميمةٌ قبل أن تصير، بعد أسبوعٍ، رغبةً متّقدةً طوّحتْ بنا إلى السّرير. اغترفنا لياليَ طوالًا من اللّذّة، وكرعنا الكثير من النّبيذ المكناسيّ المعتّق احتفاءً بلقب باخوس الّذي أطلقَته عليّ. كانت أوّل من أطلق عليَّ اسم باخوس قبل

أن يصير لقبي الرّسميّ بين زملاء العمل. ولأنّ صداقتنا انبنت على الصّراحة، فقد حكيت لها عن زهرة وما كان بيننا من حبٍّ، فما كان منها إلّا أن نصحتني بتزوُّجِها. وما زلت أتذكّر نصيحتها:

- لا تخسر امرأةً تحبّك يا تهامي!

أعدّت لينا حقائبها، ورافقتُها إلى مطار الرّباط. وقبل أن تغادر ضمّتني إليها بقوّة. لحظتها بالذّات شعرتُ بأنّها تُعانِقُ فيَّ صالِحًا زوجَها الرّاحل. وترقرقتْ في عينيها دمعتان. أمسكتْ بكفّي اليُسرى ودسّت فيها مفاتيح بيتها. وأوصتْني أن أعتني به وأسقي أصص الحوش، وأنقل إليها عبر الهاتف أو الرّسائل أخبار التّينات وشجيرات البرتقال والزّيتون الّتي غرسها صالح في محيط البيت. واقترحَتْ أن أسكنه مع عروسي القادمة. بل ألحّت في ذلك. وأضافت وصيّتها الأخيرة: «وإذا رحلتَ منه، فلتُؤَجِّره يا تهامي. فقط لا تتركه خاويًا!». تزوّجتُ زهرةَ في صيف ١٩٩٠. وأمضينا شهر العسل بطنجة. عدت بعدها إلى العمل بمعنويّاتٍ مرتفعة. وخضتُ امتحان الإدارة التّربويّة. في إثرها، خضعت لتكوينٍ مدّته سنتان بمكناس، خلالهما جاء سامي إلى الحياة. طلبتُ تعييني بالمدرسة الّتي كنتُ أعمل بها، فحصلتُ على التعيين بعد تدخّل النّائب الإقليميّ شخصيًّا. إنّ الفضل في نجاحي يرجع إلى زهرة.

ران صمتٌ في الشّريط دام ثوانيَ، لينبعث صوت تهامي متهدِّجًا:

- ها أنا أعود إلى زهرة، سبب نجاحي. كانت سيّدة الفرح الّذي حلّ بحياتي. لكنّي لم أعرف أنّ هذا الفرح مجرّد ضيفٍ خاطِف، ضيفٍ لن يمكث سوى ثلاث سنوات تقريبًا، ليرحل بعدها رحيلًا مُجحِفًا. فرحٌ غالٍ كنت أراه في عينيْ زهرة يداعب امتلاءها بي ويناغي هَنائي بها. كنتُ

أرى الفرح يستيقظ في صباحاتنا، يلوّن نهاراتنا بضحكاته، لينام ليلًا، متقمّصًا تعبه الجميل قريرَ العين متوسّدًا قلبَينا. كانت زهرة جميلة. أحبّ دائمًا أن أتذكّرها وهي في أوج زينتها تتبختر في روبها اللّيليّ الزّهريّ. كانت جميلةً جدًّا أكثر ممّا يحتمل قلبي غيابها عن عينيّ ساعاتٍ معدودة.

أيّ ألمٍ ممضٍّ يولّده الآن ذاك الفرح الغائب يا ربّي؟ ألمٌ موجعٌ يشقّ صدري الّذي ثقبته السّجائر، وجعٌ يورث تعَبًا صدئًا يسكن المفاصل.

ساد صمتٌ جديد. وتوقّف دوران الشّريط. استخرجته وقلبته، ثمّ حشرته من جديدٍ في جوف المسجّلة. تكلّم تهامي:

- أخرُجُ عصرًا. أغلق باب البيت، وأسحب باب الحوش. أتجاوز الطّريق الوطنيّة. أصعد إلى جبل زرهون مخترقًا قرية فرطاسة. أمرّ بمحاذاة المدرسة. أهيم في ذلك السّفح المطلّ على سهل وَلِيلي. رياحٌ خفيفةٌ استيقظتْ وبدأتْ تمشّط أغصان شُجيرات الزّيتون الّتي تملأ المنحدر. أتوقّف بعد بضْع خطواتٍ لأنصت إلى هَمس هذه الرياح، لأُنصِتَ إلى صمت السّفح. أقف منحني الظّهر. أصل إلى أسفل الحالق الصّخريّ الشّاهق المتربّع على قمّة الجبل. تسقط عليّ أحزاني من أعلى الحالق. ألتقط حجارةً وأقذف بها إلى المنحدر. أتنفّس الهواء البارد. أمسح السّهل بنظرةٍ شاملة. تتوقّف عيناي هُنالك عند بيتي المستريح بدَعَةٍ بين أشجار الأوكاليبتوس والزيتون. أقول لنفسي:

«هنالك تركتُني رجلًا سعيدًا مع ابني وزوجتي. البيت كما هو، كما كان. لا شيء هنالك اختلف سوى أنّ الزّمان انفصل عن المكان. لقد تركتُما صدعًا غائرًا فيَّ لن تزيده اللّيالي إلّا اتّساعًا».

أستحضر الذّكرى الأليمة. أمتلئ بها حدَّ التّخمة. يمور الفَقد بداخلي كأمواسٍ حادّةٍ موجعة. يصعد الوجع ليسكن لهاتي. أصرخ ملء حنجرتي، فيتردّد صدى الصّوت في جوف الحالق الصّخريّ، وسرعان ما يتبدّد. أتطلّع أمامي، وإذا بأحد الرّعاة جَفِلًا يتفرّس في ملامحي باستغرابٍ من وراء أجمة. لقد سجّل الواقعة، ولا شكّ أنّه سيتندّر بها في فرطاسة كي تنضاف إلى سلسلة النّمائم الّتي بدأ القرويّون يروونها عن المدير الغريب الأطوار. قالوا إنّي متعب. قالوا إنّهم رأوني أركض في السّفح وأصرخ ملء جنوني. قالوا ربّما الإكثار في الشّرب هو الّذي صنع بي ما صنَع. وكرّروا قولهم الأثير «إنّ الرّجل لا يصحو من سكرٍ إلّا على سكرٍ، ويلقّبه زملاؤه المعلّمون بباخوس»، بل حتّى التّلاميذ تسرّب إليهم هذا الاسم، وصار بعضهم لا يعرف لي اسمًا سوى هذا اللّقب. وحده النّبيذ كان يخفّف عنّي وطأة الذّكرى. أسكر وأسكر حتّى أفقد شعوري بالعالم من حولي. يتقدّم اللّيل فيحملني في دوّامته. يسبح رأسي في سماءٍ رماديّة. وتحلّق فوق رأسي سحبٌ قاتمةٌ. أتحامل على نفسي وأذهب إلى غرفتي. ينتهي بي المطاف إلى السّقوط أرضًا. أقوم بصعوبة. أترنّح. يضطرم جوفي. يصعد الاضطرام إلى حلقي. أهرول صوب الحمّام وأتقيّأ. أتلمّس طريقي إلى غرفة النّوم. أسقط على السّرير وأنام كيفما اتّفق لتنبري لي أفظعُ الكوابيس.

- ماذا ترى في كوابيسك؟ (بدا صوتي رقيقًا في التّسجيل، و«طفوليّا» كما وصفه تهامي عندما سمعه في ذلك البرنامج الإذاعيّ الّذي قاده إليّ).

- كوابيسُ كثيرةٌ، إلّا أنّ أحدها ظلّ موشومًا في ذاكرتي بشكلٍ غريب. لقد كانت المرّة الأولى الّتي رأيتُ فيها حلمًا بذاك الشّكل. استيقظت مذعورًا والعرق يتصبّب من وجهي وصدري. كان جسمي على طرف

السّرير، والغرفة ملتهبةً كالفرن، وحلقي جافًّا وجفناي متورّمين. لفَّ رأسي صداعٌ لا يُطاق. وقفتُ مستعينًا بوضع يدي على الجدار. سرت نحو الحمّام والتقطت قرصين من دواء «ديكلوفيناك». ابتلعتهما مع كوبين من الماء. لكنّ الألم لم يخفّ. شعرت بالدّوار. وطفقت ذاكرتي تضخّ نُسخًا من صُور الكابوس. ظلّ المشهد الفظيع نفسُه، مُصوَّرا من مختلف الزّوايا، يتدفّق في رأسي مكرورًا. لقد رأيتُني أفتح الثّلّاجة، وإذ بسامي داخِلَها. كان هناك لاهِيًا يأكل الياغورت ملطِّخًا فمه ووجنتيه. كان يأكل الياغورت باستعمال سكّين المطبخ. توقّف عن الأكل عندما رآني جامدًا أمام باب الثّلّاجة الموارب، كما لو ضبطتُه متلبِّسًا بجرمٍ صغير. مدّ إليّ علبة الياغورت وهو يبتسم، فظهر سِنًّا فكِّه السّفليّ. بدا ذانك السِّنّان كبيرَيْن أكثرَ ممّا كانًا عليه عادةً. أخذت منه العلبة، ونظرت إلى محتواها، كانت حمراءَ من الدّاخل. كانت بها دماء. وعندما نقلت عينيّ إلى سامي رأيت لطخات الياغورت في محيط فمه تتّخذ لونًا أحمر، وسنّيه البارزتين مُدَمّاتان. أفلتّ العلبة من يدي لتسقط أرضًا، وعندما هممت بإغلاق الثّلّاجة، اندفعتْ يد سامي الحاملة لسكّين المطبخ وغرستها في بطني. واستيقظت هلعًا.

لقد تأكّد لي بالملموس أن لا شكل من أشكال الحياة يكون ممكنًا عندما يقتل المرء بالخطإ ابنه البالغ من العمر سنتين. إنّها صورة سامي بوُضوحها المُذهل تقتحم جمجمتي. ما زلت أتذكّر جيّدًا صدى حركة قدميه الصّغيرتين على الأرضيّة وهما توقّعان خطواته الأولى. ذلك الخطو المتعثّر اللّذيذ. أراه عاريًا إلّا من الحفّاظة، وهو يعبر الصّالة ساحبًا دُبّه المصنوع من القماش. ولا أزال أسترجع مرح سامي، صيحاتِه المتقطّعةَ بنبرتِها المحبّبةِ، بهجتَه المُعديةَ الّتي غيّرت حياتي، وجهَه الّذي كان يشعّ رِقّةً.

يا لَحرارة تلك اللّحظات السّعيدة الّتي أتذكّرها! وكم هو موجعٌ انطفاؤها بغتةً كأنّها لم تكن!

سكتَ لحظةً، وتنهّد تنهيدةً موجوعةً قبل أن يواصل:

- بدأت نبرة صوت سامي تتلاشَى من جيوب ذاكرتي. صورته هي الأخرى بدأت تتبدّد أمام عينيّ دون أن أملك سلطةً لحجبها عن مخالب النّسيان المتحرّشة بها. بات وجهه أقلّ وضوحًا. وبتّ أعجز عن استرجاع تقاسيمه بدقّةٍ دون أن أنظر إلى صوَره المخبّأة بعنايةٍ داخل درجٍ بخزانة الثياب. أتأمّلها: صورةٌ له مبتسمًا كاشفًا عن سنّيه الأماميّتين الحديثتيْ البروز. صورتُه وهو يخطو خطواتِه الأولى. صورةٌ له في حضن أمّه وهو يلوّح لآلة التّصوير بيده الصّغيرة.. أُبقي الصّوَر أمام عينيّ حتّى تغيما ويغالبهما النّوم. أستيقظ فأجد صورةً له منحشِرةً بين ثنايا الفراش وأخرى عند أقدام السرير، فتستحوذ عليّ فكرة أنّني لم أُنجب سِوى نسخةٍ ورقيّةٍ لوجهٍ أدعوه سامي:

«تعال يا سامي. بابا جاء. تعال أهيّئ لك كوب الشّوكولاطة السّاخنة الّتي تحبّها».

لم أحبّ شيئًا في هذه الحياة بقدر ما أحببت تلك اللّحظات الّتي تقاسمناها. سامي كان نسخةً منّي. عندما أُطلُّ على صورةٍ قديمةٍ لي بالأبيض والأسود التقِطتْ لي وأنا طفلٌ، أتأكّد من أنّني كنت بالهيئة والملامح نفسها الّتي لسامي وهو ابن سنتين. كان جميلًا في ابتسامته وطلّته الصغيرة، وواعدًا بالألق وبحياةٍ ضاجّةٍ تصطخب أمام أعيُن والديه وتملؤها حبورًا. لكنّ الأقدار خذلته وخذلتنا أنا وأمّه، فحزّت عنقه بِمَدِّيَتِها المجحفة. لو مات موتًا طبيعيًّا، كأن يسقط من سطح

البيت أو تنهار عليه كومة أحجارٍ، أو تلدغه عقربٌ سائبة، لكان أهون من أن يلقى موته بسبَبي.

يصمتُ ويغوصُ في حزنه. فأبادره بنصيحتي المكرورة:

- حاول أن تتقبّل ماضيك يا تُهامي. أمامك حياةٌ أخرى تنتظرك لتعيشها خارج أسوار الماضي. حاول أن تتقبّل ما أنت عليه. سيفيدك الأمر.

# ليالي وَلِيلي

## (رواية)

## أريادنا نوِيل

## أريادنا

**الثلاثاء 26 شتنبر 1995**

في ظهيرة اليوم الموالي للقائنا الثّاني، أبلغني عمّو علي، كما ينادونه، بإنجليزيّةٍ رديئةٍ، أنّ جوادًا جاء إلى النّزل يطلبني. لبستُ كنزةً قطنيّةً وخرجتُ إليه، بعد أن سحبتُ خلفي باب غرفتي. بشّ عندما رآني. كان قاعدًا في التيراس وقد طلب برّاد شايٍ بالنّعناع، المشروب الأثير عند المغاربة. كان يضع نظّارةً طبّيّةً على أنفه، ويرتدي جاكيتًا جلديّةً سوداء. حالما جلست إلى طاولته، صبّ لي كأس شايٍ، ومدّه إليّ بطقوسيّةٍ، فتذوّقت منه رشفتَين، ووضعته على الطّاولة بينما بادرني مُجالِسي بلهجةٍ جادّةٍ:

- أريادنا .. لديّ شيءٌ مهمٌّ أودّ إخبارك به.

حرّكتُ رأسي بما يفيد الاستفهام وأنا أغلق سحّاب ياقة الكنزة، وأردف:

- اكتشفتُ فسيفساءَ شبيهةً بتلك الّتي عاينتِها في اللّوفر، أرجّح أنّها لوحةٌ فسيفسائيّةٌ مسروقةٌ من الموقع المجاور..

- لينا قالت لي إنّكَ ستقودني إلى فسيفساءَ مفقودةٍ، لذا أريتُكَ أمسِ شبيهتها في الحاسوب. وقد ارتأيْتُ ألّا أتسرّع وأطالبك بأن تدلَّني عليها، وانتظرتُ أن تبادر باقتراح إِطْلاعي عليها، أو تفتحَ معي موضوعها على الأقلّ. وها أنتَ فعلتَ.

- إنّها على أرضيّة بيتي.

- أتمزح؟

- كلّا، لست أمزح. إنّها موجودةٌ في أرضيّة غرفةٍ من غرف البيت الّذي استأجرتُه. فسيفساءُ قديمةٌ قِستُها ليلة أمسِ بشريطٍ متريٍّ، فوجدت أبعادَ لوحةِ اللّوفر الّتي أريتِنيها نفْسها:140 سم على 86 سم.

- هيّا! لنرها! لو تدري كم انتظرتُ هذه اللّحظة. دقيقةً وأعود. سآتي بآلة التّصوير.

أيّ مفاجآتٍ ملغِزةٍ تخبّئها لي هذه الأرض المفخّخة بالتّاريخ؟!

سرنا في المنحدر صوبَ البيت الأعزل المحاط بالأوكاليبتوس وأشجار التين وأجمات الزّيتون والبرتقال. لم يكن بعيدًا عن النزل. سرتُ في ردهة البيت بخطواتٍ متردّدة. ألقيت نظرةَ استحسانٍ على طراز البيت القديم، وتأمّلت الدّولاب العتيق والمكتب المصنوعَيْن من خشب الصّنوبر. وجّهني جواد إلى غرفة الفسيفساء، إلى غرفة النّوم المستطيلة حيث سريرُه الّذي لم يُرتَّب بعد.

وقفتُ مشدوهةً أمام الفسيفساء. إنّها لوحةٌ دقيقةٌ في واقعيّتها. لكنّ انطباعًا غامضًا كان ينبعث منها. وأنا أحدّق فيها، أحسستُ بأنّ طيفَ

المرأة السّمراء يتحرّك. لم أتمالك أن هتفتُ: «وااو». وصمتُّ، كما لو أنّي ابتلعتُ لساني. تقدّمتُ حتّى وطئتُ الإطار المزخرف بجزمتي البيضاء. رميتُ حقيبة الظّهر جانبًا، ثمّ انحنيتُ، وفرّجتُ قدميّ قليلًا، وقوّست ذراعي اليمنى ومددتها إلى الأمام. ضممتُ اليسرى مقرِّبةً كفّي من فمي وقد فتحته بشكلٍ مدوَّرٍ راسمةً وضعيّةَ دهشةٍ. كان جواد واقفًا في باب الغرفة ينظر إليّ معجبًا بطريقتي في محاكاة وضعيّة المرأة السّمراء. نظرتُ إليه فضحكتُ وعدتُ إلى تأمّل الفسيفساء. انكفأتُ على اللّوحة.

جثوتُ على ركبتي اليمنى، وغرقتُ في تملّي تفاصيل الأرضيّة الفسيفسائيّة كما لو كنت أعدّ حُصيّاتها، أو أحصي أنفاس السّمراء، أو أقيّم أنوثتها الطّاغية فأحسدها على ما حباها به خالقُها المبدع من محاسن تجاور الكمال.

أحضَر لي جواد شريط قياس. قستُ أبعاد اللّوحة لأتأكّد. ونطقت في استغرابٍ:

- إنّها تشبه فسيفساء المحارب الموريّ باللّوفر في كلّ شيءٍ. لقد سرقوها من الموقع وزرعوها هنا في أرضيّة هذا البيت.

- لقد نهبوا من الموقع تماثيلَ رخاميّةً للأباطرة وفرسان الرّوم، علاوةً على تماثيلَ برونزيّةٍ لبعض الآلهة كنبتون ومارس وجوبيتر وباخوس. سرقوا أيضًا أَوَاني فخّاريّةً، ونقوشًا، ومخطوطاتٍ، وأدواتٍ تدلّ على احتضان وَلِيلي لطابعٍ فلاحيٍّ قرويّ، وغيرها كثير. حتّى ألواح الفسيفساء البديعة اقتلعوها وهرّبوها. إنّه نهبٌ كبيرٌ ذاك الّذي طال الموقع، نهبٌ بدأه الفرنسيّون عندما احتلّوا البلاد، إذ نقّبوا المدينة الأثرية وحملوا

أنفَس الحفريّات المكتشفة هنا ورحلوا بها إلى متاحفهم. وما بقيَ خرّبته الأيدي المحلّيّة.

أخرجتُ من حقيبتي الصّغيرة آلة التّصوير. انتبهتُ وأنا مستغرقةٌ في التقاط صُوَرٍ للأرضيّة إلى النّقوش في أسفل التّابلوه الفسيفسائيّ. فقرأتها:

**VICERUNT**

وصحتُ بلهجةٍ لا تحتمل الجدل:

- هي حروفٌ لاتينيّةٌ في حجم حروف الفسيفساء الوَلِيليّة الّتي عاينتها باللّوفر!

وأضفتُ بحماسٍ:

- إنّ اللّوحتين المتشابهتَين تكمّلُ إحداهما الأخرى.

«لكن ماذا تعني هذه النّقيشة المكتوبة بالحصوات السّوداء؟» سأل جواد باهتمامٍ متحمّسٍ.

- الكلمة من أصلٍ لاتينيٍّ، وهي مشتقّةٌ من «**VICTORIA**» أي الانتصار. ومنها أُخذت **VICTORY** الأنجليزيّة و**VICTOIRE** الفرنسيّة.

«وإذا ضممناها إلى **MAURI** نحصلُ على **MAURI VICER-UNT** لتغدو الجملة بمعنى: الموريّ ينتصر!»، استنتج جواد.

- تمامًا.

- ولكن، انتظري لنجمع الصّورتين فنقارنهما جنبًا إلى جنب.

# أريادنا

**الاثنين 2 أكتوبر 1995**

استيقظتُ صباحًا في غرفتي بنزل «وَلِيلي» العتيق. تناولتُ الفطور الّذي أعدّته لي زوجة «عمّو علي»: قهوةً بالحليب وبيضًا مسلوقًا ورغائفَ مدهونةً بالسّمن والعسل. ملأتُ قدحًا بالقهوة ووضعتُه على الطّاولة إلى جنب جهاز الحاسوب. احتسيتُ منه جرعاتٍ متباعدة. فتحتُ معالج النّصوص وشرعتُ في الكتابة. كنتُ قد انطلقتُ في تخييل الرّواية من حالة العثور على قطعة فسيفساءَ رومانيّةٍ بمتحف اللّوفر بباريس، ومضيتُ أقتفي أثر قطعتَين أخريين مفقودتين، لأفتَح نصّ الرّواية، فيما بعد، على إملاءاتِ شخصيّاتي الّتي كانت جُلّها واقعيّة. لكنّي صيّرتُها شخصيّاتٍ ورقيّةً، وانخرطت معها في لعبة الرّواية، لعبة الحياة. هذا ما فعلتُه بجواد. انقضضتُ على حياته وشرعتُ أكتبها. لقد نصَّبتُه بطلًا لـ «ليالي وَلِيلي».

احتسيتُ جرعةً من قهوة الصّباح الّتي بردت، وبدأتُ أكتب:

***«...***

***أريادنا***

***الاثنين 2 أكتوبر 1995***

***استيقظتُ صباحًا في غرفتي بنزل «وَلِيلي» العتيق. تناولتُ الفطور الّذي أعدّته لي زوجة «عمّو علي»: قهوةً بالحليب وبيضًا مسلوقًا***

***ورغائفَ مدهونةً بالسّمن والعسل. ملأتُ قدحًا بالقهوة ووضعتُه على الطّاولة إلى جنب جهاز الحاسوب..».***

***

كان جواد قد حكى لي عن روايته الّتي انتُزِعَتْ منه مخطوطتُها بالقوّة. فكّرنا معًا بأن نحقّق في الواقعة. من أين للرّجلين بنسخة مفتاح البيت؟ قال جواد إنّ حارس المدرسة «جبيلو» هو المسؤول عن بيت الأمريكيّة. وأضاف أنّه سمع من سعاد، أمّ أيمن، أنّ تهامي مدير المدرسة، المعلِّم السّابق، كان عشيق الأمريكيّة، فتركت له مفاتيحه عندما أزمعت الرّحيل إلى بلدها. وهناك من يقول إنّ لينا كتبت البيت باسمه.

وكي نحسم في موضوع ملكيّة البيت، زار جواد عونَ السّلطة (المقدّم) المشرِف على فرطاسة. قال العون إنّ البيتَ على مِلْكِ الأمريكيّة منذ سنة 1990، اشترته من فلّاحٍ فرطاسيٍّ مهاجرٍ إلى مكناس، وسكَنتْه هي وزوجها الدّليل السّياحيّ الزرهوني مدّةً لا تتجاوز ثلاثة أشهر. وعند موت الزوج، بحثَتْ عن مُستأجِره الأوّل لتعهد إليهبالبيت، ولم يكن هذا المستأجر سوى تهامي. سيصير تُهامي صديقًا لا يفارقها في الأيّام الأخيرة الّتي سبقت رحيلها. وأضاف العون أنّ الأمريكيّة تحمل اسم لينا تومبان، وهيمن مدينة بوسطن.

عندما نطق جواد الاسمَ كاملًا، فغرتُ فمي من وقع المفاجأة. وقلت:

- كيف غاب عنّي أن أربط بين لينا الأمريكيّة مالكة البيت ولينا تومبان الّتي أرشدتني إلى وَلِيلي وأعطتني رقم هاتفك؟!

- أنا أيضًا لم أكن أعرف اسمها كاملًا قبل أن أسمعه من العون. وكنتُ أظنّ أنّكِ تعرفين عنها كلّ شيء.

- لا يا جواد. صحيحٌ أنّ الشّغف بالآثار والمتاحف جمعَنا، لكنّ معرفتي بها كانت سطحيّة ومحدودة. هي لم تقل لي إنّها تملك بيتًا جوار وَلِيلي. فكلّ ما أخبرتني به هو أنّ بالقرية المتاخمة للموقع مُدرّسًا شابًّا يعرف المكان الّذي توجد به فسيفساءُ مفقودةٌ مُنتَزَعَةٌ من الموقِع الأثريّ، فسيفساءُ شبيهةٌ بتلك الّتي أَرَيْتُهَا إيّاها على حاسوبي المحمول لمّا استرحنا بمقهى متحفِ الفنون الجميلة في بوسطن. وأضافت أنّك تتقن الإنجليزيّة. وعندما أزمعتُ المجيءَ، زوّدَتني برقمك.

صمتُّ لحظةً، وأضفتُ مؤكّدةً:

- لكنّ لينا لم تخبرني قطّ بأنّ الفسيفساء المفقودة موجودةٌ بأرضيّة البيت الّذي أنت ساكنُه.

# جواد

**السبت 7 أكتوبر 1995**

كان صوت إديث بياف يندلع من مشغِّل الأقراص بأغنيّة La vie en rose، بينما تواصل زائرتي البوسطنيّة سكْب فسيفساء حديثها. وجدتُني أركّز النّظر على أصابع أريادنا الطّويلة البيضاء الّتي تلامس أجمل فناجيني. كانت منهمكةً في استخراج حفريّات حديثهامن كتب الإغريق والرّومان القدامى.

كانت ما تزال مقيمةً بنزل «عمّو علي» الّذي أمضتْ فيه أسبوعَين فقط. يوم الأحد الماضي رافقتُها إلى منتزه «الرّميلات» القريب من جبل زرهون. ارتَدَتْ بذلةً رياضيّةً وانتعلتْ جزمةً بيضاء. كانت رشيقة الخطوات، تترك حذاءها الرّياضيّ ينهب مرتفعات زرهون بخفّة، بينما محفظةٌ جلديّةٌ تتأرجح في لامبالاةٍ على بلاطة ظهرها. وعندما تتعب من المشي، تقف عند أقرب صخرةٍ، تعتليها، تنتصب في شموخٍ متأمّلةً سُفوحَ المنتزه الغابوي، ثمّ تشرِع يديها في شكل صليبٍ مغمضةً عينيها. ألحق بها. أضع يدي على كتفها. تطوِّق خاصرتي بذراعها. ننظر بعيدًا نحو السّهل. تعود أريادنا بعينَيها وتلقيهما على ذقني، ثمّ تُتْبعهما قبلةً خفيفةً عليه. أريادنا ثلاثينيّة الجمال والقسمات، وهي وليدة بلاد الطّليان، لكنّها أمريكيّة الهوى. ولم أكن لأفوِّت فرصةَ معانقةِ ذاك الدّفء القادم من بلادٍ نائية.

في منتصف الأسبوع الأخير سافرتْ إلى الرّباط لإكمال بحوثها في الفسيفساء استعدادًا لكتابة روايتها. ومن الرّباط شدّت الرّحال إلى متحف تطوان الأثريّ. كانت تتّصل بالهاتف كلّ ليلةٍ، فنتحدّث طويلًا عن الكتابة والفسيفساء والآثار المنهوبة وأشياء أخرى، علاوة على أنّها أخبرتْني بموعد عودتها. ذهبتُ لانتظارها في محطّة سيّارات الأجرة بزرهون. وصلتْ محمّلةً بالبهجة. كانت تلبس سترة جينز زرقاء مفتوحةً على قميصٍ أبيض يفضح فاكهةَ صدرها. وقد غيّرتْ تسريحة شعرها الذّهبيّ الّذي كانت تترُكُهُ حُرًّا طليقًا على كتفيها، فصارت تشدّ بعضَه إلى الخلف بمقبضٍ تاركةً بقيّتَه مُرسَلَةً على ظهرها. تركتْ حقيبتها بالنّزل، وأتتْ إلى بيتي الأعزل مصحوبةً بحاسوبها المحمول. أطلعتُها على رواياتٍ قديمة كانتْ بالدّولاب، ثمّ هرعتُ إلى المطبخ وأعددتُ لنا قهوةً مركّزةً كما تفضّلها. شربتْ نصف فنجانها، وفي إثر ذلك أتيتها من الثّلّاجة بجعّة هاينكن الّتي تحبّها. وانغمسنا في أحاديث التّاريخ والحضارة:

- ألا تريْنَ أنّ الأسلوب الرّومانيّ نسخةٌ مطابقة للأصل من الأسلوب اليونانيّ؟

- نعم. لا أعتقد ذلك. فالأسلوب اليونانيّ في الحياة كان راقيًا. إنّه أسلوبٌ يقوم على لجم الوحوش القابعة في أعماق النّفس، لذلك أكثر اليونانيّون في الآداب مثلما أكثروا في الألعاب، فهم أوّل شعبٍ يتأدّب بجدٍّ ويلعب بنظامٍ، لأنّ غرضهم لم يكن سوى إبقاء الوحوش الغريزيّة نائمة. لكَمْ كانوا يخشون أن يستيقظ وحش الجنس، أو وحش الجشع! إنّ الأسلوب اليونانيّ هو أسلوب النّبلاء الّذين أرسوا التّقاليد الأدبيّة

والفنّيّة والرّياضيّة، أمّا الأسلوب الرّومانيّ فهو أسلوب مُحدِثي النعمة الذين مالوا إلى التّطرّف في كلّ شيء.

توقّفت عن الكلام ورفعتْ زجاجة الهاينكن إلى فمها لتجرع منها فوقعتْ عيناها على بورتريه نيرونَ المعلّقِ على الجدار المقابل لمدخل غرفة المعيشة، وقالت:

- الرّومان أطلقوا عقالَ الوحوش النّائمة في الأعماق، فقصورهم ضخمةٌ وقبورهم فخمةٌ وحروبهم مدمّرةٌ وأعمدتهم شاهقةٌ تثير الإعجاب وتنسينا ما أحدثوه من دمارٍ. فقط عندما جاء الامبراطورُ نيرون حاول أن يُعيد الصيغةَ اليونانيّةَ في الأدب والفنِّ والرياضةِ، ودعا إلى مسرحٍ يونانيٍّ وأغدق في ذلك الأموالَ بسخاءٍ. لكنّ محدِثي النّعمةِ كانوا له بالمِرصاد. فاستغلّوا غيابَه في اليونان وأحرقوا أحياءَ الفقراءِ في روما، ولمّا عاد وعرف بما جرى، قام بنفسه بإحراقِ الأحياءِ الفخمةِ لمُحدِثي النعمة.

«انعكس أسلوب الرّومان في الحياة بجلاءٍ على أدبهم»، علّقتُ محاولًا جرّها إلى الآداب.

- انعكس في بعض الملاحم والرعويّات فقط فجاءت بأسلوبٍ رومانتيكيٍّ واندفاعيٍّ كما في «إنياذة» فيرجيل و«تحوّلات» الشّاعر أوفيد. إذ كان الأدباء الرّومان يريدون حقًّا إنتاجَ أدبٍ رومانيٍّ حقيقيّ. ولكنّ أوّل مسرحيّةٍ رومانيّةٍ حُكم على صاحبها بالموت. وبعد وساطاتٍ خُفّف الإعدام إلى النّفي، فألقوا بكاتبها في صحاري إفريقيا ليموت قهرًا.

- ماذا تُراه كتبَ في هذه المسرحيّة؟

- كلّ ما في مسرحيّته سخريّةٌ من الأسرِ الثّريّة، مُحدِثي النّعمة المتبطّرين، الّذين أظهرهم بمظهرٍ مضحك. لقد خالف أحد البنود الاثني عشر الّتي تحظر على الكتّاب التّعريض، من قريبٍ أو من بعيدٍ، بالإمبراطوريّة أو القادة أو الأغنياء أو الأسر العريقة أو مؤسّسات الدّولة.

- كان ذلك إذَن درسًا بليغًا لباقي الكتّاب، ولربّما أقلعوا عن تأليف المسرحيّات وعرضها.

- لم يقلعوا، بل عمدوا إلى المسرحيّات اليونانيّة وحسْب، فاقتبسوا منها وغيّروا فيها، مع حرصهم على ألّا يظهروا على الخشبة شخصيّةً رومانيّةً أو مكانًا رومانيًّا. وفي رأيي ليس هذا أدبًا أصيلًا، حتّى إنّ وصْفه بـ«الرّومانيّ» يبقى بلا معنًى، ما دام محتواه يونانيًّا وشكله أيضًا.

أشعلتُ سيجارةً، وقدّمت إليها واحدةً أمسكتْها بسبّابتها والإبهام كمدخِّنةٍ مبتدئةٍ، وسحبت منها نفسًا. فكّرت لحظةً في ردّها، ثمّ عارضتُ تعميمها:

- ولكنْ، لم ينحُ كلُّ كتّاب روما هذا النّحو. فقد كشفتْ أعمال بلاوتوس وترنتيوس وسينيكا عن أصالةٍ وإبداعٍ حقيقيّيْن. علاوةً على أنّ تراجيديّات ثالثِهمْ نافست روائعَ إسخيلوس وسوفوكليس.

نثرتْ سحابةً باذخةً من الدّخان، وجاءتني كلماتُها من خلف دخانها وهي تنتقد الأدب الرّومانيّ بإصرارٍ:

- التّقليد، حسَب رأيي، يُبعد هؤلاء كلّ البعد عن مقارنتهم بعظماء المسرح اليونانيّ.

كنتُ في موقف المدافع عن الأدب الرّومانيّ، وما كان عليَّ إلّا أن أواصل الجدال:

- لكنّ قيمة الأدب، ومدى أصالته من عدمها، أمورٌ تتحدّد بالنّظر إلى الظّروف الّتي نتج فيها: فالأدب الرّومانيّ لم يستطع التّصدّي لتلك الصّيغة الجديدة من الحياة الّتي فرضها أولئك الّذين سمَّيتِهم محدثي النّعمة المتبطِّرين بما في ذلك رقابتهم على الكتّاب. وكلّ ما في الأمر أنّ الأدب الرّومانيّ عامّةً، والكوميديا خاصّةً، اختبآ وراء الفنّ الإغريقيّ. إذ ارتضى الكتّاب الرّومان أن يكونوا في الظّلّ ليتمكّنوا من قول ما أرادوا قوله.

ولتخفيف الجدال، نقلَتْ حديثَها إلى أساطير الإغريق، فحكت لي عن برسيفوني إلهة الرّبيع وأمّها ربّة الزّراعة: ديميتر. حدّثتني عن تمثال اختطاف هاديس لبرسيفوني الّذي نحته جان برنيني. وعندما قلت لها إنّي استلهمت هذه الأسطورة في روايتي الأخيرة نطَّتْ إلى حاسوبها الموضوع على طاولة غرفة المعيشة، وفصلت عنه الشّاحِن، ثمّ أحضرتْه إلى الأريكة لتُرِيَني صُورًا التقطتْها لهذا التّمثال في متحف بورغيزي بِرُومَا. وأنا أتأمّل التّمثال على شاشة حاسوبها الأنيق، أدنَتْ إليَّ وجهها الّذي رشّحتُه أجملَ وجهٍ في زرهون وفرطاسة، وجهَها البيضَويَّ، فقبّلتُ وجنتَها، فردّت القبلة على خدّي الأيمن. عندئذٍ اقترحتُ فكرةً مجنونةً: أن نقوم لنجسِّد تمثالَ هاديس وبرسيفوني بدقّةٍ متناهيةٍ مثلما نحتَه برنيني ونحن في بهاء عُرينا. ضحكتْ للفكرة بدءًا، ثمّ وضعت الحاسوب على الأريكة، وطفقتْ تنضو عنها ثيابها.

تركتُ أريادنا وقد استلقتْ على السّرير شبهَ عاريةٍ، وأخذتْ في استلقائها تخربش على أزرار حاسوبها المحمول وخرجتُ إلى الحوش. في الخارج

كانت تهبّ رياحٌ خفيفةٌ جعلت الأوكاليبتوسات الرّابضة قرب البيت تهسهِس. شيءٌ مّا في هذه الرياح الباردة كان يُنذر بقدوم المطر. وأنا في الحوش، لحظَةَ إشعالي سيجارةً، داهمَني بقوّةٍ شعورٌ مزعجٌ بأنّ أحدًا يراقبني. لطالما أحسستُ أنّني مراقَبٌ منذ زمنٍ طويل. لكنّ هذا الشّعور غدا طاغيًا ومهيمنًا في تلك اللّحظة. لقد أحسستُ بحضورٍ قويٍّ حولي. ولئن كنت أعرف جيّدًا أنّي وحدي في الحوش، فقد كان ثمّة ما يُشبه هيمنةً تُمارَس عليّ، تُمارسُها «ذاتٌ» مّا متربِّصةٌ بالحوش تنظر إليّ من مكانٍ مّا، ربّما من وراء ثقوب سياج الحوش القصبيّ أو من مكانٍ بعيدٍ بمنظارٍ خارق القدرات. كان هذا الإحساس صعب التّبرير، لكنّه ظلّ إحساسًا قويًّا. كانت تلك أوّل مرّةٍ شعرت فيها بأنّ أحدَهم قريبٌ منّي جدًّا، يرصدني، يتلصّص عليّ، يسرق تفاصيلي، يسجِّلُني، يرقبني بعينَين كبيرتَين تخترقان الظّلام!

# أريادنا

**الأربعاء 11 أكتوبر 1995**

أنا الآن في البيت الجديد الّذي استأجرتُه هنا بِبَلدة زرهون. فقد تركتُ نزل «وَلِيلي» العتيق بعد أسبوعَين مثمرَين من الإعداد والبحث والكتابة. كنتُ كتبتُ خلال هذين الأسبوعَين نحو عشرين صفحةً، غير أنّ النّزل لم يكن المكان المثاليّ للكتابة.

ركتُ، عند «عمّو علي»، رسالةً لجواد أخبرته فيها أنني سأبحث عن إقامةٍ جديدةٍ بدار ضيافةٍ ببلدة زرهون. وأضفتُ أنّني سوف أتّصل به على الهاتف قريبًا.

وأنا في بلدة زرهون، اتصلتُ برقم وكالةٍ سياحيّةٍ بمكناس، وطلبت مسكنًا مستقلّا بزرهون. وعلى الرّغم من أنّ هذه البلدة لا توفّر إلّا دور الضّيافة، فاجأني موظّف الوكالة بقوله إنّ ثمّة بيتًا للإيجار مجهّزًا بكلّ ما يحتاج إليه المقيم، يقع في مركز بلدة زرهون قرب الضّريح الشّهير.

يومَ أمس حللتُ هنا بِهذا البيت الزرهونيِّ المجهَّز، بيتٍ تقليديّ مكناسيّ المزاجِ، يغطّي الزّليج البلْديّ أرضيّتَه ويتسلّق جدرانَه حتّى المنتصف. ركنْتُ المكتب في زاوية غرفة النّوم الفسيحة، ورتّبت فوقه أوراقي ودفاتري.

في الصّباح شغّلت المدفأة الكهربائيّة. فقد كانت تُمطِرُ في الخارج وغدا الجوُّ على شيءٍ من البرودة. جلست إلى المكتب على كرسيٍّ مريح.

وصلتُ جهاز الحاسوب بالكهرباء، شغّلتُه، وفتحتُ معالج النّصوص، وانطلقتْ أصابعي توقّع تَكتكاتِها على لوحة المفاتيح. كتبتُ:

**«جواد**

**السبت 7 أكتوبر 1995**

**كان صوت إديث بياف يندلع من مشغِّل الأقراص بأغنية La vie en rose، بينما زائرتي البوسطنيّة تواصل سكْب فسيفساء حديثها. وجدتني أركّز النّظر على أصابع أريادنا الطّويلة البيضاء الّتي تلامس أجمل فناجيني. كانت منهمكةً في استخراج حفريّات حديثها من كتب الإغريق والرّومان القدامى..».**

وفي المساء، وبينما كنتُ أُفرغُ إحدى حقائبي لأرتِّبَ محتوياتها في الخزانة، تفقَّدتُ جيوب سترة الجينز الزرقاء الّتي لبستُها السبتَ الماضي، فوجدتُ قطعةَ ورقٍ أعطانيها جواد يومَها، وقد كتبَ عليها رقم هاتف الرجل المجهول الّذي استولى على روايته. وكانت المفاجأة عندما نقلتُ الرقم الأمريكيّ إلى مذكّرتي، وجدتُ أنه هو نفسه رقم لينا.

أيُعقل هذا؟ لينا تومبان هي الّتي كانت وراء المكالمات!؟ لقد اكتشفتُ هذا بالمصادفة من رقم هاتفها الّذي كان مكتوبا في مذكّرتي، الرقمِ الّذي استعملتُه أكثر من مرّةٍ للاتّصال بها في أمريكا!

بَقِيَ لي أن أعرف هويّة الرّجل الّذي يوجد خلف لينا. أهو رجلٌ يعيش معها في أمريكا؟ من يكون ذلك الكاتب المغربيّ المغمور؟ أيكون ذلك المُتَّصِلُ كاتبًا فاشلًا ركب على ثدييْ لينا لتعبر به إلى أمريكا، وأراد أن يكافئها بكتابٍ يحمل اسمَه فيَكون إهداء نسخته الأولى من نصيب

زورق النّجاة المسمّى لينا تومبان؟ من يكون ذلك الّذي سكَن وَلِيلي ولم يُنهِ نصّه الحُلم لأنّ الهجرة طوّحت به إلى أمريكا كما ادّعى لجواد في المكالمة الأولى؟ ماذا لو كان عشيقها هو تهامي نفسه الّذي عهدت إليه بالبيت عند رحيلها؟ فهو أيضًا كاتبٌ فاشلٌ يضع نفسه دائمًا في خانة الكُتّاب الهواة حسب تعبير جواد. ولكن، كيف سيصل صوتُه إلى جوادٍ عبْر رقمِ هاتفٍ أمريكيّ؟

المسألة سهلةٌ يا صديقي القارئ: فما دامت لينا عشيقة تهامي، ومتواطئةً معه، بالإضافة إلى أنّها تركت له البيت ليُؤَجِّره إن شاء كما لو كان مالكه، فلن تدّخر جهدًا لمساعدته. ببساطةٍ، كلّ ما ستفعله هو أن تُشْرِف على عمليّة تحويل المكالمة من بوسطن: تأخذ هاتفَين وتضمّ سمّاعة أحدِهما إلى الأخرى. بتعبيرٍ آخر، سوف تأخذ هاتفين وتُلصِقُ سمّاعة أحدهما بـ «مِيكرو» الهاتف الآخر بعد فتْحِ خطّين واحدٍ مع جواد، والثّاني مع العشيق تُهامي، ليمرّ الكلام بين الرَّجلين.

# الفتى الموريّ

## (رواية)

## جواد الأطلسيّ

## أيدمون

بُعيد الظّهيرة يحلّ موعدُ تناول وجبة الغداء. نتحلّق حول المائدة المترعة على نمط غَداء الرّومان: خبزٍ مملّحٍ وسلطةِ خضرواتٍ ولحمِ ضأنٍ وسمكٍ مجفّفٍ وجبنٍ وفاكهة. إنّها وجباتٌ فاخرةٌ تعدّها لنا الخادمة. وكانت موريّةً هي أيضًا. قالت تالة إنّ توسمانَ هي ابنتُها الّتي لم تلدها، وهي الّتي لم ترزق بمولود.

ونحن الأربعة جالسون، متحلّقين بالمائدة كأسرةٍ موريّةٍ تعيش هناءها الدّافئ وبذخها الجميل على أسلوب الرّومان، تاركين الزّمن يعبر حولنا ببطءٍ زاحفًا على هذه الأرض الّتي كانت لنا بالأمس القريب، كانت توسمان تملأ صحاف اللّحم والصّلصة، ثمّ توزّعها علينا، وتوزّع معها ابتسامتها المرسومة على خدَّين مورّدَين ينطقان صحّةً وجمالًا. وفي غداءاتٍ لاحقةٍ، بينما ألتهم الطعام، تحين منّي التفاتةٌ إليها فأجدها تلتهمني بعينَيها. لقد بدأتْ نظراتُها تتعشّق وجهي كلّما عبرتُ مجالَ رؤيتها. تنظر إلي فتبرق التماعةٌ في عمق حدقتَيها. كانت نظرتها تقول بفصاحة إنّها تريدني.

مضت بضعة أسابيعَ وتوسمان ما تزال تتعثّر في تردّدها. أخيرًا صارت تتعمّد أن تمرّ مرورًا بطيئًا وفي قدمَيها قبقابٌ يخبرني بعبورها الطّارئ أمام غرفة الجلوس حيث أشتغل. مرّ أسبوعان آخران قبل أن تَرفع رهان خطواتها الصّائتة، فانطلقتْ توزّعها بميزانٍ وعَدْلٍ محسوبَيْن على أرضيّة الباتريوم الحجريّة.

كنت أسترق نظراتٍ من الباب فأراها تختال في تونيكا رقيقةٍ تسطّر امتلاءً باذخًا يكتنزه جسدُها الفاتح السّمرة الفيّاض أنوثةً. مرّت أسابيعُ أخرى قبل أن يُطلّ عليَّ طيفُها من الباب المفتوح دومًا عليها وعلى حماقاتها المتردّدة. ظلّت تطلُّ وتسألني عمّا إذا كنتُ بِحاجةٍ إلى شيءٍ مّا لتأتيني به. أحرّك رأسي بالنّفي، فتقلّد حركتي برأسها اللّطيف، وتضحك، وأضحك، وتنصرف لتعود بعد أسابيع. تتوقّف عند العتبة، ثمّ تسبقها خطوةُ قدمها اليسرى المنتعلة شبشبًا أبيض. تحدّثني بارتباكٍ واحمرارٍ طافحٍ من خدّيها. تحكي لي عن أُسرتها الّتي هاجرتْ إلى جنوب سَالا (Sala) وراء حدود «اللّيمس» هروبًا من جحيم السّخرة والاستغلال في الأراضي الّتي كانت بالأمس في حوزتها، فاختارت الهجرة والحرّيّة. تنصرف وتعود بعد أيّامٍ لتحكي لي عنها وعن أخيها. فقد انضمّ شقيقها إلى متمرّدي «الباكاواط» الثّوّار الّذين شكّلوا اتّحادًا قبليًّا قويًّا واعتصموا بالجبل وباتوا يهاجمون الرّومان في عصاباتٍ منظّمة. أمّا هي فقد اختارت، في سنٍّ مبكّرةٍ، أن تخدم سبّالوس صديق والدها، هذا الّذي استطاع الحفاظ على جزءٍ كبيرٍ من عقاره بعد مصاهرة الرّومان.

وعندما أدركَتْ أنّ الفسيفساء على وشك الانتهاء، أتتني ظهيرةً بقدحٍ من النّبيذ. لم تكن ترتدي سوى غلالةٍ ضيِّقةٍ تفّاحيّة اللّون وشبشبٍ أنيقٍ في قدميها. وبين الشّبشب وأطراف الغلالة القصيرة امتدّت

مساحةٌ ناعمةٌ لساقَين تعلوهما ركبتان تسكنهما حفرتان فاتنتان. نظرتُ إليها مليًّا من موقعي وأنا جاثٍ على ركبتيَّ ومنكفئٌ على الفسيفساء. كنتُ حينها قد انتهيتُ من تثبيت التّابلوه الكبير بأجزائه الثّلاثة على الأرضيّة. كانت الفسيفساء قد اكتملت ولم يتبقّ لي سوى أن أمرّر خليط الجصّ لملء فراغات ما بين القِطع وشقوقها.

اقتربتْ منّي وهي تحمل قدحَ النّبيذ. عدّلتُ جلستي، ومددتُ يدي لآخذه منها، فأفلتتْه ليسقط على حجري. كنت أعرف أنّها تعمّدت إسقاط القدح الممتلئ عليَّ كي تصل إلى جسدي. جثتْ على ركبتيها وطفقتْ تمسح النّبيذ بطرف غلالتها فامتزجت رائحة النّبيذ برائحة الطّيب المندلعة من جسدها. وهي تمسح، وتُمعن في المسح، كانت تتعمّد رفع طرف الغلالة فتنحسر عن فخذٍ بضّةٍ تلوح على سطحها الأملس شعيراتٌ شاردة. كنتُ مذهولًا أمام هذا الامتلاء الزّاهي الّذي انكفأ عليّ فجأةً بينما أنا طريح الفسيفساء الّتي تنتظر شقوقها أن تُسقى بخليط الجير. طفقتُ أحدّق في كلّ تفصيلةٍ من هذا الجسد الطّافح بجاذبيّةٍ لم أستطع مقاومتها. يدها لا تزال تمسح النّبيذ، والفخذ تُطلّ وتعود للاختباء وسحر إطلالتها لا يزول من عيني. كانت نظراتي تستقرّ على فخذها تارةً، ثمّ تقفز تارةً أخرى إلى مواكبة ذاك الارتجاج الّذي يحدثه نهدان عظيمان متدلّيان يبرز جذعهما من عنق الغلالة المفتوح. فجأةً، توقّفتْ عن المسح ونظرتْ في عمق عينيّ وانحنت عليّ وبدأت تتشمّمني. لقد استعذبتُ أنفاسها. لم أعارض اقتحامها فسيفساءَ سكوني وسلبيّتي المشاعة في التّعاطي مع غواياتِها المعلَنة. أعجبني أن تسعى أمامي إلى بُغيتها. فهي امرأةٌ تقتنص الدّفء المفقود في حياتها، أنثى تتضوّر شوقًا إلى الملامسة، إلى المداعبة لإخماد لهيب جسدها الفوّار الّذي لا تقوى على تحمّل رغائبه وإملاءاتِه الجَموحة. أحسستُ

لحظتها كما لو كنت أكمِّل بدايةً كان لا يليق بي أن أترك نهايتها عالقة. فانخرطتُ بسلاسةٍ في فسيفساء اللّذّة الّتي ساقتها إليّ صنعة المُكعّبات الشّرسة. شرعتْ في تقبيل خدّي. وهي تشقّ الطّريق بفمها إلى شفتيّ، كنت أغترف كلماتٍ من بحر اللّامعنى وأقول:

- سيأتي سبالوس.

«إنّه غير موجودٍ بالبيت»، تغمغم.

- ستأتي تالة.

«تالة نائمةٌ»، تردّ بعد بعد أن طبعتْ قبلةً صائتةً على خدّي.

«وأنت ألن تنامي؟!» أسألها وأنا موقنٌ بأنّ سؤالي لن يزيد إلّا في إضرام النّار في قبلاتها الّتي أصبحت المعنى الوحيد لذاك الرّواح والمجيء على نارٍ مؤجّلةٍ:

- لم أستطع النّوم.. أريد أن أشمّك.

كنتُ أريد غَرف كلماتٍ أخرى من بحر اللّامعنى، لكنّها أطبقتْ فمها على شفتيّ وضاع مذاق الكلمات في لزوجة رضابها. بدأتْ تلتهمهما بضراوةٍ وشراهةٍ ألهبَتِ النّار في جسدي. نضوتُ عنها الغلالة التّفّاحيّة، فانهمر شبقُ توسمان، وأغرقَني في عسلها، إذ تدفّق في تلك اللحظة كأنّما يتدفّق من بركان. فانزلقتُ عميقًا في فوْهة بركانها.

لمّا خمد البركان، لبستْ غلالتها، ثمّ قبّلتْ خدّي وانصرفتْ دون أن تقول شيئًا. وأنا واقفٌ أرتدي سروالي، حانت منّي التفاتةٌ إلى اللّوحة

الفسيفسائيّة، إلى مكان اضطجاعنا، كانت هناك بقعةُ دماء سالت وتسرّبت لائذةً بالفراغات بين المكعّبات.

في ظهيرة اليوم الموالي، لم أنتظر إطلالةَ توسمان. كانت الفسيفساء قد اكتملت. أحطتُ التابلوه الكبير بإطار الزّخارف الفسيفسائيّة الجاهزة الّتي أعددناها بالورشة على بلاطاتٍ من الجصّ، وركّبت البلاطات بدقّةٍ فتكاملت الزّخارف الهندسيّة كما لو رُصّت على لوحٍ واحدٍ. ثمّ هيّأتُ خليطًا متماسكًا من الجصّ وصببته على المكعّبات لملء الفواصل والفراغات بين القطع، ثمّ نظّفتُ سطح اللّوحة من بقايا الخليط.

وعندما عادَ سبّالوس مساءً إلى البيت، توقّف في إطار مدخل غرفة الجلوس كتمثالٍ، فتملّى المشهد، وقرأ تلك العبارة الّتي كتبتُها بحروفٍ لاتينيّةٍ بارزةٍ أسفل اللّوحة، وبكى.

# سيلينا

بعيدًا عن الأعين الفضوليّة، التقينا عند البوّابة الجنوبيّة، ثمّ سرنا في المنحدر إلى ذاك المرج الّذي لا يطال عشبَه اليباسُ طَوال فصول العام. سحبني أيدمون من يدي. إلهي كم كان حضوره إلى جانبي دافئًا! يطوّق كتفي بذراعه، وينكش شعري ثمّ يبعثره، فأفلتُ صرخةً صغيرةً، وأقول له مازحةً إنّي سأشكوه إلى والدي. عندئذٍ يتوقّف ليعدِّل شعري معتذرًا. وسرعان ما يستغفلني ويلثم خدّي. ونحن نسير نحو الصّفصافة الّتي احتضنتْ عناقَنَا الأوّل وحرَّكَتْ رغائبنا الجميلة، مُمسِكًا بيدي وقلبي، انحنى على أذني وهمس باسمي برِقّة:

- سيلينا..

كان يريد أن يقول لي شيئًا، لكنّ صوتَ حوافرِ حصانٍ قادمٍ نحونا أوقف الكلمات على طرف لسانه. رفعتُ رأسي فرأيتُ ذاك الجنديّ المخبول الّذي ما انفكّ يلاحقني. كان ماركوس ممتطيًا حصانًا أسودَ أحجل القوائم. إنّه ذاك الرّجل الّذي ضايقني كثيرًا. وقد كانت صداقة والده ووالدي المعبرَ الّذي يسلكه ليطأ بقدمَيه القذرتَين أعتاب حياتي. وكم مرّةً حلَّ ببيتنا ضيفًا ثقيلًا على قلبي وعلى أنفاس أوكتافيا.

كان يعتلي صهوةَ الحصان بخفر. سحب إليه لجام الحصان ونظر إلينا من فوقه مبتسمًا بسخريةٍ ظاهرةٍ، وقال:

- شقراء روميّةٌ مع موريٍّ أسمر.. تكاملٌ غريب!

«وما شأنك أنت»، قلتُ دون تردّدٍ، ويدي ما تزال ممسكةً بتونيكا أيدمون.

- بالله عليكِ يا بنت بلدي.. ماذا تعشقين في بربريٍّ قذِرٍ مثل هذا؟

- لو نزلتَ من الحصان، لأمكنكَ أن تعرف منه ماذا أعشق فيه.

أَرسل إليّ نظرةً حانقةً. وإمعانًا في التّحدّي، ترجّل عن صهوة الجواد وربطَ زمامه إلى جذع شجرة زيتونٍ وأتى إلينا. نحّاني أيدمون بيده جانبًا، وتقدّم لمجابهته:

- البربريّ القذر هو من يحشر أنفَه البشع في خلوة عاشقَيْن. من الأفضل لك أن تجرّ حصانَك خلفك وترحل قبل أن تغيب الشّمس..

وأضاف بحروفٍ مضغوطة النّبرة، مستعرضًا فحولتَه وفصاحته، مُستغلًّا صمت ماركوس وذهوله:

- اذهب يا عزيزي، فاللّيل قادم! اذهب إلى جوار أمّك! أعرفُ أنّ أمثالك يتبوّلون في سراويلهم إذا ما رأوا شبحًا في الظّلام.

بُهِت ماركوس. لم يكن يعرف أنّ لأيدمون فصاحةً ولا حتّى دراية باللّسان اللّاتينيّ، ولا يعرف أنّ للموريين رباطةَ جأشٍ كهذه مقرونةً بجبروت التّحدّي. ظلّا لحظاتٍ، في وقفتهما النّدّية تلك، يفترس كلٌّ منهما الآخر بعينَيه من غير أن يتماسّا، وكأنّما فوّضا لِحبل النّظرة المُوَتَّر بينهما أمرَ الحسم في أيّهما الأقوى.

لا أملك أن أراوغ شعور الاعتزاز الّذي ملأ جنبات روحي في تلك اللّحظة. إلهي من أيّ عجينةٍ قُدَّ قلب هذا الرّجل الّذي أحببتُ؟! من أين له بهذا

الشّموخ أمام جنديٍّ من خيرة جنود الفيالق الرّومانيّة بوَلِيلي؟! وقف أمامه ندًّا لندّ. فرأيت ماركوس يتضاءل. يصغر كبعوضةٍ ويتلاشى. يستدير طيفُه، ويتّجه، في صمتٍ، نحو حصانه. حين امتطى سرجَه، انفكّت عقدة لسانه وقال:

- أخشى أن يأتي عليك يومٌ لن تتبوّل فيه إلّا كما تتبوّل الفتاة.

وحرّك رسنَ الحصان بعصبيّةٍ لينطلق الأحجل راكضًا في اتّجاه البوّابة الجنوبيّة.

أنا مدركةٌ تمام الإدراك أنّه لا أحبَّ عند الأنثى من أن ترى رجُلين يتصارعان من أجلها. لكنّ حبيبي لم يكن لحظتها مصارعًا. لقد كان صخرةً صلبةً تكسّرت فوقَها أحلام هذا الغرّ المزهوّ بجنديّته وبحصانه الأحجل الّذي بدا لي آنذاك أجمل من صاحبه بكثير.

تابعتُ الحصان بعينيّ حتّى ابتلعَتْه البوّابة الجنوبيّة. التفتُّ إلى أيدمون، كان ينظر بشرودٍ فاتنٍ إلى الشّمس وقد غاصت في حمرة الشّفق. نظرتُ إلى حيث ينظر. إلهي ما أجمله من منظر! الشّمس تصير برتقالةً كبيرةً على مائدة الشّفق.

«تبدو كجَمْرةٍ متوهّجةٍ»، يقول أيدمون.

«كبرتقالةٍ ناضجةٍ»، أقول.

الشّمس الجمرةُ، البرتقالةُ، تنثني كغادةٍ تُولّي تاركةً لمحبوبها أثرَ قُبلةٍ أحمرَ بين عينَيه. أمدّ شفتيّ مطالبةً أيدمون بقبلة. يقبّلني قبلةً تركت مذاقَ البرتقال في فمي. نعيد أعيننا إلى الشّمس الّتي غاص منتصفها في

الشّفق. ننظر إليها وهي تغيب تدريجيًّا. يلتهمها الشّفق، ولا يترك منها غير خيوطٍ برتقاليّةٍ تخضّب مكانَ حضورها الطّارئ.

جمرة الغروب مُحرِقةٌ يا حبيبي، قاسيةٌ، تجلِد العاطفيِّين بسِياط الحنين، تبصم بحمرتها على أطراف يومٍ لا يعود.

تأبّطتُ ذراع أيدموني وسرنا الهوينى عائدَيْن إلى المدّينة. توغّلنا في الحيّ الجنوبيّ مع هبوطِ الظّلام. مررنا أمام ورشة الفسيفساء حيث يشتغل حبيبي. سبق لي، أكثر من مرّةٍ، أن زرته فيها. توقّف أمام بابها وعالج قفلَه بالمفتاح. دخلنا وأغلق بابها علينا. كان الظّلام من حولنا دامسًا. رفعني أيدمون من وسطي وأجلسني على المنضدة الخشبيّة العريضة الّتي تتوسّط المحل. وشرع يقبّلني. وكنتُ لحظَتَها أحلِّق خفيضةً فوق بحور النّشوة وبراريها.

# أيدمون

خرجت من البيت وأنا في غاية التّأثّر بالدّمعة الّتي ساحت على خدّ سبّالوس الموريّ الأصيل. كان اللّيل قد بدأ يحطّ رحاله في وَلِيلي. اتّجهت نحو الورشة لأضع عَيبتي المصنوعة من الخوص، تلك الّتي أودعها أدواتِ العمل: مُسطرين ومقراضًا ومطرقةً صغيرةً وملقطًا وأمواسًا وخيط قياسٍ ووعاءً احتياطيًّا من الغراء. وجدت الورشة مغلقة، إذ عادةً ما يغلقها فلافيوس قُبيل الغروب. أخرجتُ نسخة المفتاح من جيبي، وعالجتُ القفل الكبير. ففتحتُ الدّفّة اليمنى ودخلتُ تاركًا إيّاها مواربة. وضعتُ العيبة على طاولة العمل العريضة الّتي تستحوذ على مساحةٍ كبيرةٍ في الورشة، وخرجت. أقفلتُ الباب بعنايةٍ، وسرتُ في اتّجاه البوّابة الشّماليّة. كثيرًا ما كنتُ أبيتُ بالورشة ولا سيّما أيّامَ الشّتاء، فهناك في عمق المحلّ، خلف السّتارة، أريكةٌ خشبيّةٌ ومدخنةٌ حائطيّةٌ أملؤها بالحطب وأشعل فتيلَ مصباح الزّيت أقرأ على ضوئه حتّى الهزيع الأخير من اللّيل ثمّ أنام. ولطالما باتت معي سيلينا دون علم أبيها، فقد كانت أوكتافيا تعرف كيف تغطّي على غيابها. تأتيني بالطّعام، فنأكل ونقرأ ونخطّط تشكيلاتٍ للقصص والأساطير وننام.. وكنت أحرص على أن أستيقظ مبكّرًا لأصرفها، وأبدأ العمل قبل وصول فلافيوس وكلاوديوس. لكنّ القمر الطّالع من الشّرق في هذه اللّيلة الدّافئة يغريني بالمشي تحت ضوئه في اتّجاه كوخنا الرّابض عند سفح الجبل في الجهة الشّماليّة من المدينة. عندما يغيب القمر عن سماء وِليلي تظلّ أزقّتها وشوارعها مظلمة. فيربض الوَلِيليّون في تلك اللّيالي الحالكة خلف أبوابهم الموصدة لأنّهم يخشون أن

يتعرّضوا لسوءٍ في الظّلام الحالك. ولا يطوف في اللّيل إلّا الأغنياء الّذين كانوا يملكون عبيدًا ينيرون لهم الطّريق بالمشاعل ويحمونهم من لصوص الظّلام.

القمر ينثر أشعّته بسخاءٍ على جنبات الشّارع وعلى جدران المباني وسقوفها القرميديّة. والبوّابة الشّماليّة، المسمّاة بوّابة طنْجِس (Tingis). ما تزال مفتوحةً، وحارسها ذو الشّارب المدوَّر مثل قرنيْ شيطانٍ مكوّمٌ تحت السّقيفة المضاءة بمشعلٍ زيتيٍّ شديد اللّهب. تلك السّقيفة تتّصل بمدخلٍ ثانويٍّ مغلقٍ تسلكه السّابلة بالنّهار. توقّفت تحت قوس بوّابة طنْجِس الشّاهق والتفتّ ورائي: الشّارع الرّئيس خالٍ تسطع أرضيّته المكسوّة بالحجارة الصّغيرة تحت نور القمر. جدران المباني البيضاء مستسلمةٌ لمداعبات نسيمٍ فاترٍ يهبّ من جهة الغرب، وسقوفها المقبّبة نائمةٌ مدثَّرةٌ بأغطية القرميد الدّافئة. ما أجملك يا وَلِيلي! ما أروع لياليك يا غيداء الموريّين المختالة بزينة الرّومان وحُللهم!

تركتُ وَلِيلي تنامُ نومتَها الهنيئة، استدرتُ وواصلتُ المشي صعودًا. وعندما انحرفتُ عن الطّريق الكبيرة وتوغّلت في شعاب المسافة المؤدّية إلى كوخنا، سمعتُ صوت أقدامٍ تمشي خلفي. ثمّ تسارعتِ الخطى. التفتّ فرأيت طيفَيْن يقتربان. كانا شابَّين ملثّمَيْن. هاجمني أحدهما دون أن يمهلني الوقت لتخمين من يكون. لكنّي تفاديتُ ضرباتِ قبضتيْ يدَيه. ثمّ تشابكنا:

- ماذا تريد؟ من أنت؟ لم يجب. تبادلنا الضّربات: ضربة منّي وضربة منه. وعندما تراجع قليلًا إلى الخلف خُيِّل إليّ أنّي أعرف وقفته وقامته وحركاته. إنّني لا أخاله إلّا ماركوس. إنّها وقفته نفسها الّتي وقفناها ندًّا

إلى ندٍّ، في حضور سيلينا، ذات عشيّةٍ بالمرج الجنوبيّ، وقد داهَم خلوتَنا. يبدو أنّ سيلينا قد شغفتْه حبًّا وكنت أنا الحاجز الوحيد في طريقه الشّائكة نحو قلبها العامر بي وحدي.

تشابكنا بالأيدي. اقترب الشّابُّ الثّاني. فظهرتْ عصًا غليظةٌ في يده. رفعها وهوى بها على رأسي. ثمّ رفعها مرّةً ثانيةً وخبط بها، بكلّ ما أوتي من قوّةٍ، على القذال. فقدتُ على إثر الضّربتَين توازني. فسقطتُ أرضًا إذ ألمّتْ برأسي دوخةٌ فظيعة. شعرتُ كأنّ دوّامةً عاتيةً تلفُّ جسدي، فتحمله، وتغوص به عميقًا في بئرٍ غائرةٍ لا قرارة لها. كنت أرى ما يقع لي وأحسّه، لكن دون أن تكون لي قدرةٌ، ولا حتّى إرادةٌ، على إيقافه. شرعَا يسحلانني على الأرض، ويسحبانني من يديّ، كلّ واحدٍ منهما يمسك بذراعٍ ويجرّها بجنون. سحباني إلى كوخٍ صغيرٍ مهجورٍ غير بعيدٍ عن الطّريق الكبيرة. أدخلاني جرًّا من بابه الخفيض.

كان بالكوخ رجلٌ متربِّعٌ إلى جوار موقد نارٍ قليلة اللّهب وكثيرة الجمار. قيّد الشابّان يديّ إلى الخلف، وربطا على فمي قماشةً وحزماها بقوّةٍ عند القفا. إلهي ماذا ينوي هؤلاء الثّلاثة أن يفعلوا بي؟ سرعان ما فكّ الشابّان عقدة حزام سروالي القصير ونزعاه بصعوبة. يريدان اغتصابي، خمّنت. نصفي السّفلي الآن عارٍ. دعاني أرَ ماذا تنويان فعله بذَكرٍ مثلكما أيّها الوغدان. ليتني استطعتُ التّلفّظ فأبصق بهذه الجملة في آذانهما. شَدّ كلّ واحدٍ من جهته على ركبة. كان ماركوس يضغط على الرّكبة الأولى. والثّاني الّذي بدا لي، من جبهته البارزة وعينيه الغائرتين، أشبه ما يكون بكلاوديوس، يشدّ على ركبتي اليسرى. عندئذٍ قفزت عيناي لتستقرّا على رجُلِ الموقد. إنّهُ يبدو في تربيعَةِ جِلْستِه كملاك الجحيم، كشيطان. رأيتُ يدَه السّوداء الغليظة، كيد حدّادٍ، تمتدّ لتقليب حديدةٍ

على الجِمار. كانت حديدةً ملتهبةً، حادّة الأطراف، تبدو مثل مَيسم الكيّ. بحقّ الجحيم، ماذا تريد أن تصنع بهذه الحديدة الملتهبة أيّها الأسود البشع؟! وهنا صرختُ. وردّدتْ أعماقي صدى الصّرخة.

# سيلينا

أقف عند النّافذة فأحسّ بأصابع الرّيح الغربيّة تداعب وجهي وتغازل شعري الأشقر كأنّما تُغازله بأصابِعِ أيدمون حبيبي. ومن النّافذة أرى البيوت المطليّة بالجصّ تلوذ مستكِينةً تحت ضوء البدر الفضّيّ. أرى القرميد الأحمر النّائم فوق السّطوح بلا غطاء. وفوق هذه الأسطح القريبة أرى طيفَ أيدمون، أرى خيالَه في كلّ مكانٍ. طيفُ أيدمون لا يفارقني، أناجيه وأحدّثه همسًا وهجْسًا:

«الحبّ يا حبيبي ليس له هيئةٌ ولا قامة. الحبّ له فحسْب تلك الطّرقة الخجول على باب القلب. وأنت دققتَ قلبي بكفّكَ السّاحرة الّتي تعرف كيف تخيط ألوان الجمال. لذلك فتحتُ لك بوّابة القلب، لترى كمْ أدّخر لك من الفرح، وترى كمَّ الورد والأزاهير والأقاحي الّتي تتعشّق قلبي الملآن بك. أنا الآن في انتظارِكِ حبيبي أحمل لك أجمل عشقٍ ومعه أجمل خبر.

وقبل أن أقول لك خبري السّعيد دعني ألُذْ بِرَقِّي وريشتي وحبري لأُشركها في بوحٍ أخصّكَ به وحدك. ورغم أنّي ما زلت طفلةً لا تتحكّم في حروف البوح، فسأكتب هذا البهاء الّذي علِقَ بي منك.

لقد ضربتُ بحُبّ الشّبّانِ، أبناءِ بلدي، عرضَ أوّل جدارٍ، وملتُ إلى الجنديّ الرّومانيّ الأشقر، تركتُه هناك عند الشّارع الّذي صادفني فيه جماله ومعسولُ كلامه ولذتُ بك أنتَ. أنتَ وحيدي يا أيدموني. أحملكَ في عَيبة الخوص كلّما خرجت. وكلّما أدخلُ إلى غرفتي أغلقُ علينا

ذاكرة الباب، وأفتّش في صندوق أشيائي الغالية لأستخرج كُرّاسًا جلديًّا قديمًا، بين دفّتَيه رتّبتُ رسائلك. أسحبها من مكانها برفقٍ وفرَحٍ كتحفٍ نفيسةٍ، فأشمّ فيها رائحة الجلد الرّطب ورائحتك. أقرأ حروفكَ اللّاتينية البارزة. وعندما أتعب من قراءتك أطفق أناجيك. أنا، الجالسة هنا على حافّة اللّيل، أريدكَ، أشتاق إلى وهج عينيك. أُسامِرُ الثّلثَ الأخير من اللّيل. أغوص بريشتي في دواةٍ، وأقطّرها على هذا الرَّقّ، كي أكتبكَ وأكتب فرحتَنا القادمة. وعندما أتعب، عندما يطوّق الحنين أنفاسي، أنسلّ نحو نافذة الذّكرى حيث وقفتُ يومَها أوّل مرّةٍ لأراك. أظفر شعري على مرأى ليلِ وَلِيلي المقمِرِ، أجمعه خلف رأسي، ولا أنسى أن أخبّئك فيه. أكتب عنكَ من شغاف القلب، وأقرأ ما كتبتُه عنك، فأحبّك أكثر عند بدء كلّ كلمة، وفي منتهى كلِّ جُملة. ولا أرقد إلّا لأستيقظ في ظلّ حضوركَ بداخلي. أرقد لأستيقظ فأفتح أذنيّ على كلماتك، على خرس غيابكِ عن حضني.

لو تدري يا حبيبي بأنّي أحملك، لا مجرّد ذكرى فقط، إنّما أحملكَ قَدَرًا في أحشائي. أي نعم. اليوم فحسْب عرفتُ أنّنا صرنا واحدًا. اليوم فحسْب كُتِبَ لحبِّنا الشّابِّ أن يضع قدمَيه على أرضٍ صلبةٍ لن تخون وفاء خطواتنا. اليوم عرفتُ أنّ طفلًا من دمكَ قادمٌ إلى هذه الحياة لينثر ألوان السّعادة في بيتنا. اليوم عرفتُ أنّ طفلةً تحمل شيئًا منكَ قادمةٌ إلى حُضنَيْنا. اليوم عرفتُ أنّ طفلًا مشاكسًا قادمٌ ليعبث بمكعّبات فسيفساءاتك.

قبل يومَيْن لازمتني حالة دوخةٍ وغثيان. كان يُغشى عليّ باستمرارٍ، فأتقيّأ ويتعرّق جلدي. رافقتني أوكتافيا إلى الطّبيب بالحيّ الغربيّ. هو الطّبيب نفسه الّذي حدّثتني عنه لمّا عدّل له فلافيوس فسيفساءَ جداريّةً فريدةً

من نوعها بالصّالة الّتي يستقبل فيها مرضاه. بدت لي غرفةً مستطيلةً وفسيحةً، ولم أكن أتخيّل أنّها بذاك الاتّساع، ولا تصوّرتُ الفسيفساء الجداريّة بذاك الجمال، فسيفساء أسكليبيوس، إله الطّبّ والشّفاء عند الإغريق. لقد صوّره فلافيوس حاملًا عصاه وحوْلها يلتفّ ثعبانٌ ضخم. أتدري يا حبيبي أنّ أسكليبيوس سافر باحثًا عن عشبةٍ لإعادة الحياة إلى الموتى رغمًا عن أنف هاديس، وفي الطّريق تراءى له ثعبانٌ ميّتٌ وثعبان آخر حيٌّ في فمه عشبة. وضع الثعبان الثاني العشبة في فم الأوّل فعادت إليه الحياة.

وبذلك صار أسكليبيوس يعرف سرّ إعادة الحياة بسبب ذلك الثّعبان الّذي أصبح رمزًا خالدًا مع العصا.

أدخلَنا الطّبيب إلى الغرفة الفسيحة. فحصني خلف ستارةٍ بيضاء، وقال إنّي أنتظر مولودًا. نعم يا حبيبي أنا الآن أحملك. لا مجرّد ذكرى فقط، إنّما أحملكَ قدَرًا في أحشائي. وإنّي لأعلم حجم الفرح الّذي سوف يتعشّق ملامح وجهكَ الأسمر الجميل عندما أزفّ إليك الخبر. سوف تحلّق فرحتنا، ويبارك أبي زواجنا. أبي يحبّك، لأنّه لا أحد في المدينة يحمل شيئًا من روحك النّبيلة وعصاميّتك وفنّك الرّاقي. أنت قدري الجميل. وأنا القادمة من بلاد الرّوم سأكون موريّةً في سبيل الحبّ، في سبيل حبّك الّذي لا يُضيره وهْم المسافة ولا خرافةُ الانتماء. أنت حياتي وانتمائي. أنا لكَ حتّى الانمحاء».

# أيدمون

«بحقّ الجحيم ماذا تريد أن تصنع بهذه الحديدة الملتهبة أيّها الأسوَد القذر؟!»، صرختُ. ولم تَتردّدْ أعماقي في تَرْديدِ صدى الصّرخة.

طلعتِ الصّرخة من جوفي كبركانٍ لتنطفئ عند حدود الحلق وتتلاشى كأحجارٍ رُمي بها في غوْرِ جرفٍ سحيق. صرختي تبدّدت ولم يطلع منها غير أنينٍ موجوع. ماذا سيفعلون بذكورتي يا إلهي؟ أحسستُ رعشةً باردةً بين ساقيّ. لقد كان عضوي مفقودًا في ذهني قبل أن تمتدّ إليه اليد السّوداء الّتي تحرِّك الحديدةَ الحمراء على الجمار.

ما بين ساقَيّ فارغٌ وخاوٍ. كنت أنتفض بما أملكه من قوّة. وأزلزل القبضات القويّة الّتي تمسك بركبتيّ. لكنّ يديّ مربوطتان إلى خلفٍ، والألم يشتدّ في رأسي. لا بدّ أنّ جرح العصا غائر. أشعر بخيطٍ من الدّم ينزل على عنقي. وثمّة دمٌ آخر ينتظر دوره لينزف منّي. مثلما نزفتْ توسمان سأنزف، مثل أيّ امرأةٍ سأنزف، مثل شهيدٍ موريٍّ يُطعَن بين ساقَيه بنصلٍ حادٍّ طعنةً غادرة سأنزف. وتذكّرتُ الفسيفساء الرّهيبة. لولا هذه النّار الملتهبة أمامي، لولا أنفاس هذَين الوغدَين الممسكين بركبتيّ، ولولا البرودة الّتي تطلع من منطقة ذكورتي لجزمت أنّي أحلم، لجزمت أنّي بصدد إعادة نسخةٍ من حلم الفسيفساء الرّهيبة.

ما كنتُ أدركه جيّدًا في تلك اللّحظات الغائمة هو أنّي على وشك أن أدفع بابًا جديدًا في حياتي لأدلف إلى سردابٍ معتِمٍ طاعنٍ في المسافة والظّلام.

حبيبتي سيلينا، لن أكون رجلًا في حضورِكِ بعد الآن. ومن أنا بعد ذكورتي يا حبّي الجميل؟ مجرّد أنثى نزفتْ مثلما نزَفتِ على فسيفساء برسيفوني إلهة الرّبيع. إلهتي الشّقراء، يا شغفي الجميل. سيستأصلون عضوي، سأصير مَجْبُوبًا، الموت أهون عليّ من أن أكونه.

تمتدّ اليد السّوداء إلى عضوي، تتلمّسه، ثمّ تنزلق إلى خصيتيّ، تشدّ عليهما بقوّة. أتألّم من انضغاط بيضتيَّ داخل كيس الصّفن. وإنّه لَألمٌ عظيم. تسحبُهما اليد الضّخمة بقوّةٍ كما لو كانت تسحبُ ثمرتيْ فجلٍ مشدودتَين إلى التّربة الصّلبة الّتي ولدتهما. في تلك اللّحظة، كانت اليد السّوداء الثّانية تمتدّ بهيبةٍ إلى الحديدة النّائمة على الجمر، لتوقظها:

«تعالي نعبث بخصيتيْ فتًى موريٍّ غشيم»، تقول اليد السّوداء.

«ومتى كانت النّار للعبث واللّعب أيّتها اليد الثّخينة القذرة»، تردّ الحديدة في تعالٍ وازدراء.

تهجم الأصابع السّوداء على مقبض الحديدة الملتهبة. أحسُّ بسخونة الحديدة تقترب من لحمي. وفي لحظةٍ منفلتةٍ من وعيي المشتّت، سمعتُ صوت احتراقٍ، وشممتُ رائحة شواظ، ثمّ رائحة شواء. كان لحمي يُشوَى. وصرخت. قطعتِ الحديدةُ خصيتيّ، وظلّ عضوي مرتخيًا منكمشًا مُغمًى عليه. فدلقتُ صرخاتٍ وحشيّة. أخذ الرّجل الأسود قارورةً بها سائلٌ ورشّه بِعناية على موضع الجرح المكويّ. وأنا ما أزال أصرخ من تحت القماشة المربوطة على فمي، التقط الرّجل الأسود الملثّم خصيتيّ المنزوعتين. بالسبّابة والإبهام التقطهما. أشهرهما أمامي، وعندما تأكّد من أنّني حاضر الوعي أراه على ضوء النّار، أخذ السكّين وشقّهما، ثمّ أفرغهما من مائهما الّذي هو مائي، ووضعهما

على الجمار. وأنا أتلوّى من الألم، شممتُ رائحة الشّواء قويّةً هذه المرّة، رائحة لحمي المشويّ. عندما نضجت القطعتان، رفع الرّجل لثامَ الوجه من أسفله وحَشَا فمه بالقطعة الأولى، ثمّ أتبعها الثّانية. مضغهما، ثمّ ابتلعهما، وضحك بصوتٍ مجلجلٍ قبيح. كان في ضحكته شيءٌ من الحدّاد بوكوس.

ومن كرمهم أنهم فكّوا قيد يديّ. هبَّ الأوغاد الثّلاثة الملثّمون وخرجوا من منفذ الكوخ وتركوني مع آلامي. زحفتُ واقتربتُ من النّار، فتحتُ ساقيّ ونظرت مليّا هناك: كانت ثمّة دمغةٌ كبيرةٌ في موضع الخصيتَين يتدلّى فوقها عُضوي منكمشًا، مغمًى عليه. لبستُ سروالي القصير بمشقّةٍ، وأضفتُ إلى النّار حطبًا كان منثورًا في جنبات المدخل، ثمّ شردتُ طويلا في تأمّل اللّهب المتراقص حتّى غلبني النّعاس، ونِمتُ نومةً عميقة.

**انتهت رواية الفتى الموريّ**

# باخوس في العيادة

## (مذكّرات)

## نوال الهناوي

## تهامي

**السبت 21 ماي 1994**

هل كان يعلم أنّه بحكيه هذا يستدرجني، من حيث لا يعلم، إلى مواعيده؟ أم تُراني أنا الّتي استدرجتُه، مُذْ رأيتُ وسامتَه الشّاذة الّتي تُبعِدُه عن زُمرةِ الأسوياء، وغصتُ بعيني في صدره العريض المزغّب كما تحبّه البتول، إحدى مريضاتي، الّتي احترفتْ خيانة أزواجها السّبعة الّذين طلّقتْهم؟ وحين أمسك بمعصمي، وقرّب وجهه من وجهي، سمعتُ شعلة ولّاعةٍ ذهبيّةٍ توقدُ سيجارَها الكوبيّ بداخلي. هل سأخاف على قلبي من روحٍ لوّثتْها انكسارات فقدٍ كبيرٍ ارتطمَ بجدران «أناه» الهشّة؟

هل أستسلم له؟ ألن يخرّبَ ما أبقته يدُ القدر العنيفة الّتي لم تكن يومًا متصالحةً معي؟

تلقّيتُ اتّصالَه مساءَ يوم السّبت. ظهر لي رقم هاتف بيته القرويّ. كان سكرانَ، ومن نبرة صوته بدَا محبطًا:

- لا أستطيع النّوم.

- جرّب أن تقرأ حتّى تغفو.

- حاولتُ ولم أستطع، لا وَصْفةُ القراءة ولا الكتابة نفعتْ معي.

- والمسكِّنات؟ تتناولها بانتظام؟

-كرهتُ الأدوية. فهي لا تزيدني إلّا اضطرابًا. أشعر أنّي لست بخير. سكتَ برهةً ثمّ أردف:

- أحتاج إلى أن أكلّمك. لا أستطيعُ انتظارَ موعد الجلسة الأسبوعيّة المحدّد يوم الخميس القادم.

- ولكن...

- إذا كان لديك وقتٌ أراك غدًا.. في مقهى.

لقد كان لديّ الوقت كلّه للقائه. كنت سأقترض من حساب العمر ساعاتٍ سخيّةً، وربّما لياليَ أكثر سخاءً، للقاءٍ يجيء في ظرفيّةٍ شعرت خلالَها بوحدةٍ قاسية. فزوجي ابتلعه العمل، منذ انتقل إلى فاس لإدارة مشروعٍ هناك، أصبحت لا أراه إلّا مرّتَين أو ثلاثًا في الشّهر. جزءٌ كبيرٌ فيَّ استقبلَ اقتراحَ تهامي بوصفه مواعدةً، لا لقاءً من أجل معاينةٍ أو تقديم دعمٍ نفسيٍّ أو استشارةٍ طبّيّة. منذ الجلسة الأولى شعرت باندفاعٍ تجاهه. وجدتُني مستسلمةً لحَكيه. فانخرطتُ أكتُب عنه في مذكّراتي. هو الّذي حمل إليّ وجعَه وإحباطاتِه بعد أن سقطتْ أمامه كلّ الخيارات. شيءٌ مّا في تهامي كان مختلفًا. لستُ أدري لماذا ألفيتُني أميل إليه هكذا ببساطة. ربّما لأنّه لم يُبدِ اهتمامًا بي كعادة أغلب مرضاي الذّكور الّذين يحاولون في أكثر من مناسبة جَرّي لأحدّثهم عن حياتي

ولو قليلًا. أو ربما ملتُ إليه بسبب وسامته الشّاذّة. أوَلمْ يقل أبو التّحليل النّفسيّ فرُويد قبل سنين طويلةٍ «التّحليل النّفسيّ هو في الأصل علاج المريض من خلال الحبّ». وهل يُسمّى ميولي هذا حبًّا؟ ومهما كان ذلك الإحساس، سيظلّ حبًّا «فرويديا» على كلّ حال.

إن أنا ملتُ إلى تهامي، فلن أكون المعالجة النّفسيّة الأولى أو الأخيرة من بين اللّاتي كسرن القاعدة وتورّطن في علاقاتٍ غراميّةٍ مع مرضاهنّ. لقد سبقتني إلى هذه الحالة النّاشزة بارِبَرا سترايسند في فيلم «أمير المدّ والجزر»، وإنغريد برغمان الّتي تولّهت بمريضها غريغوري بيك في فيلم «المسحورة».

ألفيتُني مكبّلةً أمام هذه المشاعر الّتي أيقظَها فيَّ حضوره مذ أوّل جلسةٍ، ولم أستطع تجاهلها. كانت في حركاته حياديّةٌ شاذّة تجاه كلّ ما حوله حبّبَته إلى نفسي. علاوةً على أنّ صوته لدِنٌ رزين. ولا شكّ في أنّ تهامي فطنَ، منذ الجلسات الأولى، إلى انجذابي وحركاتي الّتي كان فيها الكثير من «الحبّ» الفرويديّ، مثلما فطن إلى أنّني خائفةٌ من هذه المشاعر، وأعيش صراعًا داخليًّا بسببها، لهذا لم يتأخّر في أَخْذ المبادرة.

مع توالي الجلسات الأسبوعيّة، انقلبت اللّامبالاة الّتي أبداها منذ البداية إلى مناوراتٍ عابثة. صار يتّصل بي في أوقاتٍ معيّنةٍ، باللّيل خاصّةً، ليسألني أسئلةً تافهةً أو يشكو إليّ أرَقَه وعُسْرَ نومه. صار لا يلتزم بالوقت المخصّص للجلسة العلاجيّة كأَنْ يقصد عيادتي أكثر من مرّةٍ في الأسبوع. وفوق هذا صار يطلّ عليَّ في بعض الجلسات بشخصيّة الدون جوان. غير أنّ أبرز مناوراته، الّتي لا أكتم افتتاني بها، تلك الّتي بدرت منه عندما مسح بيده على عنقي وذقني بينما كنتُ أهمّ بإعطائه حقنة مسكّنة. في إثر ذلك، سحب يده ببطءٍ واعتذر متظاهرًا بأنّه رأى فيَّ،

لحظتَئذٍ، زوجتَه الّتي هجرته. ورغم أنّي صدّقته يومَها، ظلّت بذرة يقينٍ تنبت بداخلي تقول لي إنّ الرّجل راغبٌ فيكِ بقوّةٍ يا نوال. وكي أبرّر موقفي عمليًّا، اعتبرتُ أنّ هذا الميل، من طرفه، سيشكّل تطوّرًا مهمًّا في مسار العلاج، وسيكون فرصتي لأسلّط الضّوء على مشكلته النّفسيّة، وفرصته، هو أيضًا، من جهته، للغوص في أعماقه والتّعبير عن وجعه للسيطرة عليه وتخطّيه.

# عيّاش

**الإثنين 21 يونيو 1993**

جاء إلى العيادة هذه المرّة يرتدي معطفًا رغم أنّنا في عِزّ الصّيف. جلس عيّاش على الأريكة وشرَعَ يحكي. سقطتْ أحزانُه على ملامحه فلوّنتْها بشحوبٍ طاعن. صمتَ فجأةً، وتململ في جلستِه قبل أن يجد وضعيّة مريحة في زاوية الأريكة. تراجع بظهره حتّى لامستْ بلاطةُ ظهره المسندَ.

وشرع يعدّ على أصابعه كما اعتاد أن يفعل، ثمّ سهَا لحظةً، توقّف عن العَدِّ، وراح ينظر بصمتٍ إلى التمثال الخشبيّ الموضوع على طرف المكتب. سرَحَ في تأمُّلِه تمثال باخوس برهةً قصيرةً، ودسّ يديه في جيب معطفه، ثمّ عاد ليُواصل الحكي بشرودٍ:

- النّيابة العامّة انتدبت قاضي تحقيقٍ. وقد أكّد التّهمةَ بعد استجواباتٍ ماراطونيّةٍ وحبسٍ احتياطيٍّ دام شهرَين تعرّضت خلالهما لكلّ أشكال التّعذيب والإهانات. وجاء النّطق بالحكم في محاكمةٍ شبه صوريّة. كان الحكم قاسيًا: عشر سنوات! نطق القاضي بالحكم ببرودٍ مشيرًا بكفّه إلى العدد خمسة. ظننتُه في الأوّل حكَمَ عليَّ بخمس سنوات. لكنّ المدّة كانت ضعفَيْ كفِّه الجائرة، قطعَها الله. تسمّرتُ في مكاني برهةً، وهجمتْ على خيالي جحافل من أفكارٍ قاتمةٍ وأنا أتخبّط في مهاوي ذاك اليأس القاتل. غمرني إحساسُ من يُرمى به في بئرٍ تمتدّ أعماقها إلى

عشرات الأمتار. عشرة أعوامٍ عندما وعيتها جيّدًا تملّكني شعورُ مَن يُدفن حيًّا. كانت لحظاتِ تخاذلٍ مريرة.

**من ترك باخوس وحيدًا؟**

***(جريدة الواجهة - صفحة الأحداث - عدد الأربعاء 8 ماي 1996)***

***وبعد مرور ما يزيد عن 14 سنةً بالتّمام على الواقعة المشؤومة، تكشف «الواجهة» أوّلَ مرّةٍ، روايةَ السّكّان حول سرقة باخوس، وطريقة تعذيبهم، والإرهاب الّذي مورس عليهم لانتزاع اعترافاتٍ مُزَيَّفةٍ منهم. والمثير أكثر في شهادات مَن عايشوا تلك الأحداث الأليمة هو اتّهامهم زوجة جنرالٍ كبيرٍ في الدّولة بسرقة التّمثال،ومشاركة هذا الجنرال (نتغاضى عن ذكر اسمه بسبب غياب أدلّةٍ مادّيّةٍ) في إخراج التّحقيق البوليسيّ العسير، الّذي تعرَّض له السّكّان في شكل مسرحيّةٍ رديئةٍ لم تؤدِّإلى أيّ نتائج.***

***سوف يروج خبرُ اكتشافِ التمثالِ في مكانٍ مّا في إيطاليا، إذ أوردتْ رواياتٌ أنّ المغرب لم يستطع آنذاك دفع مقابلٍ خياليٍّ لمالك التّمثال الّذي اشتراه من إحدى المافيات الإيطاليّة المتخصّصة في سرقة الآثار.***

***إنّ السّؤال المطروح اليوم لم يعد: من ترك باخوس وحيدا؟ ومن سرقه؟ وأين يوجد حاليًّا؟ بل: متى سيتوقّف نهب التّراث المغربيّ من طرف المافيات المتاجرة بالآثار في أروقة بيع التّحف العالميّة؟***

- احكِ لي عن معاناة السّجن يا عيّاش.

- أنزلوني من عربة الدّرك النّحاسيّة اللّون مصفّدَ اليدين. طالعتني بوّابة حبْس «سيدي سعيد» السّوداء المائلة إلى الزّرقة الغامقة، «الباب الكحلة» كما يسمّيها السجناء.

كانت بوابةَ جحيمٍ بحقّ. على يمين المدخل كان ثمّة طابورٌ من النّساء يحملن قُفَفَهنّ منتظراتٍ دورهنّ لزيارة أقاربهنّ من السّجناء. شيّعتني عيونُهنّ وأنا أدلف من البوّابة. وفكّرتُ في أنّ كلّ واحدةٍ من هؤلاء الزّائرات رأتْ فيَّ قريبَها السّجين الّذي جاءت لزيارته. كلّ واحدةٍ، وهي تتملّى هيئتي الكسيرة، تخيّلتْ خطواتِ قريبها الأخيرة قبل أن يبتلعه هذا الباب الأكحل.

اقتادوني إلى «المخازن» وهو اسم أقدم جناحٍ بسجن سيدي سعيد. أغلب سجناء هذه البناية محكومٌ عليهم بعشر سنواتٍ فما فوق، جُلُّهم سجناء رأيٍ، ذاقوا نصيبهم من التّعذيب في سنوات السّبعينيّات، سنوات الجمر والرصاص، قبل الحكم عليهم، في محاكماتٍ عسكريّةٍ صوريّةٍ حضر فيها كلّ شيءٍ إلّا العدل، بأحكامٍ جزافيّةٍ تصل إلى خمس عشرة سنة. كلّهم من دون استثناءٍ عاشوا، في اعتقالهم، أنماطًا مختلفةً من الإرهاق والإذلال والتّحقير، جُرمهم الوحيد أنّهم صدحوا بأصواتهم مغرِّدين خارج سرب قواميس الدّولة.

وسعل سعالًا حادًّا تقلقل له جسده الهزيل، ثمّ واصل الحكي بصوتٍ ضعيفٍ:

- فكّوا القيود من يديّ ودفعوا بي إلى الزّنزانة، ثمّ صفقوا البابَ خلفهم بقوّةٍ وأداروا في قفله المفتاح. كان لوقع المفتاح تردّدٌ خاصٌّ في أذنيّ ذكّرني لحظتها بأنّ العالم الخارجيّ توقّف عن التّسرّب إلى زنزانتي. زنازينُ

ذلك الجناح القديم عبارةٌ عن علبٍ ضيّقةٍ طولها أربعة أمتارٍ وعرضها متران ونصف. إنّها علبٌ مظلمةٌ يتسلّل إليها بالنّهار نورٌ شاحب. قبعتُ في الزاوية المقابلة للباب الحديديّ وفرشتُ «الرولو». كانت في الباب السّميك نافذةٌ مربّعة صغيرةٌ هي منفذي الوحيد الّذي أُطلّ منه على العنبر الصّامت. أنام وأحلم بأن توقظني الشّمس في قريتي فرطاسة، أنام وأحلم بأنْ يطلع النّهار بعد ليل العذاب المعتِم. عذّبوني يا دكتورة. حبسوني طويلًا. عشر سنوات. أتدركين معنى حبْسي عشر سنوات؟ كان الوقت يمرّ ثقيلًا داخل ذلك المكان المغلق والمظلم. لقد فقدتُ الإحساس بالزّمن. كنت في بداية عهدي بالسّجن أحسبُ الأسابيع الّتي قضّيتها بخطوطٍ على جدار الزّنزانة، وما لبث أن امتلأ الجدار ولم ينتهِ سجني. إنّ الزّمن في السّجن ليس هو الزّمن الّذي اعتدناه خارجه، فهو يمضي ثقيلًا ببطء قاتِل. إذ لا يُحسَب بالأيّام والأسابيع، بل بالسّاعة، بالدّقيقة والثّانية. هناك يبدو الزّمن متوقّفًا، كما لو كان العالم لا يزال في عصرٍ قديمٍ.

أشعر يا دكتورة بأنّي حُبستُ دهرًا.

توقّف برهةً، وابتسم ابتسامةً عريضةً لكنّها حزينةٌ. كان حزنه باديًا في تلك الرّعشة الّتي استوطنت ذقنه. صمتَ، وشرَع من جديد يعدُّ على أصابعه العشرة كما اعتاد أن يفعل، وبعد بُرهة توقّف من العدّ، فبادرتُه:

- هي السنوات العشر إذن، تلك الّتي تعدّها بأصابعك؟ سنوات السجن الطويلة الّتي مرّت عليك كالكابوس، أليس كذلك؟

ولم يردّ بشيء. اكتفى بالنظر إلى تمثال باخوس المنتصب على خشبِ المكتبِ. ظلّ يتَمَلّاه بشرودٍ كما لو يحمّله مسؤوليةَ سنواتٍ عَشْرٍ

سُرقَتْ منه بالخطإ. حركة الأصابع تلك حركةٌ مُلحَّة، هوَ مدفوعٌ لتَكرارها تنفيسًا لضيقٍ وقلقٍ مُقيمَيْنِ في قرارة لاشعورهِ. لقد أمضى شِقًّا من حياته في العُتمة، في العدّ، وإعادة العدّ، ونَقْشِ عددِ ليالي السّجن الطويلة على الجدران. هي حركة قهرية تُتَرجم، بأمانةٍ، مأساةَ إنسانٍ ضائعٍ ساوَمَه القدَرُ في عمره مساومةً رخيصةً.

- بعد خروجي من السّجن، لم أعد أنا. وقد عرفتُ من أحوال السّجناء، ومن حديثهم وحكيهم، أنّ السّجن لا يُصلِح، بل يخرّب. وقد خرّبني. خرجتُ منه مثل خرقةٍ مهترئة. كانت لي أسرةٌ صغيرةٌ وسعيدةٌ أعيلها. عملتُ سنواتٍ بأشغال الصّيانة في موقع وَلِيلي قبل تعييني حارسًا. وفي ذلك العام الّذي صرتُ خلاله حارسًا على الموقع حدثت الكارثة، إذ سُرق التّمثال، فسُجنتُ، وتشتّتَ شمل أسرتي.

صمتَ وَهلَةً وتعلّقت عيناه بالسّقف. كان يبدو عليه الانهيار التّامّ. فمرّر كفّه اليمنى على ذَقنه الّذي غزاه الشّيب وقد مضى على حلاقته أكثر من أسبوع. ثمّ أخمَدَ أصابعه في شعر رأسه، وسحبَها ببُطءٍ وكأنّه يحاول ترتيبَ فوضى مشاهدَ ووقائعَ تزاحمتْ في دماغه المتعَب. ثمّ هَجَسَ بصوتٍ يكادُ لا يُسمَع:

- واليومَ، عندما يأتي الليل، ويخيّم الظلام، تتوارَدُ عليّ صورُ السِّجن، وأسمَع أصواتَ صفْقِ الأبواب الحديدية وصدى مفاتيح الحُرّاس. تتزاحم في ذهني نداءاتُ المساجين وأنينهم، فتحرمني من النُّعاس. وإذا أخذتني سِنة النوم انبرتْ لي كوابيسُ فظيعة تمزّقني، فلا أستيقظ منها إلّا مرعوبًا مُنهَكا مُفرَغًا من أيّ تَوْقٍ أو إرادة في الحياة.

- أنت تعاني من توارد التجارب القاسية على ذهنك، ونوبات هلعٍ ناجمة عن الحَبسِ الطّويل والتعذيب.

قلتُ هذا، وفكّرتُ قليلًا، قبل أن أسأله:

- ما الّذي ساعدك على تحمُّل كلّ هذه السّنوات الّتي أُدنتَ فيها ظلمًا؟

- إنّه إيماني ببراءتي. ثمّة سلامٌ مّا يغمر المرءَ عندما يكون بريئًا. وكنت قادرًا على أن أجِده. إذ لطالما صدّقتُ أنّي لم أكن سجينًا، بل رجلًا بريئًا في السّجن. أبي وأمّي سانداني، وفي عزّ شيخوختهما كانا يزورانني. قبل خروجي بسنةٍ ماتا، أبي مات في أواخر سنة ١٩٩٠ وأمّي في أبريل ١٩٩١، فلم يمهلها الموت بضعة أشهرٍ إضافيّة لتراني حرًّا. أمّا زوجتي الشّابّة فتطلّقت غيابيًّاوتزوّجت. ولم يتبقّ لي سوى ابني المهديّ. وحده الآن يدعمني ويعتني بي. إحساسٌ مريرٌ بالخذلان غُرس في قلبي كمديةٍعندما حوكِمتُ بعشرة أعوام سجنًا نافذة. من سيجبر ضرَرِي وكسري يا دكتورة؟

- أمرٌ عادي أن تنعكس فترة الاعتقال الطويلة عليك نفسيًا وأسريًّا واجتماعيًّا. من الواضح أنّك تألّمت كثيرًا يا عيّاش. وصِرتَ تَعيش حسرةً وعدم رِضا عن ذاتِك، مع صعوبة في الاتصال مع الآخرين. إذ غدوتَ تحمل حقدًا تجاه ماضيك، تُجاه الآخرين، تُجاه المجتمَع الّذي لا يتعاطف مع خِرّيجي «الحَبس». ما يزال شعور بالنّدم يُهَيمِنُ عليك، ويسيطِر عليك الإحساس بتأنيب الضّمير. خاصّة عندما تتذكّر بأنّك حُبِسْتَ كلّ هذه السّنوات بسبب اعترافات كاذبة دُفِعتَ إليها دفعًا. هنا تبدأ في لوم نفسك وجلد ذاتِك، ممّا يؤدي بك إلى الشعور بالاحباط والقلق الدائم والاكتئاب والاستسلام لعُزلتك عن العالم.

هذا هو التشخيص النهائي لحالتِك يا عيّاش. ولِكي تتقبّلَ واقعك، واقعَ ما بعد السِّجن، وتتكيّفَ مع الحياة الجديدة، وتخرجَ من عزلتِك، خُذْ عنّي هذه النصائح. وعُدَّها على أصابِعك العشرة، فهي وصفتي العلاجية لك:

1. امكُث فترةً في المنزل مع ابنك وأحبِّ أقربائك، دون الحديث عن تجربة الاعتقال.

2. قُمْ بمهامَّ بسيطةٍ في البيت كإعداد الطعام، وترتيببعض الأغراض.

3. زُرْ أفراد عائلتِك من وقتٍ لآخر.

4. احرص على توفير الراحة والاطمئنان لنفسك.

5. تناول طعامك بانتظام.

6. تجوَّل في الأماكن الخضراء، للتّنفيس عنك.

7. قمْ بعملٍ مَّا تقدرُ عليه.

8. قم بأنشطة روحانيّة كالصلاة مثلًا.

9. تناول بانتظام دواء الاكتئاب الّذي وصفتُه لك.

10. زُرْني إذا ما عاودتكَ نوبات عصبيّة أو قلق حادّ.

وعندما غادر عيّاشُ الحفيان العيادة بدقائق، نظرتُ إلى موضِعِ تِمثال باخوس الخشبي الّذي اقتنيتُه من معرض التُّحَف. لم يكن هناك فوق المكتب. لقد اختفى.

# تهامي

**الأحد 22 ماي 1994**

التقينا بمقهًى قريبٍ من محطّة القطار «الأمير عبد القادر». كان تهامي في كامل أناقته، بحذاءٍ أسودَ لامعٍ وبنطلون جينز، وجاكيت من قماش «التّويد» يرتديها فوق قميصٍ أبيضَ ترك أزراره العلويّة مفتوحةً كاشفةً عن عشب صدرٍ يشهره أمامي كسلاح. وقد عرف، لا شكّ، من نظراتي المسروقة في العيادة، أنّ حقل صدره هو موطن ضعفي. بدا لي أكثر شبابًا، لا تظهرُ على ملامحه سنواته السّت والأربعون. أثناء سيره أمامي في اتّجاه مدخل المقهى، نظرتُ إلى قامتِه السامقة، وأطلتُ النظر إلى أذنيه اللتين بدَتا كبيرتين بشكل فاتِنٍ. تملّيتُ كتفَيه العريضتَين وياقة القميص البيضاء الّتي تُطِلّ من عنق الجاكيت وتستقرّ على جذع قفاه البارز. تأمّلتُ ظهره، مشيته، تلك اللّامبالاة الفاتنة بمَن حوله، ابتسامته الخفيفة وهو يشير إليّ بكفٍ مبسوطةٍ نحو الدّرج الصّاعد إلى صالةٍ، في الطّابق الأوّل، يطغى عليها لونٌ خشبيٌّ فاتحٌ يبعث على الاسترخاء والهدوء. اخترنا الجلوس إلى التّرابيزة الموجودة في الزّاوية قرب النافذة المطلّة على حركة الشّارع. كانت شفتاه تفتران عن ابتسامة مكابِرة، وشيءٌ مّا غامضٌ وبعيدٌ المنال يشعّ من هيئته. فانجرفتُ أتخيّل حجم السّعادة الّتي يمكن أن يمنحني إيّاها هذا الرّجل الّذي جاءتْ به إليّ عيادتي. فكّرتُ لحظتها في أنّ عليَّ الإنصاتَ للأنثى الّتي بداخلي، فأنسى أنّني طبيبةٌ نفسيّةٌ وأنّ رفيقي واحدٌ من مرضاي. حتّى لباسي كان متواطئًا مع الأنثى الّتي تسكنني، إذ ارتديتُ ثوبًا ربيعيًّا أبيضَ مبهجًا عليه

نقطٌ برتقاليّةٌ، وانتعلتُ حذاءً طويلَ الكعب بلون الكراميل، وعلّقتُ حقيبةً نسائيّةً سوداءَ على كتفي.

استند تهامي إلى طرف التّرابيزة بذراعه المثنيّة وهو يغمرني بنظرةٍ فاحصة. ارتشف من فنجان القهوة الّذي وضعه النّادل أمامه، وتحدّث:

- ألا ترين أنّ الجلسات العلاجيّة من الأجدى لها أن تكون في فضاءاتٍ عموميّةٍ مثل هذا المقهى، لا بين جدرانِ عيادةٍ تذكِّر الدّاخل إليها بأنّه مريض؟

مصصتُ أنبوبة عصير البرتقال حتّى منتصف الكأس، وتلمّظت، ثمّ أجبتُ بنبرةٍ فيها شيءٌ من السّخريّة:

- سيكون علينا حينَها إغلاق عيادات الطّبّ النّفسيّ لنجول بحقائبنا في الشّوارع والمقاهي بحثًا عن المرضى.

ضحك، فجاريتُه بابتسامةٍ حرصتُ على أن تكون فاتنة. لم تبدُ لي ضحكته صادقةً ولا عصبيّةً، كانت مزيجًا من الحاليْن، ضحكةً مكابِرةً اختلجتْ لها عضلاتُ وجهه الحليق، فتشكّلت تغضّناتٌ بارزةٌ في زاويتَي عينَيه.

أخرج سيجارةً من علبتها بدقّةٍ، وأشعلها بمهارة. ودخّن ببطء. وهو ما لم أكن أسمح له بفِعْلِه في عيادتي، رغم إصراره على التدخين في مناسبتَين أثناء المقابلة. ابتسم بزاوية فمِه، وقال:

- أنا ممتنٌّ لكِ على كلّ ما فعلتِه وتفعلينه معي لتجاوز أزمتي. أنتِ سيّدةٌ متفهّمةٌ تتحمّلين حماقاتي واتّصالاتي المتكرّرة على الهاتف. كيف سأشكركِ على إصغائك.. أزحتُ خصلةً سائبةً عن جبهتي (بالمناسبة، كان شعري مضمومًا إلى خلف على شكل ذيل حصانٍ)، وقلتُ مقاطِعةً جملته الأخيرة:

- لا عليك يا تهامي، إنّه عملي، وأنت، فوق هذا، رجلٌ طيّبٌ وتستحقّ عنايةً أكبر.

رأيتُ وقع عبارتي الأخيرة ينعكس في التماعة عينَيه. وسرعان ما انفرجتْ شفتاه عن ابتسامةٍ عريضةٍ، وشرع يغدق عليّ من ألوان المديح. هو مديحٌ في الظّاهر لكنّي حملتُه على الغزل:

- رهيفة الإحساس أنتِ، وذكيّةٌ ما شاء الله، إذ تعرفين كيف تداوين أعطاب النّفس الجريحة. وزيادةً على هذا فأنتِ لطيفةٌ دومًا. لقد تمنّيتُ لو مرضتُ بالاكتئاب من زمانٍ حتّى يأتوا بي لأعالَج على يدك!

ضحكتُ ملء قلبي، ضحكةً عاليةً لم أضحكها منذ مدّةٍ طويلة. صِدقًا، لم يُقَل لي مثل هذا الكلام النّاعم من قبل. صحيحٌ أنّ كثيرين أمطروني بعبارات الامتنان والحبّ الصّادق، لكنّي لم أسمع يومًا برجلٍ يتمنّى أن يصاب باكتئابٍ ليحملوه إلى عيادتي.

علتْ ضحكاتُنا في ذاك الرّكن الهادئ من المقهى. كانت العذوبة قد وجدت طريقَها إلى جلستنا الّتي استرسلت ما يربو عن ساعتين. امتدّت يد تهامي وتناولتْ يدي اليسرى فظهر بريق الرّغبة في عينَيه. بدت كفّي الصّغيرة كحيوانٍ مذعورٍ يحتمي بين جدران يده المعروقة. لكنّ

ارتعاشة الذّعر سرعان ما فارقتْ يدي الّتي أعلنتْ استسلامها وتواطؤها الفاضح. وهو يتحسّس يدي، لم يفته أن تلمّس الخاتم في خنصري (إلهي ما أغباني! كيف نسيتُ هذا في إصبعي؟!). وقبل أن يسألني، تداركتُ الأمر، فسحبتُ يدي بلطفٍ، ونزعتُ الخاتم بهدوءٍ أمام نظراته الممتنّة، وأخمدته في جيب حقيبتي. حينئذٍ سأل:

- زوجك يشتغل هنا بمكناس؟

«بفاس»، أجبتُ.

وأضفتُ: «تمرّ أسابيع طويلةٌ قبل أن أراه».

احتسى ما تبقّى في فنجانه، ودفع للنّادل وزاده إكراميّةً سخيّةً. ثمّ خرجنا من المقهى عند حدود السّابعة مساء، وقد بدأت الظّلمة ترمي بنُدفها على شوارع حيّ حمريّة. اقتادني إلى حيث رَكَنَ سيّارته بجادّةٍ قريبةٍ من شارع محمّد الخامس. ركبتُ إلى جواره، وانطلقتْ بنا السّيّارة في اتّجاه بيتي الواقع بحيّ ويسلان.

كانت الرّونو 19 تنعرج بنا يمينًا ويسارًا والرّاديو يصدح بمعزوفةٍ لباخ:

«إذا لم تحسنِ التّصرّف معي سوف أمنعكَ من القيادة في فترة العلاج»، أحذّره مازحة.

- ولكن كيف سآتي إلى عيادتِكِ كلّ أسبوعٍ يا سيّدتي إن أنتِ سلبتِ رخصة سياقتي.

- لن تأتيَ مشيًا على أيّة حال.

- حينها سيأتي دورك في الزّيارة.

- أزورك أنا في زرهون؟

- في إطار تقريب العيادة من المواطنين.

- مجنونٌ بالفعل.

سلكنا شارع محمّد الخامس بالسّيّارة. ولمّا بلغنا شارع الجيش الملكيّ انعطفنا يسارًا. ثمّ سرنَا على طول هذا الشّارع الكبير حتّى بلغنا ضواحي حيّ ويسلان. أوقف السّيّارة بعيدًا عن الفيلّا، في زقاقٍ أغلب فِلَله في طور البناء. ترجّلتُ وسبقته إلى الباب الخارجيّ. كنت أعرف أنّه سيلحق بي. وتعمّدتُ ألّا أدعوَه أو أطلب منه الدّخول.

اندفع الباب الحديديّ الموارب، ودخل تهامي أخيرًا. أغلق الباب خلفه وأجال عينَيه في جنبات الباحة الأماميّة مكتشفًا أشجارها ومغروساتها على ضوء المصباح الكهربائيّ المعلّق على واجهة الفيلّا. في إثر ذلك، دخلنا إلى صالة الجلوس. كان البرد يتسلّل من نافذتها المفتوحة، فاتّجهتُ صوبها وأغلقتُ دفّتَيها بإحكامٍ وأسدلتُ ستارتها. ولمّا استدرتُ، اصطدمتُ بهيكله الطويل. وبقوّةٍ، خفق سرب حمامٍ في قلبي.

ارتديتُ ثوبًا أبيضَ بلا كُمَّين عليه ورودٌ بنفسجيّةٌ وأوراقٌ فاتحةُ الخضرة قال زوجي إنّه يليق بي كثيرًا. ولم أزرّر الأزرار الثّلاثة العليا. وضع يدَيه الكبيرتَين على ذراعيّ العاريتَين. فنظرتُ إليه وكأنّها المرّة الأولى الّتي أنتبه فيها إلى طول قامته. استقَمتُ واقِفةً على أصابع رجليّ، ضمّني فما كاد رأسي يُجاوِزُ صدرَه. حطَّتْ يدُه اليسرى على خصري، ثمّ على تخوم وركي، في الوقت الّذي أرسلتْ فيه يُمناه سبّابتَها ووسطاها لتلامسَا

شفتيّ الغليظتين، ثمّ رفع باليد ذاتها ذقني ببطءٍ إلى أعلى. أفرجتُ شفتيَّ قليلًا كزهرةٍ متفتّحة. وكانت قبلتنا الأولى. وانسابتْ من مشغِّل الأقراص أغنية «قبلةٌ فرنسيّةٌ في أمريكا» للمطربة ديبورا هاري.

تلوّن فمه وذقنه بأحمر شفاهي الزّهريّ فضحك شيءٌ بداخلي سعيدًا بهذه الأختام الزّهريّة الّتي وقّعتْها شفتاي على صفحةِ وَجْهٍ اشتهيته مُذْ رأيتُه أوّل مرة. ثمّ امتدّ اللّون الزّهريّ من الذّقن إلى العنق ليختفي في النّهاية عند تخوم الصّدر المعشوشب. في البداية، تبادلنا المداعبة بشكلٍ خفيفٍ وانتباهٍ كأنّنا نخشى تكسير آنيةٍ كريسطاليّةٍ ثمينةٍ وُضعت أمانةً بين يدينا. كانت سكرة اللّقاء الأوّل تدير دواليب اللّحظة الّتي وقفنا شاهدَيْن، بأنفاسٍ محتدمةٍ، على عبورها الباذخ. أسندني برفقٍ إلى بياض السّرير وشرع يعزف بأنامله على مواطن وجعي.

## نهاية مذكّراتِ

## «باخوس في العيادة»

## بقلم تُهامي الإسماعيليّ

**الأحد 22 ماي 1994**

قفزتُ عاريًا من السّرير أبحث في جيب سروالي عن العازل الطبّيّ، بينما نوالُ لا تزال مستلقيةً على ظهرها تمضغ انتظارَها المعذِّب. كانت ساقاها القصيرتان مفتوحتَين تقريبًا، وركبتها اليمنى مسحوبةً إلى الأعلى، فاتخذتِ السّاقان زاويةً شبيهةً بالسّاعة العاشرة ليلًا وخمس دقائقَ الّتي تشير إليها عقارب السّاعة الحائطيّة المثبّتة فوقها على الجدار.

❃❃❃

إنّه ذاك المكر المتأصّل فينا نحن الرّجال عندما يتعلّق الأمر بالرّغبة في الاستحواذ على عالم أنثى. فنحن لا يكفينا أن نملك جسدَها وحفنةً من لياليها وكلماتِها العاشقة. بل يمتدّ طمَعُنا الآثم حتّى يطال شغفَها ذاته، فنسعى سعينا الحثيث لتجريدها منه، وتجريدها من كلّ أسلحتها، لإبقائها دائمًا في حاجةٍ إلينا، خشية أن تستغنيَ عن «خدماتنا». ولعلّ هذا ما حصل لي عندما وجدتُني أسلك أوعرَ السّبل لأحصل على مذكّرات طبيبتي النّفسيّة، فأسلبها إيّاها، لا لشيءٍ، وإنّما لأنّها

استطاعت وحسْبُ أن تصوّر ما عجزتُ عنه، ويعجز عنه كثيرون ممّن علّقوا خلاصهم بمشجب الكتابة.

كنتُ أعرف أنّ علاقتي بها آيلةٌ إلى زوالٍ، وأنّ كلّ عاشقٍ مفارقٌ، لكنّ شيئًا مّا أبقاني مشتّتًا وضائعًا ليلةَ قرأتْ لي صفحاتٍ من مذكّراتها. كانت جالسةً إلى مكتبها الأنيق. وشرعتْ تقرأ لي من حاسوبها مَقطعًا آسرًا. لستُ أدري لمَ رأيتُني، في سردها أضرِبُ في أرض الخيبات، وأنوء تحت ثقل الذّنب الّذي اقترفتْه يداي في حقّ فلذة كبدي. رأيتُني في سطور مذكّراتها عاريًا متعثّرًا في أوّل زيارةٍ إلى عيادتها، معلّقًا بين فكّيْ الرّجاء واليأس من الخلاص. رأيتُني في كتابَتِها مجرّدَ كومةٍ من الأحزان.

ثمّ أبصرتُني هدفًا سهلًا لأسهم رغبتِها الحامية. هل كان هذا كافيًا لأفكّر في الاستحواذ على مذكّراتها؟

في غرفة المكتبة أرَتني نوال كُتبها. بها رفوفٌ ممتدّةٌ من كتب علم النّفس والتّحليل النّفسيّ أغلبها بالفرنسيّة والإنجليزيّة. وفكّرتُ كيف تَصِلُ نوال إلى الرّفوف العالية بقامتِها القصيرة هذه؟ لا بدّ أنّها تستخدم كرسيًّا. وفي رفوفٍ جانبيّةٍ كانت ثمّة رواياتٌ لدوستويفسكي وآرثر كونان دويل ونجيب محفوظ ونوال السّعداوي وإيزابيل اللّندي وتوماس مان. تحدّثنا طويلًا عن رواية «موت في البندقيّة»، فأعربتُ عن إعجابي الشّديد بالطّفل تادزيو كما صوّرته براعةُ توماس مان، وقارنت نوال بين الرّواية وفيلم المخرج لوتشينو فيسكونتي الّذي يحمل العنوان نفسه قائلةً إنّ الفيلم، الّذي لم أشاهده حتّى الآن، لم يكن أمينًا للكتاب، ومن ذلك أنّ مسؤولي الماكياج بيّضوا بشرةَ أشينباخ بياضًا كاشفًا أساء إلى المشهد الأخير من الرّواية، مشهدِ موت البطل إثر نوبةٍ قلبيّةٍ وعينُه على تادزيو الّذي أجّج شهوته المنحرفة. ثمّ أضافت أنّ الفيلم أُنتج في

السّبعينيّات، وأنّ الكثير من أفلام هذه الفترة ظلّت تحفًا خالدةً لم يسلبها الزّمن شيئًا من قيمتها، وبالخصوص أفلام هيتشكوك. وقالت إنّ فيلمها المفضّل هو «سايكو».

جلستْ إلى المكتب المركون في زاوية الغرفة، وتمرجحتْ يمينًا ويسارًا بكرسيّها الدّوّار فبَدتْ مثل طفلة صغيرة تلعب. مدّت يدها إلى صندوق الوحدة المركزيّة الخاصّ بحاسوبها. ثمّ ضغطتْ على زرّ التّشغيل. ظهر إطارٌ في الشّاشة يطالبها بإدخال الرّمز السّرّي. ظللتُ واقفًا جنب المكتب أتابع حديثَها وحركاتها، وهي حركات ما أبعدَها من حركات الطبيبةِ الّتي تتقمّص صفتَها بالعيادة. اتّجهتْ أصابعها الصّغيرة تلقائيًّا إلى لوحة المفاتيح. رأيتها تضع سبّابتها اليمنى على الحرف P وسبّابتها اليسرى على الحرف S. بعدئذٍ، أضافتْ أحرفًا أخرى بحركةٍ سريعةٍ لم تُتِح لي تبيُّنَها.

فتحتْ ملفًّا خاصًّا بمعالج النّصوص «وُورد»، كان عنوان الملفّ «باخوس في العيادة». مرّرتِ الصّفحاتِ صُعودًا حتّى توقّفتْ عند فقرةٍ مكتوبةٍ بخطٍّ مضغوطٍ، وقرأتْ بصوتٍ مرتفعٍ:

***«منذ الجلسة الأولى شعرتُ باندفاعٍ تجاهه. وجدتُني مستسلمةً لحكيه. هو الّذي حمل إليّ وجعَه وإحباطاته بعد أن سقطتْ أمامه كلّ الخيارات. لستُ أدري لماذا ألفيتني أميل إليه هكذا ببساطة. ربّما لأنّه لم يبدِ اهتمامًا بي كعادة أغلب مرضاي الذّكور الّذين يحاولون في أكثر من مرّةٍ جرّي لأحدّثهم عن حياتي ولو قليلًا..».***

ومن دون أن أعرب عن إعجابي بأسلوبها السّلس في الكتابة، سألتها بنزقٍ:

- من يكون هذا المريض المحظوظ الّذي نالَ شرف الكتابة عنه في مذكّراتك؟

- باخوس. أنت.

قالتها وهي تضحك. واصلَتْ تَمرجُحَها على الكرسي الدّوّار، وأضافت مزهوّةً:

- لقد كتبتُ ما يزيد عن مائة صفحةٍ يا باخوسي مستعينةً غالبًا بالتّسجيلات الصّوتيّة الّتي سجّلتُها في الجلسات.

- مائة صفحةٍ كتبتِها كلّها عنّي؟

- عنكَ وعن مريضٍ آخر.

- هممم. يعجبكِ إذَن.

انحنتْ مجدّدًا أمام شاشة حاسوبها. ونقرتْ على رمز الإيقاف الأحمر. فتناهى إلى سمعي ذاك التّنبيه الصّوتيّ الّذي يرافق إيقافَ الحاسوب. ثمّ قالت وهي تترك المكتب متّجهةً صوب الباب:

- لا تغَر عزيزي. هو رجلٌ خمسينيٌّ دمّره سجنُ عشرِ سنوات.

- ما قصّته؟

- أُدينَ بالضّلوع في واقعة سرقة تمثال باخوس سنة ١٩٨٢. لقد كان حارسًا لموقعِ وَلِيلي الأثريِّ ليلةَ حدثت السّرقة. إنّه رجلٌ يحمل ندبات

محنة السّجن في جسده وفي جيوب ذاكِرةٍ لا تَنسى. عاش عذاباتِ العالمِ في أقبية الدّرك بمكناس قبل أن يُحاكَم بسَجنه كلّ هذه السّنوات.

في تلك اللّحظة بالذّات، ونحن نترك المكتبة، نبتتِ الفكرةُ في رأسي، فكرة حيازة هذه المذكّرات بأيّ ثمن. هي فكرةٌ خرقاءُ بالفعل، لكنّها فرصتكَ يا تهامي. مذكّرات طبيبةٍ نفسيّة. سَجينٌ عذّب واعتُقِل طوال عشر سنوات. قصّة إله الخمر المسروق. قصّة فقدِكَ النّازف وبَوْحِكَ المستفيض بقلم طبيبةٍ صارمةٍ وعاشقةٍ في آنٍ. إنّها مادّةٌ روائيّةٌ لا تخطئها عين الكاتب النّائم بداخلك.

❃❃❃

**السبت 28 ماي 1994**

في نهاية الأسبوع الموالي، حلَّ موعد لقائنا الثّاني في عقر دارها. قصدتُ الفيلّا ليلًا، وأوقفتُ سيّارتي عند منعطف الزّقاق حيث ركنتُها في المرّة السّابقة. ثمّ دخلتُ محمّلًا بقارورة نبيذٍ أبيضَ معتّقٍ انتقيتُها بعنايةٍ من متجرٍ بِحَمريةَ. عانقتني بدفء، وقبّلتْ فمي، ثمّ سحبتْني من ذراعي إلى طاولة المطبخ. قالت إنّها أمضت فترة انتظارها لي في إعادة ترتيب لوازم العشاء على الطّاولة، وقبل عشر دقائقَ من وصولي فتحتِ الباب الخارجيّ وتركته مواربًا.

ارتدَتْ ثوبًا بحمّالتيْ كتف. كانت كتفاها عاريتَيْن وطفوليّتَيْن. ألقيتُ نظرةً على صدرها الناتئ الّذي كان يظهر نصفه. بدا شهيًّا أكثر ممّا كان عندما لثمتُه في أوّل لقاءٍ، ليلة الأحد الماضي، بلهفة البدايات. صفّفتْ شعرها بدبّوسٍ على شكل فراشةٍ، ودهنتْ شفتيها الغليظتين الشّبقيّتين

بلونٍ زهريٍّ خفيفٍ، وكحّلتْ عينيها، فبدتْ أكثر إثارةً، وأكثر فوحانًا من العطر الّذي رشّتْ به فتنتَها.

أكلنا شرائح لحم العجل والسّلطة وشربنا النّبيذ. كنّا قد أتينا على نصف الزُّجاجة. أمّا النّصف الباقي فحملناه معنا إلى غرفة النّوم، هناك حيث صدحتْ موسيقى من مشغّل الأقراص الموصول بالتّلفاز المثبَّت في جدار الغرفة. كانت «أغنية بريفر» للشّاعر والفنّان والمخرج الفرنسيّ سيرج غينسبورغ:

Oh je voudrais tant que tu te souviennes

Cette chanson était la tienne

C'était ta préférée je crois

Qu'elle est de Prévert et Cosma

Et chaque fois les feuilles mortes

*Te rappellent à mon souvenir

بعد رحلةٍ عذبةٍ وشاقّةٍ في منافي اللّذّة، انطرحنا على السّرير مكدودَيْن من تعب التّمدّد والانثناء. انبطحنا نصغي لبقايا أغنيةٍ أخرى من أغاني سيرج غينسبورغ، ولم نكن في الحقيقة نصغي سوى إلى خواء جسدَينا

* آه كم أودّ أن تتذكّري/ هذه الأغنية كانت أغنيتك/ أظنّهاالمفضّلة لديك/ إنّها لبريفير وكوسما/ كلّما سقطت الأوراق الميّتة/ جعلتْكِ تستحضرين ذِكرايَ.

وقد انخمد شبقهما مؤقّتًا، في انتظار تقليعة نيرانٍ جديدة. من أيّ نارٍ قُدّت أنفاس هذه المرأة؟ من أيّ معدنٍ عُجن جلدها الحارّ كظهائر تمّوز المفرطة القيظ؟ امرأةٌ بهذه الحرارة حاشا أن تُهجر، حاشا أن يختار زوجها النّأي عن سريرٍ دافئٍ كهذا ليلةً واحدةً، فكيف به أن يعانق الغياب أسابيعَ بحجّة العمل؟ قامتْ نوال، وبحثتْ في دولاب الخزانة عن أشرطة أفلامٍ قديمةٍ أغلبها بالأبيض والأسود. أخذتْ شريط فيلم «المسحورة» لألفريد هيتشكوك، وزرعتْه في مشغّل الأقراص. وأطفأتْ مصباح الغرفة.

في ظلام الغرفة، ونحن مُستلقِيان على السّرير نشاهد الحبّ النّاشئ بين إنغريد برغمان ومريضها الفاقد الذّاكرة غريغوري بيك، التفتُّ إلى نوال. كانت غارقةً في نومٍ عميق. نظرتُ إلى وجهها الطّفْليّ على ضوء الشّاشة الخافت. ومسحتُ بيدي على وجنتها، فلم تأتِ أيّةَ حركة. لقد أسرفتْ في شرب النّبيذ.

كان مشهدُ إنغريد برغمان، وهي تستحثّ مريضها على تذكّر أحداث الحرب الّتي تسبّبت في إحراق يده، يُعرَض على الشّاشة عندما قمتُ متسلّلًا من السّرير تاركًا الفيلم يبعثر ضوضاءه وأضواءه الخالية من الألوان في فضاء غرفة النّوم. اتّجهتُ، حافيَ القدمين، إلى غرفة المكتبة. شغّلتُ الحاسوب، وانتظرتُ ثوانيَ قبل أن تظهر نافذة الرّمز السّرّيّ. كنتُ قد خمّنتُ الرّمز الّذي يبدأ بالحرفين P وS. فكتبتُ Psychiatre، لكنّه لم ينفتح. عندئذٍ رقنتُ على سبيل الاحتمال Psychologue، ولم ينفتح. فكّرتُ ثوانيَ، وكتبتُ Psycho، فانفتح. في تلك اللّحظة تذكّرتُ أنّه عنوان فيلم نوال المفضّل. رجعتُ إلى غرفة النّوم ماشيًا على رؤوس الأصابع. وأخذتُ منجيب الجاكيتة قرصًا ممغنطًا مَرِنًا

(Disquette) كنت قد أعددته للمناسبة. أدخلتُ القرص المَرِن في الفتحة المخصّصة له بصندوق الوحدة المركزيّة، ونسختُ ملفّ الوُورد المعنون بـ«باخوس في العيادة». ثمّ أخرجتُالقرص الممغنط وأعدتُ إدخاله وتشغيله. وعندما تأكّد لي أنّ النّسخ تمّ بنجاحٍ، مسحتُ الملفّ من الحاسوب.

❃❃❃

**السّبت 18 يونيو 1994**

في جلستِنا الأخيرة، جلسةِ السّبت، تظاهرَ كلانا بلعب الدّور الّذي من المفروض أن يلعبه داخل العيادة. كلانا كان مُتَصَنِّعا؛ إذ وقفت لقاءاتُ البيت الثّلاثةُ بيننا كحاجزٍ زجاجيٍّ مَنَعَنا من أن نتصرّف بصفتيْ مريضٍ وطبيبة. علاوةً على أنّ البرود جثم على لقائنا الثّالث في الفيلّا، والسّببُ حزنُها على فقْد مذكّراتها وانمحائها من ذاكرة الحاسوب.

في نهاية المقابلة لم أتمالك نفسي فقلتُ لها إنّني لا أجد فائدةً في جلساتنا، وأن لا شيء يتغيّر في حالتي النّفسيّة، حتّى إنّها فشلتْ في إقناعي بالعودة إلى معانقة الكتابة، كتابةِ مذكّراتي على الأقلّ. قالت إنّ الأمر يحتاج إلى مزيدٍ من الوقت حتّى تظهر نتائج العلاج، وإنّ هناك أشياء كثيرةً ما تزال عالقةً لم نتحدّث عنها بصراحة. ونظرًا إلى تكتُّمي وتهرّبي من بعض أسئلتها، اتّهمتني بالجبن والتّخاذل، وقالت إنّني أتهرّب من الماضي، ومن الذّكريات والألم الّذي لا يمكن إنهاؤه إلّا بمواجهته. وعندما سألتها عن المدّة الّتي يمكن أن يستغرقها العلاج، قالت إنّني بحاجة إلى علاجٍ طويلِ المدى. وقد يستغرق سنةً أخرى قبل

الوصول إلى النّتائج المرجوّة. فضحكتُ ساخرًا، وخرجت. سوّيتُ الحساب مع المساعدة راضيةً. وتركت العيادة دون أيّة نيّة في الرجوع.

وأنا أغادر مصعدَ العمارة 27 الكائنة بشارع ابن سينا، بحيّ المنزه، غمرني شعورٌ بفراغٍ وسكينةٍ لم أفهم طبيعتهما لحظتئذ. كان شعورَ رجلٍ طرح خلفه كلّ أحزانه ومضى. وبدلًا من اجترار شريط المقابلات والغوايات مع طبيبتي النّفسيّة، انصرف ذهني إلى التّفكير في مقابلة الغد الّتي انتظرَها المغاربة بفارغ صبر، مقابلةِ المنتخب الوطنيّ ضدّ نظيره البلجيكيّ في منافسات كأس العالم المنظَّمة بالولايات المتّحدة الأمريكيّة. لكنْ بما أنّ المباراة ستُلعب غدًا مساءً، فلن أعود لتوّي إلى زرهون. سأقضي نهاية هذا الأسبوع بمكناس. ومن الغد، سألتحق بمقهاي الأثيرِ بحيّ الرّوى لأحجز مقعدي قبل ساعاتٍ من بثّ المباراة.

**انتهت مذكّرات باخوس في العيادة**

# ليالي وَلِيلي

## (رواية)

## أريادنا نوِيل

## جواد

**الأربعاء 15 نونبر 1995**

في عطلة الصّيف الماضية فرغتُ من كتابة رواية الفتى الموريّ، لتُنتزع منّي في منتصف شتنبر على ذلك النّحو الدّراميّ. وفي أواخر ذاك الشّهر (شتنبر) هبَّت عليّ نسمات أريادنا. ولم تكد تُمضي بقُربي سوى أسبوعَين حتّى غابت عن النّزل واستقرّت ببلدة زرهون وباتتْ لا تَزورني إلّا لمامًا.

هذه المرّة، سيزورني الحلم المتكرّر على نحوٍ متطرِّفٍ، على نحوٍ شاذّ. لقد سرقني الحلم وأخذني معه خيالًا وجسدًا إلى قلب أنقاض المدينة الأثريّة المجاورة لمسكني:

**حلم ليلةٍ من ليالي الخريف - 15 نونبر 1995 (النّسخة الخامسة - السّرنمة)**

رأيتُني، فيما يرى النائم، بعد منتصف اللّيل. رأيتني أخرج من البيت وأقصد البوّابة الشّماليّة. وهناك، تحت ضوء قمرٍ شديد السّطوع، لاحت لي المرأةُ السّمراء مطارَدةً من طرف جحفلٍ من الخفافيش.

وعندما دلفتْ من تقويسة البوّابة، رأيتها تسير بضع خطواتٍ في الشّارع الرّئيس الّذي يشطر المدينة. في الواقع، لم تكن مدينةً كما عهدتها في الأحلام السّابقة، كانت مجرّد أنقاضٍ وخرائب. انعطفتِ المرأة إلى اليمين وسط خرائب الحيّ الغربيّ. ظللتُ أتبعها، فاستغرقتْ ملاحقتي لها وقتًا أكثر ممّا استغرقته في حلقات الحلم السّابقة. كنت أستدلّ بسحابة الخفافيش الّتي تحلّق خلفها. فجأةً، توقّفتُ عند جدارٍ متهدّم. ومن هناك رأيتُ طيف رجلٍ يتقدّم نحو المرأة، ويسحبها إلى باحةٍ بين الخرائب. وهناك تعانقا غير مكترثيْن بسرب الخفافيش الّذي لفّهما بدثارٍ أسودَ. وسرعان ما يختفي كلّ شيءٍ ويتبخّر كدخان. اقتربتُ من تلك الباحة. وما إن وقفتُ في المكان الّذي تبخّر فيه الرّجل والمرأة حتّى أحسستُ بقدميّ تهويان فجأةً من تحتي إلى أعماق الأرض. واستيقظت.

أفتح عينيّ، فأجدني وسط أكوامٍ من الحجارة. أرفع رأسي. كان ضوء القمر فوقي ساطعًا ينير أنقاضَ بناياتٍ من حولي. يا للغرابة! أنا الآن في قلب موقع وَلِيلي الأثريّ!

لا أدري أَحُلمًا كان أم كابوسًا؟ كان حلمًا واقعيًّا حيويًّا إلى درجة عجزي عن تفسيره تفسيرًا منطقيًا. شعرتُ بأنّ حدثًا بهذه القوّة والحيويّة لا يمكن أن يكون مجرّدَ حلم. إنّها سرنمةٌ رهيبةٌ تلك الّتي حملتني من غرفة نومي إلى هنا. سرنمةٌ تخطّت حواجز الحلم لتتوقّف عند حدود الواقع الفيزيائيّة. لقد خرجتُ من البيت، ثمّ من الحوش وأنا نائمٌ، وسرت وأنا نائمٌ أحلم بأنّني أسير. كنتُ مسرنمًا، غائبًا عن الوعي، أمشي في آخر الليل. اخترقتُ السّياج المحيط بالموقع الأثريّ، ودلفتُ من البوّابة الشّماليّة متوهّما أنّي أقتفي طيف المرأة السّمراء. وانتهت بي السّرنمة إلى هنا.

ها أنا أَلْتفِتُ يمنةً ويسرة. كان ضوء القمر ساطعًا. فجأةً، أقف، لأنفض ما علق بثوبي من ترابٍ وأنفض ما علق بجفنيّ من بقايا النّوم. فأجدني وسط مستطيلٍ حجريٍّ يرسم بقايا صالةٍ عريضةٍ أرضيّتُها مغطّاةٌ بحشائشَ يابسةٍ وبأكداسٍ من الحجارة. أخطو نحو زاويةٍ من زوايا الجدار المتهدِّم، ثمّ أعتلي الجدار الخفيض، وأُجيل نظري في المكان: على بعد أمتارٍ منّي يقف قوس النّصر ومعبد الكابِّيتول شاهدَيْن على الزّمن الوَلِيليِّ الغابر. على مقربةٍ منهما تنتصب بقايا محكمة البازيليكا الرّومانيّة غير آبهةٍ بليالي القرون الآفلة. وجدتُني وسط الحيّ الغربيّ في باحة بيتٍ لم يتبقّ منه سوى أجزاءِ حيطانٍ حجريّةٍ منطمسةِ المعالم، جالسًا على حجرٍ مسطّح. وعلى حين غرّةٍ، تذكّرت الفسيفساء. واندلع صوتٌ متسائلٌ بداخلي:

ماذا لو كان هذا الحلم العاصف دليلي إلى الفسيفساء المفقودة؟

ماذا لو كانت سرنمتي الفارقة رسالةً غامضةً تقودني إلى فكّ شفرة التّابلوه الفسيفسائيّ غير المكتمل؟

غادرتُ خرائب الموقع تحت ضوء القمر، واتّجهتُ مسرع الخطى مصحوبًا بذهولي إلى البيت. وجدتُ باب الحوش مفتوحًا، وباب البيت مواربا. فدخلتُ ودلفتُ مباشرةً إلى غرفة النّوم، وانحشرت سريعًا في الفراش محاولًا عبثًا أن أنام. ولم يَزُرْني النومُ. رفعتُ عنّي الغطاء، وتركتُ السّرير.

اتّجهت إلى الحمّام حيثُ مسحتُ وجهي بيديّ المبلّلتيْن وأنا أتملّاه في المرآة: كان وجهًا صخريًّا خاليًا من أيّ تعبير. إثر ذلك وقفتُ في الرّدهة ورفعتُ عينيّ إلى ساعة الجدار. لم تكن عقاربها قد جاوزتِ الثّانية بعد

منتصف اللّيل. وضعتُ المعطف المبطّن فوق كتفي، وخرجتُ إلى الحوش لأدخّن سيجارة. ومن حسن حظّي هبّتْ نسمةٌ محمّلةٌ بأريج الأصص المصفوفة في جذع الجدار فأنعشتْ رأسي ونفضتْ عنها بعض آثار السّرنمة الرهيبة.

وأنا أدخّن مقرفصًا في الحوش وظهري إلى جدار البيت، عادَني ذلك الإحساس الغريب. أحسستُ بذلك الحضور القويّ حولي. كان ثمّة ما يُشبه هيمنةً تُمارَس عليّ. تُمارسُها «ذاتٌ» مّا، شخصٌ يُراقبني من نُقَط الظّلال الّتي لا يصل إليها ضوء القمر، من نُقطٍ وهميّةٍ في الهواء، شخصٌ قد يكون سارقًا، أو كاتبًا.. نعم، هو شيءٌ أشبه بهذا. كيف غابَ عنّي أن أفكّر في هذا الاحتمال؟!

لقد انتابني شعورٌ غامضٌ بأنّني دميةٌ في يد كاتب. لقد أحسستُ في تلك اللّحظة، على نحوٍ بالغ الالتباس، أنّني شخصيّةٌ في رواية. لكنْ من يكتُبُني في هذه اللّحظة؟ سألتُ نفسي. لا بدّ أنّ هناك كاتبًا راكنًا الآنَ إلى طاولته يحرّكني مثل دميةٍ، يتلاعب بخيوط وجودي على نحوٍ خارق، ويغيّر حياتي على هواه. ماذا لو كان هذا الكاتِب المفترَض هو المسؤول عن خلق ذلك المسلسل الحلميّ المريب الّذي لازم لياليّ هنا بوَلِيلي؟ ماذا لو كان هو مبدع السّرنمة الغريبة الّتي أخذتني على نحوٍ لا يُصدّق إلى قلب الموقع الأثريّ؟ إذا كان الأمر كذلك فأنا لستُ جوادًا الواقعيّ، بل صورته الورقيّة فقط!

# أريادنا

**الأحد 26 نونبر 1995**

في البيت الجديد، ببلدة زرهون، ضبطتُ إيقاعَ اشتغالي بالرّواية. كنتُ أعمل من الصّباح إلى المساء دون أن أنتظر شيئًا اسمه الإلهام ليغمرني. فليس أمامي سوى شهرٍ وبضعة أيّامٍ قبل حلول آخر أجلٍ لتسليم الرّواية لدار النّشر كما ينصّ العقد الّذي أمضيتُه.

هنا، في هذا البيت التّقليديّ الدّافئ ذي الطّابع المكناسيّ، استأنفتُ رحلة الكتابة: أشغّل جهاز الحاسوب،وأفتح معالج النّصوص وأهجر عالمي الواقعيّ. صرتُ أكتب بمعدّل ستّ ساعاتٍ في اليوم. فلم تعد الكتابة عندي وقتًا للتّسلية، بل صارت طريقةً خاصّةً في العيش كما قال فلوبير. ما كان أمامي وقتٌ لأضيّعه، وحتّى جواد (الشّخصيّة الواقعيّة في روايتي) لم أتّصل به منذ مدّة، ولم أُطلِعْه على عنوان البيت. ومن ثَمَّ فكّرتُ في أن أزوره، وانتظرتُ حلول يوم الأحد، حين يكون في عطلة.

كان ذاك الأحد مشمسًا والسماء صافيةً لا أثر فيها لغمامة. وقد غدت حاجةُ القرويّين ماسّةً إلى المطر. كنت قد هاتفتُ جوادًا من مركز اتصالاتٍ عموميٍّ وأخبرته بقدومي. ثمّ ركبت ناقلةً قديمةً مع قرويّي فرطاسة أنزلتني أمام نزل «وَليلي» حيث وجدتُه ينتظرني. عانقني بمودّةٍ وشوق. فتأبّطتُ ذراعه وسرنا في المسرب بين شجيرات الزّيتون في اتّجاه البيت الأعزل.

في البدء، تردّد في أن يرويَ لي الحلم المتسلسل الّذي ظلّ يزوره في ليالي هذا البيت، ذاك الحلم المتشعّب الّذي لم يكن يَحْلو له أن يُمليَ عليه فصولَه المكرورة إلّا وهو نائمٌ في غرفة الفسيفساءِ. فسيفساءُ بات مؤكّدًا أنّها منهوبةٌ من الموقع الأثريّ المجاور. لكنّه في النّهاية حكى عن ذاك الحلم «الواحد» المتسلسل الّذي سينتهي بسرنمةٍ رهيبةٍ أخذته ليلًا إلى أنقاض المدينة الأثريّة.

كنتُ أنصت إليه بكلّ جوارحي، بينما يسرد تفاصيل حلم ليلةِ الأربعاءِ ما قَبل الماضي. لم أستغرب أمر السّرنمة. لقد صدّقتُها على كلّ حالٍ، فتساءلتُ:

- ولكن كيف عبرت السّياج؟

- ثمّة منافذُ كثيرةٌ في السّياج، في الجهة الشّماليّة بالخصوص، عادةً ما يسلكها عمّال صيانة الموقع اختصارًا للمسافة.

- وكيف تؤمن بأنّ هناك جزءًا من الفسيفساء مدفونًا تحت أنقاض تلك الصّالة الّتي أخذتك إليها السّرنمة؟

- لديّ إحساسٌ كبيرٌ بذلك. لقد تكرّر الحلم خمس مرّاتٍ، ولا بدّ من أنّ هناك طاقةً للفسيفساء لا يمكن تفسيرها هي المسؤولة عن إرسالي مسرنمًا إلى هناك. حصل الأمر كما لو أنّ لتلك الفسيفساء إرادةً أخضعتني لها، فسرتُ منوَّمًا صوب خرائب تلك الصّالة الحجريّة بالذّات. لا شكّ في أنّ فسيفساء البيت هي الّتي أوحت إليّ بالأحلام. ثمّة نداءاتٌ ظلّت الفسيفساء تبثّها عبر الحلم، هي نداءات المرأة السّمراء المصوَّرة بتلك الوضعيّة. أحسّ كما لو أنّ روحها ظلّت مسجونةً بين

حصيّات الفسيفساء. ربّما تريد العودة إلى الموقع، أو تريد، على الأقلّ، أن أرفع الأنقاض عن الفسيفساء المدفونة، أو تريدني، بشكلٍ من الأشكال، أن أكشف اللّثام عن حقيقةٍ خبيئةٍ طيَّ الأزمنة الغابرة. بدا لي كما لو أنّ هذه الفسيفساء تسخّرني لمهمّةٍ عظيمة!

# جواد

**السبت 9 دجنبر 1995**

رافقتني أريادنا في زيارةٍ رسميّةٍ إلى الموقع الأثريّ نهايةَ أسبوعٍ مشمس. ولجناه من البوّابة الجنوبيّة الرّئيسة. كان هناك سيّاحٌ كثيرون حجّوا إليه فرادى وجماعاتٍ، تناثروا هنا وهناك يرافقهم أدلّاء لا يتوقّفون عن إسهاب حديثٍ مكرورٍ حولَ تفاصيل المكان بكلّ اللغات. لم نعرِّج كعادة أغلب السّيّاح على معرض التُّحف الكبير الّذي نُصِبَتْ خيامُه، مؤقّتًا، في مدخَلِ البوّابة الشّرقيّة. ولم نتوقّف لتملّي الأرضيّات الفسيفسائيّة الباهرة في قصر كورديانوس، ومنزل أعمال هرقل، ولا أطللنا على منزل فينوس لتأمُّل مشهد اختطاف هيلاس من طرف الحوريّات أثناء بحثه عن مياه الشّرب. ولا استوقفتنا أنغام أورفي الطالعة من فسيفساءَ بديعةٍ تصوِّرُه وهو يعزف للحيوانات المتحلِّقة بسِحر موسيقاه. سرنا رأسًا والشارعَ الكبير الّذي يشطر المدينة. ثمّ عرّجنا يمينًا متوغّلَيْن بين الخرائب، لنتوقّف في مدخل الصّالة الحجريّة الّتي كانت أبعادُها وأحجارها منطبعةً في ذاكرتي. نظرتُ إلى أريادنا فوجدتُها مستثارةً تنظر بعين خبيرةٍ إلى زوايا المستطيل الحجريّ وتمسح أرضيّته بإمعانٍ، ثمّ غرفتْ حفنةً من ترابٍ يميل إلى البياض، وتفحّصته قائلةً:

- إنّه خليطٌ من جيرٍ وترابٍ رمليّ. فقديمًا، كان صنّاع الفسيفساء الرّومان يُعِدّون فرشةً سميكةً بِمُلاطٍ من الجير والرّمل. وعندما يجفّ السّطح المستوي، يصير صالحًا لرصف المكعّبات أو دمج تبليطاتٍ

فسيفسائيّةٍ جاهزةٍ يكونون قد أعدّوها على تبليطاتٍ جصّيّةٍ أو قطعٍ رخاميّةٍ، أو على قطع خشبٍ مسطّحةٍ مغلّفةٍ بالقماش.

- هذا يعني أنّ فسيفساءَ قديمةً انتُزِعَتْ من هذه الأرضيّة؟

اكتفتْ بتحريك رأسِها الأشقر بما يفيد الإيجاب، وأخرجتْ من حقيبتِها مُسْطَرِين ذات شفرةٍ معدنيّةٍ مثلّثة. ثمّ انحنتْ على الأجزاء الرّخوة من تربة الأرضيّة تقلّبها بأداتها العجيبة. وسرعان ما طفقت بهمّةٍ وخفّةٍ تجرف التّربةَ وكأنّ ذلك أكثر الأشياء ألفةً لديها. ساعدتُها في إزالة حجرٍ كبيرٍ غائرٍ في التّربة، فناولتني الأداة المعدنيّة وشرعتُ أحفر مكانَ الحجر. كنتُ قد سحبتُ كمّيّةً هائلةً من التّراب عندما طالعتني صفوفٌ من الحُصيّات الملوّنة المتراصفة، ولمّا رأتها أريادنا أطلقتْ صيحةً جذِلةً، فطوّقتني بذراعيها وقبّلت خدّي.

كانت أكوامٌ هائلةٌ من الحجارة الضّخمة تغطّي نصف الصّالة. والنّتيجة أنّنا لم نتمكّن إلّا من إظهار جزءٍ ضئيلٍ من الأرضيّة المكسوّة مكعّباتٍ. تنبّهنا لأنّنا تأخّرنا في المكان. وحتّى لا نثير انتباه الحارس المتجوّل، انسحبنا وغادرنا الموقع وسرنا على الأقدام في اتّجاه البيت الأعزل ونحن نفكّر في طريقةٍ لحفر الأرضيّة وتعرية بقيّة الفسيفساء.

**الأحد 10 دجنبر 1995**

مساء اليوم التّالي تركتُ أريادنا تعدّ قهوتها المركّزة بمطبخي، وخرجتُ جوار البيت ألقي نظرةً على الشّمس المُزمِعة على الغروب. تمشّيت لحظاتٍ بين الزّيتونات المحيطة بالبيت. ثمّ رفعتُ عينيّ نحو فضاء الموقع. فلَاحَ لي المهدي الحفيان خارجًا من البوّابة الشّرقيّة عائدًا إلى

فرطاسة. هو شابٌّ في نهاية عشريناته يشتغل عاملًا بالموقع الأثريّ منذ سنتَين كما حكى لي سابقًا، إذ قادنا تقاطُعُنا المتكرّر في الطّريق إلى التّعارف. في الصّباح، في الغالب، لمّا أكون متّجهًا إلى المدرسة، يكون هو نازلًا من فرطاسة إلى الموقع، فنلتقي. نتبادل التّحيّة ونتجاذب أطراف الحديث. حكى لي عن أبيه المدعو عيّاش الّذي سُجن عشر سنواتٍ بسبب تهمة المشاركة في سرقة تمثال باخوس. وقال المهدي إنّهم شغّلوه عاملَ صيانةٍ في الموقع تعويضًا بائسًا لجبْر ضرر أبيه الّذي سُجِن ظُلمًا. سرتُ نحو المهدي ورافقته حتّى منتصف المسافة بين بيتي ومركز القرية، ثمّ عدتُ أدراجي، وذلك بعد أن استضفتُه على كأس شايٍ بباحة نزْل «وَلِيلي»، واتّفقنا على اللّقاء هناك بعد ساعةٍ للتّحدّث في موضوعٍ «مهمٍّ» كما قلتُ له.

وعندما حلّ الظلام، وصل المهديّ إلى النزل. كنتُ هناك بمعيّة أريادنا، فانضمّ إلى طاولتنا. عرّفته عليها. ثمّ فتحتُ موضوع الفسيفساء الّتي اكتشفناها، وأريناه الصُّوَر الملتقطة لتابلوه فسيفساء اللّوفر وفسيفساء البيت. عرضتْ أريادنا على المهدي مبلغًا سخيًّا مقابل أن يزيح الأنقاض عن الفسيفساء المدفونة تحت أحجار الصّالة المستطيلة الواقعة بالحيّ الغربيّ. تردّد في البدء، ولكن عندما أفصحنا له عن نوايانا وأخبرناه بأنّنا لا نريد غير التقاط صورٍ لإكمال بحثٍ علميٍّ تجريه أريادنا حول الفسيفساء، وعدَنا بأن يفكّر في الأمر.

**الاثنين 11 دجنبر 1995**

في الغد، مساءً، رافقتُه إلى الحيّ الغربيّ وأريتُه موضع الفسيفساء. قبِل المهدي القيامَ بالمهمّة بسبب المبلغ المغري، وربّما قبِل لسببٍ دفينٍ في نفسه يتعلّق بالظّلم الّذي لحق أباه. دفعتْ له أريادنا نصف المبلغ

مقدّمًا. واشترط أن يأخذ وقتًا كافيًا، ففي كلّ مرّةٍ سيحفر قليلًا، حتّى لا ينتبه إليه أحد.

منذ أن بدأ المهدي حفرَه السّرّيّ، طيلة أسبوع كامِلٍ، وأنا أتسلّل كلّ مساء، في غفلةٍ من الحارس النّهاريّ، إلى الصّالة الحجريّة الّتي أخذتني إليها السّرنمة. وفي كلّ مرّةٍ كانت تتكشّف جزئيّةٌ من الفسيفساء بدءًا بالزّخارف الهندسيّة الّتي غطّت الجزء الأكبر من التّبليطة الفسيفسائيّة.

**السبت 16 دجنبر 1995**

في آخر الأسبوعِ، يوم السبت، عدتُ فوجدتُ الشّكل الرّهيب قد خرج من تحت الأنقاض: تصويرٌ فظيعٌ فيه الكثير من تهويمات الحلم الّذي راودني. أيُّ رَوْعٍ وأيّة غرابةٍ تكتنف هذه التّبليطةَ من الموزاييك؟! كانت طعنةً نجلاءَ في صدرِ رجلٍ أبيضَ يلبس رداءً أحمرَ فاخرًا عُرف به قادة روما يسمّى التّوجا. نصف السّيف يغشى الصّدر تاركًا بقعة دمٍ قرمزيّةٍ كختمٍ على نهاية حياة. على الوجه المدوَّر نظرة فزعٍ، نظرة احتجاجٍ يائسٍ، نظرة شخصٍ يتلمّظ مرارةَ الخذلان، نظرة من يطرق باب الموت بقبضةٍ غير واثقة.

نظرت إلى أسفل الفسيفساء. كانت هناك حروفٌ لاتينيّةٌ رُصفتْ بحُصيّاتٍ سوداء وسط مُتّسع من البياض:

**ROMANOS**

ورغم أنّي لا أجيد اللّغة اللّاتينيّة، بدا واضحًا أنّ الكلمة تحيل على «الرّومان». لكنّي عندما أمعنت النّظر في طريقة كتابة الأحرف اللّاتينيّة

السّبعةِ، أيقنت أنّ هذه الكلمة ما هي إلّا تكملةٌ لكلمَتَيْ فسيفساء غرفتي وفسيفساء اللّوفر، لأنّ تبليطة الفسيفساء هذه هي الجزء الأوسط المكمِّل للوحةٍ كبرى، لتابلوهٍ فسيفسائيٍّ كبيرٍ يجسّد مشهدَ اغتيالِ محاربٍ موريٍّ لقائدٍ رومانيٍّ، أمام دهشة امرأةٍ سمراء.

# أريادنا

**الأحد 17 دجنبر 1995**

وهو يراقب ردّ فعلي، وقفتُ على أرضيّة الفسيفساء المكشوفة حديثًا مسلَّحَةً بآلة تصوير. التقطتُ لها صورًا من زوايا متعدّدةً، ثمّ قرأت الأحرف اللّاتينيّة أسفل التّبليطة، وأعدتُ قراءتها بعد أن وصلتُها، في دماغي، بكلمتَيْ التّبليطتيْن الجانبيّتيْن المنتزَعتيْن. فاستوى تَركيبُها هكذا:

**MAURI ROMANOS VICERUNT**

وسرعان ما ترجمتُها:

**الموريّ يتغلّب على الرّومان**

أو:

**الموريّون يتغلّبون على الرّومان**

تأمّلتُ صيغةَ التّرجمة الأخيرة، وطفرتْ منّي صيحةُ ذهولٍ:

- واو! أيمكِن هذا؟ هذه الفسيفساء تنطوي على ما يشبه نبوءة!

«نبوءة!» نطق جواد كلمتِي الأخيرة بنبرة استغراب. وحاولتُ أن أشرح:

- لو افترضنا أنّ اللوحة الفسيفسائيّة ترجِعُ إلى القرن الثاني، كما يؤكِّد جُزؤُها الموجود باللوفر، فقد تنبّأ صانعُها بِتَغلُّبِ الموريّين على الرومان، وبذلك تنبّأَ بانتهاء الوجود الرومانيّ بموريتانيا الطنجية قبل حدوثه!

- لا يمكن. لا أعتقد أنّ في الأمر نبوءةً.

- ولكنْ.. لماذا يا جواد؟

- التاريخ يقول إنّ المقاومة الموريّةَ رغم ضغطها وانتصاراتِها المؤقّتة، لم تُفلح في دَحرِ الرومان. وإنّ انجلاء هؤلاء الغزاةِ من موريتانيا، بصفةٍ نهائيّةٍ، لم يأتِ إلّا على يد الوندال الذين أطاحوا بالحكم الرومانيّ في شمال إفريقيا بدايةَ القرن الخامس. لذا أستبعِد احتمالَ النبوءةِ. هذه الفسيفساء أراها مُجرَّدَ تجسيدٍ لحُلمٍ من أحلام الموريّين، حلمٍ بالانعتاق، حلمٍ وطَّنُوهُ في هذه الفسيفساء، على هذه الصّيغة المعبِّرة والمُلغِزة في آنٍ واحدٍ.

- وما قولك في المرأة السّمراء؟ ما دخلها في موضوع اللّوحة؟

- أرى إقحامَ المرأة هنا رمزيًّا. المرأة السمراء هنا مجرّد رمزٍ إلى الكيان الموريّ لا غير، رمزٍ إلى العِرق الموريّ وخصوبتِه، خصوبة النسل والأرضِ على السّواء، الأرضِ الموريّة الّتي سلبها الرّومان منذ مقتل بطليموس على يد الإمبراطور كاليغولا سنة ٤٤ ميلاديّةً، الأرضِ الّتي أثارت أطماع الرومان فامتلكوها بالقوّة، واستغلّوهابلا هوادة. ومن ثمّ تاق الموريّون إلى تخليصها من قبضة الغزاة.

# نهاية «ليالي وَلِيلي»

## بقلم أريادنا نويل

لقد تمكّنتُ من جمع صورٍ لأجزاء التّابلوه الفسيفسائيّ الكبير الثّلاثة، تابلوه غالٍ جدًّا لا يُقدَّر بثمنٍ، تابلوه يؤرّخ لفترةٍ سياسيّةٍ حرجةٍ كانت فيها المقاطعة الرّومانيّة «موريتانيا الطّنجية» تحت ضغط ثوراتِ القبائل الموريّة. أمّا جواد فلم يتوقّف عن التّسلّل إلى الموقع لمعاينة الفسيفساء وتأمّل المشهد الصّادم الّذي كان ينبعث من الأرضيّة حيًّا، نابضًا بحياةٍ آفلة.

وذات صباحٍ، عرّج جواد على الموقع. قصَد خرائب الحيّ الغربيّ، ووقف على أنقاض الصّالة الحجريّة المستطيلة. وكانت مفاجأته الصّادمة أنّه لم يجد في أرضيّتها غير قطع الزّخارف الهندسيّة وبقاياها. أمّا تبليطة الفسيفساء النّفيسة الّتي تصوّر القائد الرّومانيّ المطعون في صدره فقد اختفتْ. لقد انتُزعتْ، وظلّ مكانَها إطارٌ مستطيلٌ من التّربة الرّمليّة الممزوجة بالجير!

وفي منتصف اللّيلة الّتي تلَتْ زيارتَه الأخيرة للموقع، سمعَ جواد دقًّا عنيفًا على باب بيته الأعزل. ومع الدّقّات العنيفة كان يرتفع صوتٌ جهوريٌّ يأمره بفتح الباب!

**انتهت رواية ليالي وَلِيلي**

# مُلحَقُ الفسيفسائيِّ
# بقلم تُهامي الإسماعيليّ

«وفاة امرأةٍ جميلةٍ هو حتمًا الموضوع الأكثر شاعريّةً في العالم».

إدغار ألان بو

# تُهامي

**السّبت 16 شتنبر 1995**

معي الآن مخطوطتان، قطعتان فنّيّتان، تحفتان فسيفسائيّتان: «باخوس في العيادة» و«الفتى الموريّ». يمكنني أن أمزجهما، وأصنع منهما روايةً واحدةً بخطّين سرديَّين متوازيَين يتقاطعان في النّهاية.

بعد انتهائي من عملي يوم السّبت، قبيْلَ الظّهيرة، أغلقتُ باب الإدارة، وأعطيتُ الحارس جبيلو آخرَ التّعليمات ليسقيَ الشّجيرات المغروسة حديثًا في جنبات السّاحة، ويُشرفَ على المنظّفتيْن اللّتيْن ستأتيان مساءً لكنس الحُجرات بعد خروج التّلاميذ. وأنا على متن سيّارتي في طريقي إلى مكناس، تذكّرتُ فجأةً لينا. فقد مرّ شهرٌ تقريبًا على آخر حديثٍ لنا عبر الهاتف. كنتُ قد طمأنتها بأنّ الخطة تسير بشكل جيّد، وقلت لها إنّ المخطوطة ستكون معي عمّا قريب. مرّت بذهني هذه المكالمة وأحاديثُ طويلةٌ غزلناها في الهاتف. وعندما بلغتُ مشارف مدينة مكناس، ظَهَرَ أمامي فجأة، وسْطَ الطريق، كلبٌ ضالٌّ أسودُ فدهسته. لم أفرمل، إذْ تركتُ هيكل السّيارة يصدمه بقوّة. فعبرَتْ جسدي قشعريرة مُخدِّرة ذكّرتني بالمجازر الّتي كنتُ أقترفها، وأنا صغير، في حقّ قطط قريتنا وكلابها. نظرتُ عبر المرآة الجانبية. كان الكلبُ جثّة هامدة مرميةً على قارعة الطريق.

وعند وصولي إلى بيتنا بمكناس، رنّ الهاتف، وكم تفاجأتُ عندما رأيتُ الرّقم الأمريكيّ طافحًا على الشّاشة الرّقميّة الصّغيرة. كانت لينا. رفعتُ السّمّاعة، فجاءني صوتُها ممتلئًا ببهجتها المعتادة:

- ألو. عزيزي الفسيفسائيّ.

- أهلًا لينا الجميلة. اشتقت إليك.

- وأنا أيضًا يا مهبولي الكبير.

- ما أحوالك؟

- تمام. ماذا عنك؟ هل كتبتَ روايتكَ الحُلم؟

- حصلتُ على المخطوطة. آه كم تمنّيتُ لو قرأتِها عزيزتي. إنّها تحفةٌ حقيقيّة. أكبرْتُ في كاتِبها غوصًا سحيقًا في ظلمات القرون. هذا الغوص مكّنه من بعث الحياة الرّومانيّة وبثّها في صفحاتٍ لا تُمَلُّ قراءتها.

وتابعتُ:

- قلتُ لكِ إنّ بيتكِ منجمُ إلهام. عمّا قريبٍ سأنتهي من إدخال بعض التّغييرات الطّفيفة على النّصّ، وسيكون جاهزًا.

- خبرٌ سارّ. أنا فرحةٌ من أجلك. فرحةٌ من أجل تواطُئِنا الجميل. يُسعدني أن أراك في الطّريق إلى تحقيق حلمكَ الرّوائيِّ لتتجاوزَ محنةَ فقْدِكَ الكبير، فقْدِ سامي.

وأضافتْ:

- ثمّة كاتبةٌ روائيّةٌ أمريكيّةٌ عرفتُها حديثًا تنوي زيارة وَلِيلي لاستلهام فسيفساء الرّومان في روايتها، وقد حدّثتُها عن الفسيفساء المنهوبة من الموقع. وقلتُ لها إنّ هناك فسيفساءَ غريبةً شبيهةً بتابلوه فسيفسائيٍّ بديعٍ أَرَتْنِي صورتَه في حاسوبها، وكانت قد التقطتْ صورة التّابلوه بمتحف اللّوفر. فتملّكتْها رغبةٌ عارمةٌ في معاينة التّحفة الوَلِيليّة النّادرة. وقرّرتْ أن تزور وَلِيلي، لذا سوف أعطيها رقم هاتفكَ لتتّصل بكَ، كي..

هنا قاطعتُها، وأنا أنتقي عباراتٍ إنجليزيّةً دقيقةً:

- أعطِها رقمَ ساكن البيت يا لينا، رقمَ المعلّم جواد.

وأردفتُ بنبرةٍ صارمةٍ:

- ولا تذكري لها اسمي مطلقًا.

- لكن لماذا؟

- مجرّد تجاذبٍ قصيرٍ لأطراف الحديث بينها وبين قاطن البيت يكفي ليقف كلاهما على طبيعة علاقتنا نحن الاثنين، أنا وأنتِ. وسيتذكّر جواد لعبة الابتزاز الأدبيّ الّتي حبكناها له يا عزيزتي. وسوف يوجِّه إليّ أصابع الاتّهام.

- دائمًا تبهرني بذكائك. سوف أحرص على ألّا تعلم بعلاقتنا. اسمها أريادنا.

- اسمٌ جميلٌ، أتمنّى ألّا تُضيع «أريادني» خيْطَها في متاهة الفسيفساء.

«هل هي جميلة؟»، أضفتُ بخبث.

- يا لك من ثور. لن تكون بجمالي يا كازانوفا لمّا كنتُ في سنّها.

- أتقصدين ثور المينوتور يا لينا؟

وانقطعتِ المكالمة على وقع ضحكتي الصّاخبة.

لقد حصلتُ على مخطوطة رواية «الفتى الموريّ» بعد أن سخّرتُ صديقيَّ الزرهونيّين للقيام بالمهمّة بدقّةٍ وحرفيّةٍ عاليتَين. وذلك بعد أن رفض الكاتب تسليمها في الموعد المحدّد. وهكذا، تمكّنتُ بوسائلي الخاصّة من الاستيلاء عليها. وقد أمضى عامًا كاملًا في الكتابة، وهي المدّة الّتي حدّدناها في الاتّفاق.

وما دام امتنع عن تسليم النّص بِرِضًا وطِيبِ خاطر، مُخِلًّا باتّفاقنا، فأنا أيضًا سوف أخلّ بالاتّفاق ولن أعطيَه الثّلاثين ألف درهمٍ المتبقيّة.

يا لَهذه الرّواية ذات المائة وبضع صفحات! لقد قرأتها في جلسةٍ واحدةٍ. لم أحلم يومًا بأنْ أكتب مثلها. والحقّ أنّ هذا «الجواد» موهوب. أتممتُ قراءة مخطوطته فلفَّتني دوخةٌ لذيذة. إنّها فسيفساء روائيّةٌ حقيقيّةٌ ربطها جواد باللّوحة الفسيفسائيّة الّتي تنام في بيت لينا. لقد صدق حدسي، إذ أيقنتُ مُنذ زيارتي الأولى للبيت، قبل استئجاره، أنّ ذاك البيت يحمل بين جدرانه قصّةً عظيمةً، قصّةً مكتوبةً على أرضيّته لم أملك ما يكفي من الخيال والموهبة لإخراجها إلى الوجود. لذلك استدرجتُ جوادًا كي يقوم بالمهمّة. كنتُ أدرك على نحوٍ ملتبسٍ أنّ تلك المرأة الّتي في الفسيفساء تصرخ فيّ مطالبةً بأن أكتبها. وعندما لم أستطع، أخليتُ السّاحة لجواد. وعرفتُ أنّ سمراءَ الفسيفساءِ سوف تسكن زائرها الجديد المنذور لنزوات الحِبر، وسوف تقضّ مضجعَه

منادية إيّاه بكتابتها ونقلِها إلى واقع الورق. كانت ثمّة قصّةٌ، وليس أشقّ على الكاتب من أن يعرف بوجود قصّةٍ بين يديه من دون أن يستطيع كتابتها وإخراجها إلى واقع الورق. وما من ألمٍ أعظم من حمل قصّةٍ في قلبك وعدم التّمكّن من إخبار أحدٍ بها. تمامًا مثلما كتبت الرّوائيّة الأمريكيّة زورا نيل هيرستون: «ليس ثمّة واقعٌ أكثر رعبًا من أن نحمل في وجداننا قصّةً لم نروِها بعد».

كان بين جدران البيت الحجريّة القديمة سكونٌ ملتبسٌ يجرّ إلى معانقة التّخييل. وكان هذا يغريني بمعانقة الكتابة المحفوفة بالألم والخوف والذّكريات النّازفة. لكنّي لم أستطع في النّهاية أن أكتب سطرًا واحدًا. وما إن علمت بقدوم الكاتب الشّابّ إلى مدرستنا بعد ظهور التّعيينات الجديدة، حتّى أوصيتُ جبيلو الحارس بأن يرشده إلى البيت العتيق. كنتُ قد قرأتُ له رواية «عشّ الدّبابير» بالمصادفة فظلّ اسمه والعنوان عالقَين في ذاكرتي. وكنتُ حينها قد صرتُ مديرًا. ورغم أنّي استفدتُ من السّكنِ الوظيفيّ بالمدرسة، فقد فضّلتُ أن أستأجر بيتًا ببلدة زرهون، حتّى إن لم أكن أمكث فيه إلّا قليلًا، أعطيتُ نسخةً من مفتاحه لصديقيَّ الزرهونيّيْن العزيزَين، اللّذيْن يُقاسِمانِي شغَفَين أثيرين: الشراب ومشاهدة مباريات كرة القدم. كانا من ذلك النّوع الّذي إن قلتُ لهما اسقُطا معي في بئرٍ فلن يتردّدا في السّقوط قبلي. وعندما استقرّ المعلّم الجديد بالبيت الأعزل الّذي هجرتُه فرارًا من الذّكرى المؤلمة، قرّرتُ أن أسند إليه مهمّة كتابة الرّواية. في البدءِ، فكّرت في أن أتواصل معه مباشرةً، لكنّي خشيتُ أن أفسد الأمور. ولم أكن لأنجح في إقناعه بالمهمّة لولا حيلة الهاتف الّتي اقترحتُها على لينا أوّلًا، ومساعدة الزّرهونَيّيْن الخدوميْن ثانيًا.

وأنا أقرأ «الفتى الموريّ»، عانقتُ أبطالًا رومانَ وموريّين، ودخلتُ في ثوبِ رجُلٍ معاصرٍ للموريّين، وتسكّعتُ في فضاء وَلِيلي الحافل بالذّكرى. فضلًا عن أنّي صافحتُ أيدمون صانع الفسيفساء، وقد ذكّرني اسمه بالثّائر الموريّ الّذي وقف أمام زحف الغزو الرّومانيّ بعد مقتل وَلِيِّ نعمتِه الملك الأمازيغيّ بطليموس. أيدمون الخصم التَّليد للقائد الرومانيّ ماركوس فاليروس سيفروس قاهِرِ القبائل المورية. انطلقتُ على متن صفحات «الفتى الموريّ» أناغي حيواتٍ كبيرةً صَنعتْ عوالم ذلك الفرح القديم. إذ يكفي أن تقرأ صفحةً من الرّواية لتنسحب خلف سطورها صوب قرونٍ آفلة. فهي روايةٌ سوف تلامس فيها أيّها القارئ سماءً صافيةً لم تغفل عيونها عمّا جرى بهذا المنبسط النّائي عن ضجيج العالم. وأنا أقرؤها، عانقتُ أيدمون وغِرتُ من حبّ سيلينا المتأجّج لهذا الفسيفسائيّ الموريّ القدير. وكيف لا أغار وسيلينا إلهةُ قمرٍ رومانيّةٌ وبشريّةٌ حمَلَتْ شيئًا من حُسنِ «سيليني» ابنة كليوباترا السابعة وَيُوبا الثاني. لقد أكبَرْتُ استلهام الكاتبِ أحلامَ الموريّين بالحرّية وتوطينها على لوحةٍ من مكعّبات.

ولم ينتهِ مفعول هذه التّحفة الرّوائيّة عند هذا الحدّ، فقد ألهمني المثلّث الفسيفسائيّ الّذي أبدعه الفتى الموريّ أيدمون وأسكنه بيت مُواطِنِهِ «سبالوس» بالحيّ الغربيّ. لذلك فكّرت في صنع ثلاث تابلوهات فسيفسائيّةٍ روائيّة. التّابلوه الأوّل هو مذكّرات «باخوس في العيادة»، والثّاني هو مخطوطة «الفتى الموريّ». ولكن أنّى لي بتابلوه ثالث؟

لا شكّ عزيزي القارئ في أنّك خمّنتَ نواياي الأدبيّة «الخبيثة»، ولا شكّ في أنّك تَذكّرت الأمريكيّة القادمة. تلك الكاتبة المدعوّة أريادنا الّتي

أخبرتني لينا أنّها آتيةٌ من بوسطن مسحوبةً خلف لوحةٍ فسيفسائيّةٍ وَلِيليّةٍ ناقصة. ربّما أعثر مُستقبَلًا، في حقيبتها، على مخطوطةٍ تليق بأن تملأ حيِّزَ التّابلوه الفسيفسائيّ الثّالث! أو على الأقلّ تدلّني على مخرجٍ من هذه المتاهة الفسيفسائيّة الّتي ضِعتُ بين حصيّاتها.

أوَ ليْستْ «أريادني» المتاهات؟

***

**السّبت 4 نونبر 1995**

أوّل مرّةٍ رأيتُ فيها أريادنا، كانت في أوائل نونبر. كان ذلك في نهاية الأسبوع. وأنا نازلٌ بالسّيّارة من المدرسة، توقّفتُ بالرّونو 19 إلى جانب الطّريق الوطنيّة أنظر إلى بيت لينا العتيق، فرأيتهما يخرجان. كان جواد قد تخلّف ليسحب خلفه باب الحوش، بينما تتقدّمه أريادنا بخطوتَين مرتديةً بنطال جينزٍ أزرقَ وكنزةً بيضاءَ فوقها جاكيت فروٍ بنّيٍّ. لاحظتُ أيضًا أنّها تغطّي رأسَها بقبّعة. صعدَا رويدًا وَالمَسْرَبَ المؤدّي إلى الطّريق الوطنيّة وهما لا يكفّان عن الحديث. ثمّ وقفَا وانتظرَا ناقلة. لا أدري لِمَ حسدتُ جوادًا لحظتها. لكنّي اطمأنَنتُ إلى أنّ هذه الأمريكيّة الثّلاثينيّة، ما دامتْ قد لانتْ لَهُ واختلَتْ معه في بيته، فلن يعسر عليّ مراودتها في وقتٍ قصير.

جاءت سيّارة النّقل. فركبتْ أريادنا، بعد أن عانقتْ جوادًا وقبّلته. بدا من طريقة التّوديع أنّ علاقتهما قد توطّدتْ وأنّهما دلفا إلى جنان الحميميّة. عندئذٍ، أدرتُ محرّك السّيّارة، وتبعتُ النّاقلة الصّغيرة ماركة هوندا حتّى دنتْ من مركز بلدة زرهون. قرب السُّويقَة، نزلتْ أريادنا.

فتوقّفتُ بالسّيّارة لحظةً على يمين الطّريق الصّاعدة. ثمّ استأنفتُ المسيرَ خلفها. كانت ثمّة بِغالٌ قويّةٌ تسحب عرباتٍ خشبيّةً فوق طريق السّويقة المصفّحة بالحجارة. صعدتْ أريادنا الدّرج مختصِرةً انعطافَ الطريق حتّى وصلتْ تحت تيراس «القليعة» المشرفة على البلدة. ثمّ سارت في اتّجاه السّاحة المركزيّة. كنتُ أرصد خطواتِها من خلف الزّجاج الأماميّ وهي تتوغّل في الزّقاق المفضي إلى السّاحة. ركنتُ السّيّارة على يمين الزّقاق أمام باب محّلٍ مغلق. وغَذَذْتُ السّير حتّى لا أضيّع أثرها. كانت ترتدي جزمةً رياضيّةً خفيفةَ الخطوات. شعرُها الأشقر يطلّ من تحت القبعة مندلقًا على كتفيها وظهرها. كانت تسير بأناقةِ كيم باسنجر رَفيقةِ جيمس بوند في فيلم «لا تقل أبدًا مرّةً أخرى». ليس لأريادنا الآن رفيق سواي، لولا أنّي ألعب دورَ المتجسّس عليها.

عبرتْ تحت تقويسة البوّابة الكبيرة المفضية إلى حيّ الضّريح. ثمّ سارتْ في ظلال الممرّ العريض المسقوف وسط حشد العابرين. فاندفعتُ في إثرها. انعطفتْ يمينًا لتسلك الباب المقوَّس الأيسر. وتخطّتْ عتبته المؤلّفة من درجتَين، وتوغّلتْ في الزّقاق الملتوي الضّيق. سرتُ وراءها محافظًا على مسافة «الأمان» بيننا. كانت ثمّة دارُ ضيافةٍ على يسار ذاك الزّقاق خمّنتُ أنّها تقصدها. لكنّها تجاوزتها، وبعد بضعة أمتارٍ من أوّل منحدرٍ على اليمين، وقفتْ أمام بابٍ حديديٍّ أزرقَ، إطاره مزيّنٌ بالزّليج. فتحتْ حقيبتها وأخرجتِ المفتاح. أدارته في ثقب القفل. فانفرج الباب لحظةَ عبَرْتُ خلفَها من دون أن أتوقّف أو أدير وجهي نحوها حتّى لا أثير شكوكها. سرتُ دقائقَ، بغير ما هدفٍ، متوغّلًا في الزّقاق الملتوي كأفعى لا رأس لها. ثمّ درتُ على عقِبيّ عائدًا من حيث مررت. وجدتُ طفلَين يلعبان إلى جوار الباب الأزرق لم يكونا هناك

قبل قليل أثناء عبوري الأوّل. سألتهما عمّا إذا كانا يعرفان السّائحة الشّقراء. قال أكبرهما إنّها اكترتِ البيت وأقامتْ فيه قبل أسابيعَ فقط. وأضاف الآخر قائلًا إنّها «ميريكانيّةٌ ظريفةٌ تعطينا الشّكلاط».

❃❃❃

**الأربعاء 8 نونبر 1995**

في سيارة أجرةٍ أقلّتنا من زرهون إلى مكناس، كان تعارفي الأوّل مع أريادنا. وكم كان عسيرًا عليّ أن أراود روائيّة!

أضعتُ ثلاثة صباحاتٍ متواليةٍ في الجلوس بالمقهى متقوقعًا خلف طاولةٍ أراقب العابرين. ومن حسن حظّي لم أكن متابعًا بالعمل. لقد صادفتْ تلك الأيّامُ عطلةَ الاحتفال بذكرى المسيرة الخضراء. ثلاثة صباحاتٍ أحرقتُ فيها عشرات السّجائر، دون أن يطلع طيف أريادنا من قلب الأزقّة الأفعوانيّة المتوارية خلف بوّابة السّاحة، تلك البوّابة الّتي تنتهي إليها كُلّ مسالك حيّ الضّريح. كان المقهى مكانًا استراتيجيًّا لترقُّب ظهورها. في الصّباح الرّابع أطلّت الغيداء الأمريكيّة. بزغتْ في السّاحة كشمسٍ وهّاجةٍ وهي تجرّ ثلاثيناتِ عمرها في خيلاء جامح. لمّا لاحتْ لي، أحسستُ بشعورٍ مبهمٍ غامضٍ يشبه الذّهول يستحوذ عليّ، رغم أنّ لقاء امرأةٍ بجمالها لم يعد يعني لي شيئًا كبيرًا. قمتُ وتبعتُها مثل سلوقيّ.

وفي لحظةٍ فارقةٍ، انقلب ذاك الذّهول تدريجيًّا إلى حماس. كانت ترتدي بلوزةً بلونٍ ورديٍّ فاتحٍ لها كمّان طويلان، وسروالَ جينزٍ سماويًّا يميل

إلى البياض، وفي قدمَيها تلك الجزمة البيضاء نفسُها الّتي انتعلتْها عندما رأيتها أوّل مرّة. وتحمل حقيبة ظهْرٍ صغيرة.

دبّت الحياةُ في زرهون، وأخذت جلابيبُ تتحرّك تحت شمس الصّباح متثاقلةً تخفي بداخلها أجسادًا لا تتعب، أجسادَ رجالٍ ونسوةٍ ملتحفاتٍ بالحايك والإزار المحلّي ومحتجباتٍ بخُمُرٍ بيضاء. ظللتُ أتقاطع مع هذه الأجساد، أتماسّ معها، وأنا أمضي بتركيز خلف أريادنا. عبرتْ وسط دكاكين السّوق المركزيّ وسلكتِ المنحدرَ متّجهةً نحو ساحةٍ صغيرةٍ تجتمع فيها سيّارات الأجرة. حدستُ أنّها ستستقلّ سيّارةً، ولكن؟ إلى أين؟ أرشدها سائقٌ إلى سيّارة أجرةٍ كبيرةٍ من نوع مرسيديس بينز ٩٠. لحظتها رفع ذاك السّائق عقيرته بالنّداء: «بلاصة مكناس». وكما لو كنتُ أنا المقصود بهذا النّداء، وجدتُني أسير نحو السّائق. أدّيت ثمنَ «المقعد» النّاقص، وركبتُ إلى جوار أريادنا. حيّيتها بالإنجليزيّة. فافترّت شفتاها الرقيقتان عن «هاااي» منغّمةٍ فيها شيءٌ من الدّفء والحماس:

«أنا إسماعيل، من مكناس»، بادرتها.

«وأنا أريادنا، من بوسطن»، قالتْها بعد أن نظرت إلى عينيَّ مليًّا تستطلع أعماقهما. كانت عيناها عسليّتين يعلوهما حاجبان رقيقان مقوّسان، ووجهها متناسِق جميل.

- نادرًا ما ألتقي هنا سيّاحًا أمريكان. أنت أوّل أمريكيّةٍ أصادفها.

- لي شرفُ ذلك سيّد إسماعيل.

لقد قدّمتُ نفسي باسم «إسماعيل»، لتلافي أيّ تحرٍّ ممكنٍ من طرفها، محرِّفًا بذلك اسمي العائليّ. تحرّكتِ السّيّارة في المنحدر، فدارتْ معها

عجلة محادثتنا بِلُغةٍ بدا واضحًا أن لا أحد من الرّاكبِين يفهمها سوانا نحن الاثنين:

- أشتغل هنا بزرهون «مدرِّسا». وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟

- قل عنّي سائحةً، أو باحثةَ آثار.

- لا شكّ في أنّك تبحثين في آثار وَلِيلي؟

- تمامًا. أشتغل على الفسيفساء الرّومانيّة.

- رائع. فموقع وَلِيلي يعدّ من أهمّ مراكز الفسيفساء في شمال إفريقيا.

- تمامًا. إنّ أرضيّاته الفسيفسائيّة مميّزةٌ جدًّا. ومن خلالها يمكن أن نلاحظ أغلب المراحل الّتي مرّ بها هذا الفنّ.

كانت تلك فرصتي لأجرّها إلى الفسيفساء المغربيّة، الموضوع الأثير الّذي يمكنني أن أتحدّث فيه بحماس. فكّرت لحظتَها في أنّي سأختبر عليها الوصفة «الفسيفسائيّة» الّتي نجحت مع مواطِنتها لينا يومَ جمعتنا السّقّايةُ بحيّ الهديم:

- أتدرين أنّ للمغاربة فسيفساءَ خاصّةً تتميّز عن الفسيفساء الرومانيّة القديمة؟

- فسيفساء حصويّة؟

- لا، بل فسيفساء تُصنع قِطَعُها من الطين.

ومضيتُ أجترّ على مسامعها شريطَ مراحل تصنيع الفسيفساء «البلْديّة» بدءًا من انتقاء نوعيّة الصّلصال، مرورًا بالعجن، والتّجفيف، والإنضاج في الأفران، والصّباغة، والتّقطيع، وصولًا إلى التّصفيف على هيئة قوالب لتشكيل تحفٍ فنّيّةٍ تُزيَّن بها الجدران والأحواض والنّافورات. كانت تنصتُ إليّ باهتمامٍ يصل إلى حدّ الانبهارِ، فأقرأ في نظراتها الجانبيّة توقًا إلى مزيدٍ من التّفاصيل، وقد زادني ذلك حماسةً في تصوير فسيفساء الزّليج في أبهى صورها الّتي دمغت طفولتي. تسرّب عِشقُ الصّنعة القديمُ في كلماتي الإنجليزيّة لتتلقّفه ذائقة هذه البوسطنيّة المفتونة بلغة الحصيّات. ولم تدر أريادنا أنّي واحدٌ ممّن احترف تلك الصّنعة حتّى شغافِ القلب.

انقضت الكيلومترات الخمسة والعشرون الّتي تفصل زرهون عن مكناس بسرعة. وقفتِ السّيّارة بحيّ حمريّة وحديثنا لم يتوقّف. ترجّلنا وسرنا مشيًا بضع خطواتٍ، ونحن نتحدّث بعفويّة شخصَين صهَرَهُما اللّسان المشترك قبل أيّ شيءٍ آخر. سألتُ أريادنا عن برنامج يومها فقالتْ إنّ جولةً تنتظرها برفقة فريقٍ سياحيٍّ يقوده دليلان. أخرجتْ من حقيبة ظهْرِها الصّغيرة خريطةً، وأرتني خطًّا مرسومًا بالقلم يمثّل مسارَ الجولة المرتقبة. كان مسارًا دائريًّا ينتهي عند النّقطة الّتي يبدأ فيها. ستنطلق الجولة من أمام باب منصورٍ في اتّجاه ضريح المولى إسماعيل، ثمّ سجن قارة، بعده سيتّجه أفراد المجموعة إلى هْرِي السّواني مرورًا بالصّهريج، ليشدّوا الرّحال على متن الحافلة إلى باب البردعين، ومنه يتوغّلون شمالًا في المدينة القديمة، عبر الأزقّة الضّيّقة، صوب المدرسة البوعنانّية. ثمّ يزورون متحف دار الجامعيّ، ومنه سيدلفون إلى ساحة الهديم. هناك حيث ستنتهي الجولة.

انتهينا إلى الشّارع المؤدّي إلى حيّ الهديم. سرنا على رصيفه بِضع دقائقَ قبل أن ألوّح لسائق تاكسي صغير. أوصلتنا السّيّارة إلى باب منصورٍ، فنزلتْ أريادنا بعد أن سجّلتْ رقم هاتف بيتنا على مفكِّرتها. عندئذٍ، أشرت إلى السّائق بأن يواصل السّير جنوبًا في اتّجاه حيّ الرّوى.

***

**الأربعاء 8 نونبر 1990 (في المساء)**

موارِبًا باب غرفتي، انغمستُ طوال مساءِ يومِ العطلة الرّابع في تقليب الأوراق المطبوعة الّتي تحوي مذّكرات الطّبيبة ومخطوطة الفتى الموريّ الّتي كنت قد رقنتُها وطبعتُها لأُراجِعها. فجأةً، رنّ الهاتف الموضوع فوق منضدةٍ خفيضةٍ في زاوية الرّدهة.

رفعتْ والِدتي السّماعة. قالتْ: «ألو»، ولم تفهم حرفًا من كلام محدّثتها. ومن وسط سيْلِ الكلام غير المفهوم التقطتْ اسم «إسماعيل»، وردّدَتْه. على الفور، نهضتُ مسرِعًا إليها، وأمسكتُ السّماعة:

- نعم أريادنا.

- وصلتُ للتّوّ إلى زرهون. أرهقتني الجولة ولم أجِدْ وقتًا للاتّصال بك.

- أتمنّى أن تكوني قد استمتعتِ بيومك. كيف كانت الجولة؟

- رائعةً جدّا. لقد وثّقتُها توثيقًا كاملًا، مع تدوين بعض الأسطر في مفكّرتي، في انتظار أن أستلهم بعض الآثار الّتي عاينّاها في كتابي.

- كتابٌ عن الفسيفساء؟

- لا. لم آتِ على ذكر حرفتي الحقيقيّة في لقاء الصّباح.

- وما حرفتكِ إن لم تكوني فسيفسائيّة؟

فضحكتْ ضحكة أنثى متذاكيةٍ تُشهر غموضَها مثل طُعمٍ مُشتهى، وقالت:

- كاتبة روايات.

- تمزحين؟ وما علاقة الرّوائيّة الّتي تسكنكِ بباحثة الفسيفساء الّتي أفصحتِ عنها في الصّباح؟

- لا أمزح. أنا أكتبُ روايةً تستلهم فنّ الفسيفساء.

- رهانٌ جماليٌّ ممتاز. لولا أنّ الأمر سيكلّفك مجهودًا خرافيًّا ووقتًا.

- على العكس تمامًا. لقد بدأتُ البحثَ والكتابة قبل مجيئي إلى المغرب، ولم يمرّ سوى شهرين تقريبًا من العمل الدؤوب وها أنا الآن أكتب مسوّدات الفصول الأخيرة.

- رائع. هذا يعني أنّ كتابكِ ذاك ليس عملكِ الرّوائيّ الأوّل.

- لديّ عملان. سوف أُطلعكَ عليهما عندما نل...

وانقطعتِ المكالمةُ عند هذا الحدّ. خمّنتُ أنّها اتّصلت من هاتفٍ عموميٍّ، وربّما نفدتِ القطع النّقديّة من الجهاز. إن كان الأمر كذلك

فستعاود الاتّصال. انتظرتُ طويلًا، ولم يرنّ الجرس حتّى مساء اليوم الموالي في التّوقيت نفسه.

❃❃❃

**السّبت 23 دجنبر 1995**

بعد غيبتها مدّةَ شهرٍ ونصفٍ تقريبًا بدعوى اعتكافها لتُنهيَ روايتها، سوف تعاود أريادنا الاتّصال بي على الهاتف، وسنحدّد موعدًا للقاءٍ أخيرًا.

التقينا بالمقهى نفسه الّذي اصطحبتُ إليه الطّبيبة نوال سابقًا. لم يكن اختياري عبثًا. فأن تكون ممتلئًا بالمكان وبفتوحاتِك الموشومة على جدرانه، عارفًا بمزاج الهواء المتسكّع في فضائه، يجعلكَ في منأى عن أيّة مفاجآتٍ محتملةٍ تَعوق طريقكَ نحو أنثى تحترف الحبرَ قبل الحبّ، أنثى تغري الواحد بأن يراهن بالأغلى لسرقة ما هو أبعد من قلبها.

كانت ترفلُ في أناقةٍ بسيطةٍ تُكسِبها سحرًا خاصًّا. فبدت بلباسها ذاك أكثر تحرّرًا: ارتدتْ بنطلون جينزٍ باهت الزّرقة فضفاضًا قليلًا وجاكيتًا طويلةً مبطّنةً بالصّوف، وانتعلتْ جزمةً رياضيّةً بيضاءَ. بدَتْ لي أكثر شبابًا، لا تظهر في هيئتها سنواتُها السّتّ والثّلاثون. وهي تصعد الدّرج أمامي نحو الطّابق الأوّل، برز امتلاء جذعها وتناسق بنيتها. هذه المرأة من التّناسق حتّى إنّك لَتَجِد صعوبةً في مرافقتها دون أن تسحبكَ الرّغبات إلى مواطن فتنتها.

بلغنا الصّالةَ الفسيحة بالطّابق الأوّل، تلك الّتي يطغى عليها اللّون الخشبيّ الفاتح الباعث على الرّاحة والاسترخاء. فاخترتُ الجلوس إلى

الطّاولة الموجودة في الزّاوية قرب النّافذة المطلّة على حركة الشّارع. جلستْ بوداعتها كسِنَّورةٍ أليفةٍ، ووضعتْ حقيبتَها فوق كرسيٍّ فارغٍ بجانبها. ثمّ سحبتْ زجاجَ النّافذة وألقتْ نظرةً على الشّارع، قبل أن تعود بعينَيها العسليّتين الأليفتَين لتنظر إليّ نظرةً فاحصة. ابتسمتْ لي ومدّت في إثر ذلك يدَها العاجية البياض إلى الحقيبة. وضعتها على حجرها، وفتحتها لتستخرجَ كتابَيْن وضعتهما على الطّاولة. ثمّ أخذتْ قلمًا. وأعادتِ الحقيبة إلى الكرسيّ الفارغ.

- إنّهما ثمرة إمساكي الطّويل بجمرة الكتابة.

أخذتُ الكتابيْن. تصفّحتُ أحدهما بحركةٍ آليّةٍ، وتأمّلتُ عنوان الثّاني ولوحةَ غلافه التّجريديّة. وبينما شرعتْ تكتبُ لي توقيعَها في إحدى الرّوايتَين، تأمّلت عنوانيهما: «أرضُ المستحيل» و«لاعبُ الغمّيضة». وذهب بي تأمّلهما معًا في وقتٍ واحدٍ إلى تركيبهما ودمجهما في عبارةٍ واحدةٍ: «لاعب الغمّيضة يفتح عينَيه على أرض المستحيل». وضعني هذا التّأليف المرتجَل أمام فجيعةِ الفقدِ في أعتم صورها. ورأيتُ شخصيّات رواية «لاعبُ الغمّيضة» تقفز من الصّفحات، من عتمة أقبيتها حاملةً عاهاتِها الّتي جاهدت عمرًا لإخفائها عن العالم. رأيتها تحمل وِزر عيشها نحو دنيا المستحيلات، حيث لا ممكناتٌ ولا آمالٌ يتعلّل بها الخائضون في أرضٍ تتنفّس قساوتَها وتضيق بمن عليها.

## *أرض المستحيل..*

## *العنوان الأوّل لكاتبةٍ لا تؤمن بالمستحيل*

***(جريدة ذو فورفرانت - الملحق الثّقافيّ - عدد الأربعاء 15 يناير 1992)***

***صدرتْ عن دار «أقلامٌ مؤثّرةٌ» للنّشر، ببوسطن، روايةٌ تحمل عنوان «أرضُ المستحيل» للكاتبة الشّابّة الواعدة أريادنا نويل.***

***الرّواية تحكي قصّةً خياليّةً مرعبةً، قصّة سفّاح نساءٍ في بلدةٍ نائية. هو رجلٌ مختلٌّ ملأ أرض مزرعته بأعضاء وأشلاء بشريّة، وصنع كراسيه وأثاثه وأرديته من أجساد النّساء وعظامهنّ وجلودهنّ. نعم، لقد صنع من جلودٍ جمَّعها من ضحاياه عباءةً نسائيّةً، ليرتديها فيشعر بأنّه أصبح امرأةً كاملة. كيف ستصل الشّرطة إلى الجاني؟ هل سيحاكم عند توقيفه، أم سيدخلونه مصحّةً عقليّة؟ وهل سينقذ الجنون سفّاحًا كهذا من الإعدام؟***

***تجدر الإشارة إلى أنّ الرّواية جاءت في 300 صفحةٍ من الحجم المتوسّط، وهي النّصّ الرّوائيّ الأوّل للكاتبة وثقَتْ به دار نشر ذائعة الصّيت تنتقي كتّابها بعنايةٍ، ليس لبراعة حبكاتهم وتميُّزِ قصصهم وحسْبُ، بل أيضًا لأناقة أسلوبهم وجودة نصوصهم وقدرتهم العالية على استقطاب فئةٍ عريضةٍ من القرّاء. ولا شكّ في أنّ الكاتبة لم تختر الدّار الذّائعة الصّيت إلّا لأنّها تؤمن بنجاحها روائيّةً قادمةً بقوّة، روائيّةً شابّةً لا تؤمن بالمستحيل.***

لم أُبْدِ حماسةً لقراءة توقيعها المكتوب بخطّها الأنيق، ولم أناقشها في العنوانَين أو أسائلها عن أحداث الرّوايتَين. وضعتُ الكتابَيْن جنب الطّاولة، واكتفيتُ بالقول:

- سوف أناقشكِ بعد أن أقرأهما في أقرب وقت.

وأردفتُ:

- سوف أقرأ لكِ بكلّ شغفٍ لأنّي أقدّر الأدبَ الأمريكيّ كثيرًا. لقد قرأتُ لهمنغواي وألان بو وفوكنر من القدماء. أمّا المعاصرون، ممّن قرأتُ لهم، فأبرزهم بول أوستِر وفيليب روث، وتوني موريسون الّتي حصدت جائزة نوبل قبل عامين.

«تبدو قارئًا محترَمًا يا إسماعيل»، عقّبتْ.

- لم أعد أقرأ بذلك النّهم القديم. أضحى العمل يلتهم الكثير من وقتي. فلا أكاد أقرأ الآن سوى الرّوايات البوليسيّة.

«وما رأيك في الأدب الأمريكيّ المعاصر؟»، سألتْ كما لو أنّها تختبر طالبًا في كلّيّة الآداب.

- أرى أنّ كتّاب الرّواية الأمريكيّين المعاصرين تبنّوا اتّجاهًا أضحى يتّسم بالوعي الذّاتيّ، على عكس روائيّي مرحلة ما بعد الحرب العالميّة الثّانية الّذين كبّلتهم مشاهد العنف والدّمار، وشغلتْهم هشاشة الإنسان وصراع البقاء في عالمٍ محموم. لقد انطلقت الرّواية الأمريكيّة المعاصرة تمجِّد القيم العليا، واحتفتْ بالذّاتيّة وبإنسانيّة الإنسان، وثارتْ على التّقاليد. وكانت وسيلتها في ذلك السّخرية السّوداء الّتي ستغدو إحدى أبرز خصائص الأدب الأمريكيّ. وقد ظهرتْ في أرقى صورها مع كاتبٍ أمريكيٍّ من أصلٍ روسيٍّ هو فلاديمير نابوكوف.

- قرأتُ له «ضحكةٌ في الظّلام»، «نارٌ شاحبةٌ»، «لوليتا»..

«أقاسمكِ قراءةَ لوليتا. إنّها من أجمل ما قرأت»، قاطعتُها بحماس.

- لقد حظيت هذه الرّواية بشهرةٍ واسعةٍ لأنّها صُنِّفت ضمن الرّوايات البورنوغرافيّة. ولعلّ هذا هو السّبب وراء رفضها من دور نشرٍ عديدة، وحَظْرها في فرنسا، وهو ما جعلها لاحقًا من الرّوايات المحظورة الأكثر طلبًا.

- صحيحٌ أنّها صنِّفت في خانة الأدب الإيروتيكيّ، ولكن أنا لا أراها كذلك، بل إنّ المقاطع الحميمةَ فيها شحيحة. لكنّ تيمتَها الّتي تفضح العلاقة المحرَّمة بين رجلٍ في أواخر أربعيناته وصبيّةٍ في الثّانية عشرة، جعلتها تصنَّف ضمن قائمة الرّوايات الإيروتيكيّة.

- أتدري يا إسماعيل أنّها لم تكن مجرَّد خيالٍ، وأنّ أحداثها وقعت بالفعل؟!

«أهذا صحيحٌ؟»، تساءلتُ في استغراب.

- نعم. لقد أوضح أستاذ الأدب برايان بويد كاتب سيرة نابوكوف الذّاتيّة أنّ مؤلّفها أجرى أبحاثًا كثيرةً تحضيرًا لها. كان يقرأ بدقّةٍ كلّ جرائم القتل والاعتداء الجنسيّ في الصّحف آنذاك. إلى أن صادف قصة فتاةٍ تُدعى «سالي» عمرها اثنتا عشرة سنةً من نيوجرسي كان قد «اعتقلها» رجلٌ أربعينيٌّ وهي تسرق دفترًا، فأوهمها أنّه من مكتب التّحقيقات الفيدراليّ، ليجبرها على البقاء معه تحت تهديدها بإدخالها إلى سجنٍ إصلاحيٍّ للفتيات «أمثالها». أسَرَت القصّةُ مخيّلةَ فلاديمير، إلى حدّ أنّه دوّنها بتفاصيلها في مفكّرته. وهي قصّةٌ تُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ ما حصل مع لوليتا في الرّواية، وإن حوّر نابوكوف أحداثها.

«واو!»، علّقتُ مندهِشًا. إنّها قصّةٌ تراجيديّةٌ دفعتْ نابوكوف إلى أن يتعمّق روائيًّا في إجلاء أبشع سلوكٍ بشريٍّ ممكن.

- بالفعل. بارعٌ هو نابوكوف في إثارة مواضيعَ حسّاسةٍ مماثلةٍ بسخريَةٍ سوداء صادمةٍ في مفارقاتها، لكن بأسلوبٍ راقٍ غير منفِّر.

صمتَتْ لحظةً، وأضافتْ:

- وستجِد شيئًا من الحساسيّة النّابوكوفيّة في روايتي الثّالثة الّتي أنهيتُها ليلة أمس.

«رائعٌ. وما عنوانها؟»، سألتُ بلهفة.

«لنتركه مفاجأة»، ردّتْ بلهجةِ صبيّةٍ عنيدة.

- لنشربْ نخب المولود الجديد إذَن.

رفعتُ فنجان قهوتي في اتّجاه كأس الباناشي الّذي أذابتْ فيه كثيبًا من السّكّر. لكنّها لم تتفاعل مع حركتي، وردّتْ ببرودٍ:

- لا أرى القهوة ولا العصير يليقان نخبًا يا سيّد إسماعيل.

واختصارًا للمسافة قفزتُ إلى بيت القصيد:

- ثمّة بارٌ قريبٌ من هنا يحمل اسم لاكوبّول (La coupole). ولكِ فيه الأنخاب الّتي تشتهين.

- أتمزح؟ «لاكوبّول» من أعرق الحانات وأشهرها بباريس.

- أعرف، لقد سرقنا اسمها. الفرق أنّ حانتنا المكناسيّة فيها الخمر وحسْب، أمّا «لاكوبّول» الباريسيّة فقد كانت تحتضن نقاشات أكبر مثقّفي فرنسا ومبدعي العالم، ومن بينهم جان كوكتو وهنري ميلر وسالفادور دالي وجيمس جويس وإرنست همنغواي وبيكاسو وأندريه بروتون، وألبير كامو، وسارتر وسيمون دي بوفوار وغيرهم.

«نسيتَ الشّاعر لويس أراغون والرّوائيّة الرّوسيّة إلسا تريوليه»، قاطعتني. «ففي الحانة نفسها الّتي تأسّست عام 1927 اندلع الحبّ الشّرس بين هذين العاشقين».

خرجنا من المقهى وحلولَ الظّلام. اقتدتُها إلى حيث تركتُ السّيّارة في جادّةٍ تتقاطع مع شارع محمّد الخامس. وضعتُ روايتَيها الموقّعتَين على المقعد الخلفي، وأدرتُ المحرِّك. لم تتفاجأ أريادنا بالسّيّارة رغم أنّي لم أحدّثها عنها من قبل. لكنّها أعربتْ عن إعجابها بماركة رونو الفرنسيّة الذّائعة الصّيت. سارت بنا الرّونو 19 غربًا. تركنا وراءنا شارع محمّد الخامس عند أوّلمدارٍ، وانعطفنا إلى شارع الحسن الثّاني. ومنه دلفنا، يسارًا، إلى شارع محمّد المكناسيّ حيث توجد حانة «لاكوبّول».

دخلنا «القبّة» فاستقبلنا صخب الموسيقى. كانت مكبّراتُ الصّوت العالقة في سقف الحانة وزواياها تهتزّ بالأغاني الشعبيّة. وكان الفضاء غاصًّا بالرّوائح ودخان السّجائر وأحاديث الزّبائن الزاعقة. فرغتْ لحظتها طاولةٌ في ركنٍ قليل الإضاءة، فتوجّهنا إليها. جاءتْ إلينا نادلةٌ ثلاثينيّةٌ ترسم على شفتَيها ابتسامةً تقادمتْ من كثرة الاستعمال وترتدي قميصًا أبيضَ أنيقًا بلا كُمَّين. كنتُ أودّ أن أطلب زجاجة نبيذٍ أحمرَ، لكنّ أريادنا فضّلتِ الشّمبانيا. قلت لها عندما انصرفتِ «البارميطة»:

- أتدرين أنّ أرقى أنواع الخمر الّتي تُوزَّعُ في خمّارات المغرب وفنادقه وعلبه اللّيليّة الرّاقية ذات الخمس نُجومٍ هي من صنع شركةٍ مكناسيّةٍ تسمّى (Les celliers de Meknes)؟

- حقًّا؟ ولماذا أُنشئت في مكناس بالذّات؟

- لأنّ مكناس وضواحيها تضمّ مساحاتٍ شاسعةً لزراعة العنب المعدّ للخمر.

جاءتِ النّادلة بزجاجة الشّمبانيا مغموسةً في دلو ثلجٍ نحاسيٍّ صغيرٍ، ومعها كأسان طويلتَا السّاقين. عالجتِ السّدّادة بمفتاح. وأزالتِ الفلّينة فأحدثتْ فرقعةً محبَّبةً واندلقتْ رغوةُ السّائل على عنق الزّجاجة. أمالتِ الزّجاجة وصبّت ببطءٍ فانزلق الشراب الفوّار على جدار الكأس الطّويلة. كانت تفعل ذلك والابتسامة المتقادمة لا تفارق وجهها. أعادتِ الزّجاجة إلى الدّلو، وقالت: «بصحّتكما» وانصرفتْ لتأتينا بشيءٍ من المقبِّلات. أمسكتْ أريادنا الكأس من ساقها باليد اليسرى. رفعتها وقرعَتْ بها كأسي، وقالت:

- نخبُ (The nights of volubilis*).

- أجزم أنّه عنوان الرّواية.

---

* ليالي وَلِيلي.

حرّكتْ رأسَها بالإيجاب، وابتسمتْ بزهوٍ لا يخلو من وداعةٍ فاتنة. وقبل أن تبتلع حسوةً ارتشفَتْها من الكأس على مهلٍ، أردفتُ:

- الآن فهمتُ لماذا تُؤثِرين الشّمبانيا. إنّه عنوانٌ يستحقّ الاحتفال.

وقرعتُ كأسها من جديدٍ، وأنا أقول:

- في صحّة صاحبة «اللّيالي».

ضحكتْ، فارتسمت الضّحكة على تقاطيع وجهها، وتلألأتْ عيناها بسعادةِ امرأةٍ تنتصر على عناد الحبر وتسرق منه نصًّا غاليًا بحجم رواية. غبطتُها. والأصحّ أنّي حسدتها. فكَم تُقتُ منذ سنواتٍ إلى معانقة ذلك الشّعور بالانتصار على الحِبر، ولكنّي لم أفلح في ذلك. كانت أريادنا أمامي بكلّ فتنتها، ممتلئةً بفتْحِها الحبريّ الجديد وبفتوحاتٍ قديمةٍ لا يزال تأثيرُها مقيمًا في بريق عينيها. أنظرُ إليها، فأراها أمامي هادئةً كسحابةٍ، تمسكُ الكأس بيسراها، وترتشف منها بأناقة. كانت تستمتع بكلِّ رشفةٍ وتحرّك رأسها على أنغام أغنيةِ مايكل جاكسون Thriller الّتي شرعت تَصْدَح دالقةً بهجتها من مكبّرات الصّوت المبثوثة في زوايا الحانة:

**It's close to midnight**

**Something evil's lurking in the dark**

**Under the moonlight**

## *You see a sight that almost stops your heart

جاءتِ النّادلة بمقبّلاتٍ اختِيرتْ بعنايةٍ من أجل إغناء مذاق الشّمبانيا. أربعة أطباقٍ صغيرةٍ فيها قطعُ جبنٍ مالحٍ، وزيتونٌ أخضرُ محشوٌّ، وقطعُ لحم ضأنٍ مطهيٍّ، وشرائحُ صغيرةٌ من البرتقال. تناولنا قطعًا من الجبن وحبّات زيتونٍ باستعمال أعوادٍ صغيرةٍ بدلًا من الملاعق. أفرغتْ أريادنا كأسها الثّانية، فوضعتها على الطّاولة، وانتظرتْ حتّى أجرع الرّشفة الأخيرة من كأسي لتملأهما معًا على طريقة البارميطة: تمسك الكأس من ساقها وتصبّ السّائل ببطءٍ على جدار الزّجاج لينزلق من دون أن يحدث رغوة كثيرة. علّقتُ:

- تبدين ذوّاقةً حقيقيّة!

«في صحّتك أيّها المغربيّ الصديق»، تردّ ضاحكةً بعد أن سلّمتني الكأس باحتفاليّة.

كانت ضحكتها جميلةً وصافية، ضحكةً هادئةً تفصح عن جمالها بلا تكلّف، ضحكةً تنكتب على تقاطيع وجهها المتناسقة كفقرةِ سردٍ باذخةٍ تشدّ قارئها شدًّا. شربتْ رشفاتٍ متتابعةً، تفصل بينها جملٌ وعباراتٌ تقولها، بصدقٍ ظاهرٍ، عن إنجازها الرّوائيّ:

- أتدري يا إسماعيل أنّي كنتُ متورّطةً مع دار نشرٍ جشعةٍ بعقدٍ يستمرّ ستّ سنواتٍ مع إمكان تجديده عند انتهاء هذه المدّة، ألزمتني بنوده

---

* مع اقتراب منتصف اللّيل / شيءٌ من الشر كامنٌ في الظّلام / تحت ضوء القمر/ ترى مشهدًا يكاد يوقف قلبك.

بكتابة روايةٍ كلّ سنتَين. لقد قبلت به مرغمةً كي ترى «أرضُ المستحيل» النّور. وبشقِّ الأنفس أنهيتُ روايتي الثّانية الّتي حقّقت نجاحًا لم أتوقّعه قطّ.

***«لاعب الغمّيضة» يقفز إلى صدارة قائمة الكتب الأكثر مبيعًا***

***(جريدة ذو فورفرانت - الملحق الثّقافيّ - عدد الاثنين 7 مارس 1994) من كان يتوقّع أن تعتليَ رواية «لاعبُ الغمّيضة» للكاتبة الشّابة أريادنا نويل صدارة الكتب الأكثر مبيعًا في أشهر مكتبات الولايات المتّحدة الأمريكيّة، متفوّقةً على كتُب مؤلِّفِ القصص الخياليّة الأشهَر فيليب روث صاحب رائعة «عمليّة شايلوك». «لاعب الغمّيضة» هي الرّواية الثّانية لنويل. لم تبتعد فيها عن أراضي الجرائم المستحيلة المفخّخة بالأشلاء البشريّة. لكنّها، في نصّها الجديد، تلبس عباءة التّاريخ وتخوض في جرائمَ إنسانيّةٍ ارتُكبتْ ببشاعةٍ في حقّ سُودِ أمريكا. إنّها روايةٌ تتحدّث عن عصور الظّلام في أمريكا السّوداء، وتصوّر جرائم قتل العبيد والمتاجرة بأجسادهم الحيّة والميّتة. ويذهب بعض النّقاد إلى القول إنّ الرّواية مستوحاةٌ من «كوخُ العمّ توم» للكاتبة الأمريكيّة هاربيت بيتشر ستو، المعلّمة الّتي نادت بتحرير العبيد وساعدت، بروايتها الفارقة، على إشعال الحرب الأهليّة الأمريكيّة في بداية ستّينيّات القرن الماضي. وتعدّ رواية «لاعبُ الغمّيضة» من أكثر الرّوايات الّتي رشّحها القرّاء لحصد جائزة الكتاب الوطنيّة الأمريكيّة وجائزة دائرة نقّاد الكتب الوطنيّة.***

وكي أشاكسها، بادرتها بالسّؤال:

- وما سرّ نجاح روايتيْكِ، أريادنا؟

- السّرّ، في اعتقادي، هو أنّي أتخيّلني قارئةً وأنا أكتب. إذ أضع نُصب عينيَّ قارئًا ذكيًّا مغرمًا بالمتعة، وأحرص على أن أكتب له وليس لي.

«جميل»، علّقتُ.

وأضفتُ:

- وماذا بعد «لاعبِ الغمّيضة»؟

- بمجرد أن أنهيت النصّ وسلّمتُه إلى مكتب التّحرير في الأنفاس الأخيرة من السّنتَين المنقضيتَين، ألفيتني عاجزةً عن الكتابة. إذ جفّت قريحتي ونفد مدادي. وما كان لي أن أبدأ الإعدادَ لنصٍّ «ليالي وَلِيلي» لولا مصادفتي سيِّدةً بوسطنيّةً بمتحف الفنون الجميلة. لقد حدّثتني لينا عن فسيفساءَ منتزَعةٍ من أرضيّة موقع وَلِيلي، وهي موجودةٌ في بيتٍ عتيقٍ قريبٍ من الموقع، فسيفساء شبيهة إلى حدٍّ كبيرٍ بتابلوه «المحارب الموريّ» الّذي شغلني منذ زيارتي الأخيرة إلى اللّوفر بباريس. فلولا هذه الصديقة وتلك الزيارة لما عاودني شغف البحث والكتابة. وبالفعل، بدأتُ النبش في موضوع الفسيفساء الرّومانيّة بشمال إفريقيا قبل أن أشدّ الرّحال إلى المغرب. وأنا أدين لِلينا بإنهاءِ كتابةِ هذه الرّواية في فترةٍ وجيزةٍ لا تتجاوز ثلاثة أشهرٍ وبضعة أيام.

- ثلاثة أشهرٍ فقط وبضعة أيام! تبدو مدّةً قياسيّةً بالفعل. وكأنّك ألفيتِ القصّة جاهزةً فانبريتِ لإسكانها في الصّفحات.

- صحيحٌ أنّي لم أتوقّع إنهاءها في هذه المدّة القصيرة. ولم أكن لأفعل ذلك لولا فضاء وَلِيلي الّذي ألهمني، ولولا روائيٌّ مغربيٌّ شابٌّ أدين له، هو أيضًا، بالكثير.

وهنا قفز إلى ذهني جواد الأطلسيّ بحماسه. وكي أستزيد من تفاصيلِ مساعدةِ جوادٍ لها، سألتُ:

- أكانتْ له درايةٌ بالفسيفساء؟ كيف ساعدك؟

- قادني إلى العثور على الفسيفساء المفقودة الّتي اشتغلتُ عليها نواةً في الرّواية. وليس هذا وحسْب، بل ألهمتني أحلامه وحياته بوصفه كاتبًا تعرّض للابتزاز وسرقة نصٍّ غالٍ من كتابته.

لقد رأيتُ باخوس، الّذي كنتُه قبل دقائقَ، يثرثِر. رأيته يشعر بطلاقةٍ وبصفاء ذِهنٍ مع هذه البوسطنيّة رغم كمّيّة الكحول القليلة الّتي صعدت إلى رأسه. أمّا الآن فها هو ذا يغرق في لونٍ من الذّهول. وها هما عينا باخوس تفترسان البوسطنيّة كما لو تعاتبانها على إقحام هذا المعلّم في جلستهما الخمريّة. ولم يملك باخوس غير أن يدفع بصخرة الحديث إلى القمّة:

- وما حكاية هذا الكاتب الشّاب؟

أنهتْ كأسها الثّالثة، وملأتِ الرّابعة. ولم يَفُتْها أن تملأ كأسي الفارغة منذ مدّة.

- معلّمٌ شابٌّ، وكاتبٌ واعدٌ سبقَ أن فاز بجائزة الكتّاب المغاربة وتأهّلت إحدى روايتَيْه للّائحة الأخيرة لجائزةٍ عربيّةٍ مرموقةٍ، يعمل بمدرسة فرطاسة، لكنّه اكترى بيتًا عتيقًا قرب موقع وَلِيلي.

وقد تلقّى جواد مكالمةً من رجل أعمالٍ مغربيٍّ يقطن بأمريكا، عرض عليه فيها كتابة روايةٍ لقاء مبلغٍ ماليٍّ كبير. وبعد تردّد الكاتب الشّابّ، قبِل العرضَ، فتوصّل بعد ثلاثةِ أيّامٍ بنصف المبلغ المتّفق عليه. لكن بعد مرور سنةٍ بالتّمام، تردّد جواد في تسليم النّصّ الّذي بذل فيه مجهودًا كبيرًا. فما كان من رجل الأعمال إلّا أن أرسل اثنَين من رجاله هجما على البيت وانتزعا من جواد كلّ أوراقه المكتوبة، بما فيها مخطوطة الرّواية.

وباندفاعٍ غير محسوبٍ نطَّ إلى لساني السّؤال الحارق:

- وهل كتبتِ كلّ هذا؟

- طبعًا. لقد كتبتُه بحرقةٍ، جاعلةً من قصّة جواد تحرّيًا أدبيًّا موازيًا لتحرّي الفسيفساء المفقودة.

كانت جملتها الأخيرة صفعةً طيّرت مفعول الشّمبانيا من رأسي وقلبتْ مزاجي الرّائق رأسًا على عقب. تجرّعتُ هذه الجملة مع قِطعٍ من لحم الضّأن وبضع زيتوناتٍ محشوّةٍ، وأتبعتها الكأس المملوءة دفعةً واحدةً، فعلقتْ بلساني مرارةٌ تتنافى مع طعم الشّمبانيا.

وبامتعاضٍ مُرٍّ جاهدتُ إخفاءَه، رددتُ ضاغطًا على مخارج الحروف:

- جميل.. جميل!

فواصلتْ حديثها بحماسٍ:

- لقد وضعني القدر في طريق قصّةٍ كان على شخصٍ مّا أن يرويها. وهي قصّةٌ حقيقيّةٌ أقوى من أيّة روايةِ خيال. وقد شعرتُ منذ لقائي جوادًا بأنّها لم تكن سوى في بدايتها. أتدري؟ كان هذا الشّاب مزيجًا من رغباتٍ وأحلام. ومذ التقيتُه أوّل مرّةٍ عرفتُ أنّه رجلٌ هاربٌ من دفَّتَيْ رواية. وكان دوري أن أعيده إليها. ولمّا بحثتُ عن بطلةٍ لروايتي لم أجد من يصلح لهذه المهمّة سوايَ. هكذا وجدتُني، دون أن أشعر، واحدةً من شخصيّات الرّواية إلى جانب جواد. كان عليّ أن أستعمل اسمًا آخر، غير أنّي فضّلت في الأخير أن أستعمل اسمي الحقيقيّ. لقد كنت السّاردة والبطلة في الرّواية إلى جانب جواد. انتبهتُ إلى الكأس الّتي في يدي. كانت جامدةً في امتلائها. ومن دون أن أراعيَ الإتيكيت الّذي حرصتْ عليه جليستي منذ دخولنا حانة «القبّة»، أطبقتُ كفّي على حوافّ الكأس ورفعتها كيفما اتّفق لأدلقها في جوفي دفعةً واحدة. تجشّأتُ، وقلتُ:

- أنا متشوّقٌ بالفعل إلى قراءة الرّواية.

واستدركتُ:

- بل لقراءة مقاطعَ من المخطوطة، أو سماع مقاطعَ بصوتكِ الجميل، وسيكون شرفًا لي أن أطالعَ شيئًا من النّصّ قبل أن تسلّميه إلى دار النّشر.

- سوف يسعدني ذلك يا صديقي الفسيفسائيّ. وسيروقني جدًّا أن أشاركَكَ شغفي.

وبعد أن انتزعتُ منها ما يشبه وعدًا بقراءة مقاطِعَ من مخطوطتها «ليالي وَلِيلي»، قفزتُ بجرأةٍ على الحواجز هذه المرّة، وقلتُ على منوال جملتها الأخيرة:

- وأنت تروقينني أيضًا، لا لأنّكِ روائيّةٌ وحسْب، بل لأنّكِ أوّلًا رائعةٌ، وثانيًا لأنّك جميلةٌ عندما تشربين الشّمبانيا، وثالثًا لأنّكِ ساقيةٌ ذوّاقةٌ تليقين رفيقةً ونديمةً مثاليّةً لباخوس.

فضحكت من أعماقها بصوتٍ عالٍ هذه المرّة، وقالتْ:

- وأنت تروقني يا باخوس العظيم.

شربتْ ما تبقّى من كأسها في جرعةٍ واحدةٍ، وجعلتْ أصابعها تتماسّ مع يدي الموضوعة فوق الطّاولة، ثمّ أراحت ثقل كفِّها النّاعمة على ظاهر يدي، وضغطتها برفق.

كانت السّاعة المعلّقة على جدار الحانة قد قاربتْ منتصف اللّيل عندما أنهينا زجاجة الشّمبانيا. فتركنا «لاكوبّول» بعد أن دفعتُ ثمن الشّمبانيا، وثمن زجاجة نبيذٍ أحمرَ احتياطيّةٍ أخذناها معنا. واتّجهنا إلى حيث تركنا السّيّارة. كانت أريادنا متماسكةً رغم كؤوس الشّمبانيا الّتي دلقتها في جوفها. تضحك إثر كلّ كلمةٍ نقولها، وتلقي نُكَتًا سخيفة. ركبنا وسرنا في اتّجاه بلدة زرهون.

وفي الطّريق أخبرتُ أريادنا، كاذِبًا، بأنّ شريكي في البيت عاد من عطلته. فاقترحتْ على الفور، كما توقّعتُ، أن نذهبَ إلى بيتها بحيّ الضّريح. كنّا قد تركنا ضواحي مكناس خلفنا عندما تعالتْ من راديو السّيّارة أغنية Thriller الّتي سمعناها بالحانة:

«أيّ صدفةٍ هذه!؟ يبدو أنّ الحانة تركب معنا السّيّارة لنوصلها إلى زرهون!»، علّقتُ معربِدًا.

فقهقهتْ أريادنا، وتلاشتْ قهقهاتُها وسط كلمات الأغنية:

**You try to scream**

**But terror takes the sound before you make it**

**You start to freeze**

**As horror looks you right between the eyes**

**You're paralyzed**

**Cause this is thriller thriller night**

**And no one's gonna save you from the beast about to strike***

**الأحد 24 دجنبر 1995 (بعد منتصف الليل)**

* تحاول الصراخ / لكنّ الرعب يأخذ الصوت قبل أن تُصدره / تبدأ في التجمّد / بينما يحدّق الرعب في عينيك / أنت مشلول / لأن هذا مثير، إنها ليلة مثيرة / ولن يستطيع أحدٌ أن ينقذك من وحش على وشك الانقضاض عليك.

ركنتُ السّيّارة في زقاقٍ قريبٍ من السّاحة المركزيّة. وقبل أن نغادرها أخذتُ زجاجة النّبيذ وقرصَين ممغنطَين كنت قد وفّرتهما، على سبيل الاحتياط، للمَهامّ الطّارئة. دسستهما في جيب الجاكيت. وأعطيتُ أريادنا ذراعي لتتأبّطها. سرنا بخطواتٍ وئيدةٍ، ومشتْ هي متمايلةً تردّد مقاطعَ من أغنية مايكل جاكسون الّتي بدا أنّها حفظتها عن ظهر قلب. تجاوزنا السّاحة.

ثمّ سلكنا البوابّة المشرفة على السّاحة، ودلفنا إلى حيّ الضّريح. انعطفنا يسارًا لنسلك بابًا مقوّسًا عريضًا. ولمّا تخطّينا عتبته المؤلّفة من درجتَين، توغّلنا في الزّقاق الملتوي الضّيق. تجاوزنا باب دار الضّيافة المغلق. وبعد أمتارٍ من أوّل منحدرٍ على اليمين، وقفنا أمام الباب الحديديّ الأزرق ذي الإطار المزيّن بالزّليج. كان الزّقاق مقفرًا ومظلمًا لا تصل إليه إلّا بقايا شاحبةٌ من نور عمودٍ كهربائيٍّ تركناه وراءنا قُبَيْلَ منحدَرِ الزّقاق. فتحتْ رفيقتي حقيبتها وأخرجتِ المفتاح. أولجته في ثقب القفل. ودخلنا، مدّت يدها بشكلٍ آليٍّ إلى مفتاح النّور فاشتعل مصباح الرّدهة. عندئذٍ، أغلقَتِ الباب خلفنا وأدارتْ في قفله المفتاحَ.

كان المنزل ذا روحٍ مكناسيّةٍ تجلّتْ في الزّليجِ الّذي يكسو أرضيّته ويتسلّق جدرانَه، وفي الأثاث الخشبيّ والسّجّاد والزّربيّة المفروشة في الرّدهة المستطيلة الّتي تطلّ عليها الغرف الثّلاث والمطبخ. اتّخذت أريادنا الغرفةَ الوسطى للنّوم. أطللتُ عليها، فبدتْ كمخدع أميرةٍ لولا المكتب المركون عند أقدام السّرير. فوق السّرير حاسوبٌ محمولٌ صغيرٌ من آخر طرازٍ، وإلى جانبه كتبٌ ودفاترُ وأوراقٌ مبعثرةٌ كثيرة. وفيما أنا جالسٌ على أريكةٍ مريحةٍ بالرّدهة أشاهد التّلفاز، أخذَتْ دشًّا سريعًا، ثمّ نشّفت شعرها، ولبستْ روبًا مخمليًّا أحمر.

تبعتها إلى المطبخ فوجدتُها قد أخرجتْ من الثّلّاجة دجاجًا محمّرًا وشرعتْ تسخّنه في الفرن. لمّا سخن، وضعته في طبقٍ متوسّطٍ مع مرقٍ وزيتونٍ محشوّ. وفي أطباقٍ صغيرةٍ أخرى قدّمتْ خيارًا مُخلّلًا، ورزًّا مفوّرًا باردًا، وسلطةَ طماطمَ وخسًّا وفلفلًا وبصلًا نيِّئا.

وبعد أن وضعتْ على سفرة الطّعام كأسَين إلى جانب قارورة نبيذٍ أبيضَ حلوٍ استخرجتْها من أسفل باب الثّلاجة، صارت جاهزة. ملأتُ الكأسَين بالنّبيذ. وشرعتُ في أكل لقيْماتٍ من الدّجاج مع بِضْع ملاعقَ من الرّزّ. إذ كانت مقبِّلات البار قد فعلتْ فعلَها في بطني وتركتها زاهدةً في عشاءٍ ثقيل. أنا الآن أنظر إلى هذه الفاختة ترفل في روبها المخمليّ. لم أكن لأُستثار بجسدها رغم فتنته. فقد كان الانشغال بنصّها يلهيني عن التّولّه بصدرها الّذي استوفى كلّ معايير البهاء، أنا الّذي اكتحلتْ عيناي بصدور نساءٍ كثيرات.

انتقلنا إلى غرفة النّوم. فأخذنا معنا قارورةَ النّبيذ الأحمر الّتي جئت بها من «لاكوبّول» مع كأسَين. وضعتُها على منضدةٍ صغيرةٍ مغطّاةٍ بقطعة ثوبٍ كستنائيّة. وجلستُ على طرف السّرير. لكنّها خرجتْ فبقيتُ أنظر إلى ستارة النّافذة البيضاءِ المسدلةِ، فالمكتب، فحاسوبها غير المشَغَّل، فالمدفأة الكهربائيّة الرّابضة إلى جانب السّرير. ظللتُ أنقل نظري من الخزانة المفتوحة، إلى المشجب الّذي تعلّق عليه بعض أثوابها، وأملأ عينيّ بدبابيس شعرها الّتي صُفّت على طاولةٍ زينتها إلى جانب قارورتَيْ عطرٍ ومساحيق تجميل. بعد برهةٍ، دخلتْ حافيةَ القدمَين، وهي تتهادى في رشاقةٍ وزهوٍ رافِلَةً في الرّوبِ المخمليّ. كنتُ أراها في المرآة تسرّح شعرها الأشقر وتضع مشبكًا. في إثر ذلك دهنت شفتَيها بعكرٍ داكن الحمرة، وكحّلت عينَيها قليلًا فبدتْ رموشها سوداء

جدًّا وهو ما جعلها أكثر فتنةً. كانت، وهي تفعل كلّ ذلك، تتحدّث عن طلاقها من رجلٍ أنانيٍّ لا يرى أنّ من المناسب أن يُقرّ بتفوّق المرأة. فلم يحفل بنجاح كتابَيها، كما لو كان ذلك حدثًا بسيطًا، ولم يقدِّر يومًا قلمها:

- أصبحتْ حياتنا اليوميّة جحيمًا. صار ينتقد كلّ شيءٍ في حياتي، ويلومني بقسوةٍ على انصرافي «اللّعين» إلى الكتابة وتفرُّغي لها. كانت إهاناتٍ بالجملة تلك الّتي وجّهها إليّ لكنّي لم أنكسر، ولم أتفاجأ عندما اختفى من حياتي.

جلستْ قربي على طرف السّرير. فاستدرتُ نحوها. كان خدّاها مخمليَّين تشوبهما مِسحة حُمرةٍ وعنقها عاريًا أبيضَ ورائحتها الّتي يحملها الرّوب المخمليّ كثيفة. وضعتُ يدي على يدها المسندة إلى السّرير، ثمّ صعّدت سبّابتي على ذراعها الرّطبة. زحفتِ السّبّابة على كتفها فداعبتْ زغبًا أشقرَ نابتًا في رقبتها وخلف أذنَيها، فطفرتْ من عينَيها نظرةٌ ناعسةٌ لا تخلو من رغبة. أَمالتْ رأسَها وأسندته إلى كتفي. عندئذٍ، غرستُ أصابعي في سنابل شعرها، فرفعتْ يدها اليسرى إلى عنقي لتطوّقه. ثمّ سحبتني إليها وقبّلتني. اجتاحتني بأنفاسها، بحرارتها وروائحها المدوّخة. وعندما اعترضتْ جموحَها الثّيابُ انبرت لنزعها عنّي قطعةً قطعة.

اتّكأتُ على وسادة السّرير عاريًا إلّا من سروالي القصير. وهبّتْ أريادنا واقفةً في بهاء عُريها. فتحتْ باب خزانتها، وأخذت مبذلًا من حريرٍ أسودَ لفّتْ أطرافَه بجسدها من دون أن تشدّه بالحِزام المعلَّق على وسطه. ثمّ اتّجهت إلى مكتبها المركون في زاوية الغرفة عند أقدام السّرير. وصَلتْ حاسوبها المحمول بالشّاحن، وأتت به إلى السّرير.

كان حاسوبًا أبيضَ أنيقًا، ماركة توشيبا طراز T1910،لاحظتُ أنّه مزوّدٌ بمشغِّل الأقراص المرنة، فطفرتْ من فمي ابتسامةُ ارتياح. ضغطتْ أريادنا على زرٍّ من أزراره، فاشتغل بعد برهةٍ من دون أن تحتاج إلى إدخال رمزٍ سرّيٍّ، عندئذٍ، ابتسمتُ مرّةً أخرى للحظّ الّذي يواصل تواطُؤه غير المشروط معي.

فتحتْ ملفّ الرّواية، فكانت عناوينُ المقاطع تظهر مكتوبةً بخطٍّ مضغوطٍ وهي تمرّر الصّفحات على الشّاشة صعودًا. ثمّة كلمتان كانتا تتكرّران في العنوان، وتتناوبان، هما جواد وأريادنا. بغتةً، توقفتْ عند مقطعٍ يحمل عنوان أريادنا وشرعتْ تقرأ بإنجليزيّتها الفخمة:

***«... وكانت المفاجأة عندما نقلتُ الرقم الأمريكيّ إلى مذكّرتي، وجدتُ أنه هو نفسه رقم لينا.***

***أيُعقل هذا؟ لينا تومبان هي الّتي كانت وراء المكالمات!؟ لقد اكتشفتُ هذا بالمصادفة من رقم هاتفها الّذي كان مكتوبا في مذكّرتي، الرقمِ الّذي استعملتُه أكثر من مرّةٍ للاتّصال بها في أمريكا.***

***بَقِيَ لي أن أعرف هويّة الرّجل الّذي يوجد خلف لينا. أهو رجلٌ يعيش معها في أمريكا؟ من يكون ذلك الكاتب المغربيّ المغمور؟ أيكون ذاك المُتَّصِلُ كاتبًا فاشلًا ركب على ثدييْ لينا لتعبر به إلى أمريكا، وأراد أن يكافئها بكتابٍ يحمل اسمَه فيَكون إهداء نسخته الأولى من نصيب زورق النّجاة المسمّى لينا تومبان؟ من يكون ذلك الّذي سكَن وَلِيلي ولم يُنهِ نصّه الحُلم لأنّ الهجرة طوّحت به إلى أمريكا كما ادّعى لجواد في المكالمة الأولى؟ ماذا لو كان عشيقها هو تهامي نفسه الّذي عهدت إليه بالبيت عند رحيلها؟ فهو أيضًا كاتبٌ فاشلٌ يضع نفسه دائمًا في***

***خانة الكُتّاب الهواة حسب تعبير جواد. ولكن، كيف سيصل صوتُه إلى جوادٍ عبْر رقمِ هاتفٍ أمريكيّ؟***

***المسألة سهلةٌ يا صديقي القارئ: فما دامت لينا عشيقة تهامي، ومتواطئةً معه، بالإضافة إلى أنّها تركت له البيت ليُؤَجِّره إن شاء كما لو كان مالكه، فلن تدّخر جهدًا لمساعدته. ببساطةٍ، كلّ ما ستفعله هو أن تُشْرِف على عمليّة تحويل المكالمة من بوسطن: تأخذ هاتفَين وتضمّ سمّاعة أحدِهما إلى الأخرى. بتعبيرٍ آخر، سوف تأخذ هاتفين وتُلصِقُ سمّاعة أحدهما بـ «مِيكرو» الهاتف الآخر بعد فتْحِ خطّين واحدٍ مع جواد، والثّاني مع العشيق تُهامي، ويمرّ الكلام بين الرَّجلين».***

ما إن توقّفتْ في سردها عند هذا الحدّ، حتّى بدأت دقّات قلبي تتسارع، وأحسستُ أنّ شيئًا بداخلي يقطع عليّ تنفّسي. راح يتنازعني مزيجٌ من المشاعر المتضاربة: خوفٌ، ودهشةٌ، وحقدٌ، ورغبةٌ في الصّراخ بحقيقة كوني التّهامي. وحالما أمسكَتْ عن قراءة هذا المقطع من مخطوطتها، استحوذ عليّ ذهولٌ لم أشعر به من قبل في أصعب مواقف حياتي. إلهي كيف وصلتْ هذه المرأة إلى عين الحقيقة وهي الضّيفة القادمة من بلاد بعيدة؟ كيف لهذه الغازية أن تفضح مُخطّطي المحبوك بعنايةٍ بجَرَّةِ حِبرٍ روائيّة؟ من سمح لها بأن تحشر أنفها الطّويل في قصّتي وتُسكنني في كتاب؟

كان ذاك الّذي اقتادني إليها جشعًا أدبيًّا، فسعيتُ سعيًا إلى أن أسرق منها روايتها فأضمّها إلى القطعتَين الأدبيّتَين اللّتين استوليتُ عليهما بدهاءٍ. وإذا بي أجدني عاريًا في روايتها باسمي الشّخصيّ الّذي أخفيتُه عنها. آه لو تعلمين يا عزيزتي أنّ تُهامي، ذاك الكاتب الفاشل، الّذي كَتَبْتِ عَنْهُ، يجلس إلى جانبك الآن ويملأ ليلك بأنسٍ زائف.

أرخيتُ جسدي إلى الوراء متّكئًا على مسند السّرير. كان ثمّة ثقلٌ شديدٌ يجثم على صدري، فضلًا عن شعوري بأنّ جسدي محطّمٌ، وأنّ روحي تعيش في ظلامٍ وخيبة. كانت ثورة دقّات قلبي قد هدأتْ قليلًا. ولأخرجَ من صمتي، وقد كان عليّ أن أبديَ رأيي في مقطعها الرّوائيّ القاتل، سألتُها بصوتٍ أحسستُه ضعيف النّبرة:

- غريبٌ أمرُ هذه العلاقة بين لينا ورجل الأعمال! فمَن تكون لينا؟

- شخصيّةٌ في الرّواية ذات مرجعيّةٍ واقعيّة. إنّها تلك الصّديقة البوسطنيّة الّتي حدّثتك أنّها فتحتْ عينيّ على الفسيفساء، وكانت السّبب في مجيئي إلى المغرب. ولولاها ما بدأتُ كتابة هذه الرّواية.

- وماذا قالتْ لكِ عن «تُهامي» عندما سألتِها عنه؟

- لم أعلم بعلاقتهما حتّى أخبرني جواد بأنّ صاحبة البيت سيّدةٌ أمريكيّةٌ واسمُها لينا. ولم أتوقّع قطّ أن تكون هي نفسها لينا تومبان، رغم أنّها حدّثتني عن مُقامها القصير في المغرب غير بعيد عن موقع وَلِيلي الأثريّ. إلّا أنّ عون السّلطة كشف لنا عن اسمها الكامل وأضاف أنّها من بوسطن، وحينها وحسْب عرفتُ أنّها هي، صديقتي الّتي جمعني بها المتحف فتبادلنا أرقام هواتفنا. لقد اتّصلت بها قبل شهرٍ، مرّاتٍ عديدةً، على رقم هاتفها الّذي كان مسجّلًا في مذكّرة أرقامي، فوجدتُ الخطَّ غير مُشغّلٍ، مع العلم أنّه الرّقم نفسه الّذي كان يتّصل منه «رجل الأعمال» بجواد ليساومه على كتابة الرّواية.

الآن حصحص الحقّ يا تهامي. لقد كشفتْ هذه الأمريكيّة اللّعينة خطوط اللّعبة، بل لم تكتشفها وحدها، وإنّما كان معها جواد. كيف فكّرتَ في أن تعبثَ مع روائيَّيْن حِرفتُهما صناعة الألغاز وفكُّها؟

هل ستواصل سعيكَ إلى سرقة نصّها الّذي فضح بجلاءٍ خطّة سرقتِكَ الماكرة السّابقة؟ ماذا ستكون نتيجة محاولةٍ مثل هذه؟ النّتيجة يا عزيزي، أنّك إذا ما سرقتَ نصّها الآن، إن كنتَ ستقدر أصلًا على سرقته، فسوف تلاحقكَ وتُدخلكَ السّجن. وإذا ابتعدتَ عنها وكأنّ شيئًا لم يكن بينكما، فإنّ روايتها هذه (ليالي وَلِيلي) سوف تقودها إلى شخصكَ الحقيقيّ، وستجد نفسكَ قد دمّرتَ كلّ ما خطّطتَ له مُذ حزتَ مذكّرات الطّبيبة نوال الهنّاوي.

لقد جئتُكِ يا أريادنا راغِبًا في سرقتكِ، فوجدتُكِ قد أعدَدْتِ لي مقصلةً في كتاب، كتابٍ سيُترجمه جواد حال صدوره ببوسطن، لأنّك تعهّدتِ أن تَمنحيه حقوق التّرجمة، كما قُلْتِ لي في الحانة، وهو الحقّ المخوّل لكِ في بنود العقد الّذي أبرمتِه مع ناشركِ الجشِع. وإذا ما انتشر الكتاب بالمغرب، وهو أمرٌ متوقَّعٌ جدًّا، فلا شكّ أنّكَ يا تُهامي ستصير ذِكرَ كلِّ لسانٍ خائضٍ في الأدب وفي قلّة الأدب. وأنت لن تقبل بأن يُذاع عنك هذا في اتّجاهات الرّياح الأربعة.

هل سأسمح لكِ بتدميري في كتابٍ يا أريادنا؟ أنا تُهامي الّذي فقد كلّ شيءٍ، لكنّ شغفه باقٍ، وحقّه فيه باقٍ. شغف الفسيفسائيّ لا يموت عندما يُسكِنُه تحفةً جمَعَ قِطَعها بشقّ الأنفُس.

ظللتُ مسترخيًا، متّكئًا على مسند السّرير وقد سرقني الصّمتُ وهلةً، وهو ما تنبّهَتْ إليه أريادنا فقامتْ إلى الزّجاجة الموضوعة على

المنضدة، غير مباليةٍ بعُري إجّاصتَيها الكبيرتَين المطلّتَين من المبذل المفتوح، وملأتْ لنا الكأسَين. قرعتُ كأسَها وأنا أدعوها إلى الاحتفال بسردها «الّذي دوَّخني فِعلًا». فشكرتني على المجاملة «الصّادقة»، وشربتْ كأسَها دفعةً واحدة. على الفور، أمسكتُ بعنق الزّجاجة وملأتُ لها كأسًا ثانيةً دلقتْها في جوفها على طريقة الأولى. عندئذٍ، ملأتُ الكأسَين مجدّدًا، وبعد أن قرعناهما قلتُ:

- وهذه الكأس على شرف لينا وتهامي وجواد وأريادنا الّتي ليستْ سوى نسخةٍ ورقيّةٍ مِنك، وعلى شرف كلّ الكائنات الحبريّة الّتي حظيتْ بالحياة على يدَيك الملائكيّتَين.

ضحكتْ ضحكاتٍ ماجنةً اهتزّتْ لها الكأس في يدها، فاندلقت قطراتٌ من النّبيذ الأحمر على الحاسوب وعلى غطاء السرير. أخذتُ المحمول من حِجرها، ومسحتُ بيدي القطرات المندلقة على لوحة مفاتيحه. ثمّ حملته إلى المكتب. كنت حريصًا على أن يبقى مُشغَّلًا وموصولًا بالشّاحن. عدتُ في إثر ذلك، وقرفصتُ أمامها على السّرير وشربتُ كأسي بطقوسيّةٍ بهلوانيّةٍ، فاندلعتْ قهقهاتُها وهي تتابع حركاتي الخرقاء. لمّا هدأتْ قليلًا وضعتُ الكأس في يدها، فقرّبتْها من وجهها وظلّتْ تنظر إليها كما لو كانتْ منظرًا طبيعيًّا خلّابًا لا كأسَ نبيذٍ. ظلّتْ تتأمّلها ببلاهةٍ، بفمٍ مفغورٍ، وتضحك ضحكاتٍ متقطّعة. مددتُ سبّابتي والإبهامَ ودفعتُ الكأس إلى فمِها، فشربتْ نصفها. صحتُ فيها مشجّعًا: «برافو.. ويل داان.. براافووو...»، فكرعَتْ بقيّة الكأس حتّى آخر قطرةٍ، وعادت لتستأنف حلقات ضحكِها المتقطِّع.

صببتُ لها الكأس الأخيرة، ووضعتُ الزّجاجة على المنضدة الكستنائيّة. كانت قد فرغتْ تقريبًا ولم يعد يظهر في قعرها سوى خطٍّ أحمرَ

سميك. ثمّ اتّجهتُ مهرولًا إلى الحمّام لأفرغ مثانتي. هناك، وقفتُ عاريًا تقريبًا أتبوَّل في شرودٍ ورأسي مرفوعٌ إلى السّقف. استقرّت عيناي على سخّان الغاز من نوع «جانكير» الّذي تركَتْ أريادنا شعلتَه موقدةً بعد استحمامها. فقفزتِ الفكرة من موقع السّخّان لتستقرّ داخل رأسي.

لحظتَها تولَّدتْ لديّ الفكرة الإجرامية. تردَّدْتُ في دفعِها عنّي لبعض الوقت. تأرجَحتِ الفكرة في رأسي مُختالةً بدْءًا، ثمّ مُرتبكةً متردِّدةً بين الرغبة في الفعل وبين الخوف منه. وفي النّهاية اندلَعَ صوتٌ عميقٌ بداخلي معلنًا موافَقتَه على تنفيذِ إملاءاتِ الفكرة.

عدتُ إلى غرفة النّوم، فوجدتُ أريادنا ممدّدةً على ظهرها وقد أفلتتِ الكأس الفارغة من يدها. عدّلتُ وضعيّة جسدها على السّرير، ورفعتُ رأسها برفقٍ، ووضعتُ تحته الوسادة. في تلك اللّحظة، حرّكتْ رموشها بصعوبةٍ وغمغمتْ بكلماتٍ غير مفهومة. كان السُّكْر قد أرخى جسدَها وأفقده كلّ قواه فتركه فريسةً سهلةً لنوم ثقيل.

تأمّلتُ وجهَها البيضَويَّ النّائم، بدا لحظتَها أجمل بكثير ممّا كان عليه وهي صاحية. قمتُ واتّجهتُ إلى مكتبها. كان الحاسوب هناك لا يزال مفتوحًا. نقرتُ على ملفّ الرّواية فانفتحتْ أمامي الصّفحة الأولى، الصّفحة الّتي تلي الغلاف.

قرأتُ العنوانَ واسم الكاتبة ونوع الكتاب، ووددتُ أن أقرأ بعض الفقرات، أن أقرأَني مكتوبًا بقلم هذه البوسطنيّة الّتي تكتب بأظافرَ مصبوغةٍ، هذه الكاتبة الحسناء الّتي تجاوزتْ حدودها ومدّتْ يدها لتسرق حياتي وتُسكنها كتابَها. وقرّرتُ أنْ ليس هذا وقت قراءةٍ، بل وقت عمل.

اتّجهتُ إلى علّاقة الملابس قربَ باب الغرفة حيث علّقتُ جاكيتتي. دسستُ يدي في جيبها الدّاخليّ، واستخرجتُ القرصيْن المرنيْن. أولجتُ قرصًا بعنايةٍ في فتحة مشغِّل الأقراص الممغنطة، ونسختُ عليه ملفّ الرّواية الّذي قرأتْ لي منه أريادنا. ثمّ فعلتُ الشّيء نفسه مع القرص الاحتياطيّ. أعدتُ تشغيل القرصَين لأتأكّد من تخزينهما الملفَّ، ثمّ وضعتهما في غلافٍ كان يحويهما وأعدتهما إلى جيب الجاكيت بعد أن لبستُها. وقبل أن أغادر، مسحتُ ملفّ الرّواية من الحاسوب، وبحثتُ عن ملفّاتٍ ونصوصٍ مشابهةٍ كانت عبارةً عن مسوّداتٍ ومستنداتٍ ومقالاتٍ، مسحتُها هي أيضًا مسحًا كلّيًّا، وأوقفتُ تشغيل الحاسوب.

فتّشتُ بين أوراق أريادنا الموضوعة على سطح المكتب، فوجدتُ مذكّراتٍ ودفاترَ تضمّ فقراتٍ طويلةً وتواريخَ وملاحظاتٍ وهوامشَ حول وَلِيلي والفسيفساءِ. إلى جانب الدّفاتر، كانت ثمّة مفكِّرة أرقام الهاتف، وحزمةٌ من الأوراق وقُصاصاتُ جرائدَ رأيتُ في إحداها صورة أريادنا. أخذتها كلّها ووضعتها في كيسٍ بلاستيكيٍّ كبير. عادت عيناي لتستقرّا على جسد أريادنا نصف العاري، ثمّ انتقلتا إلى الطّاولة ذات الغطاء الكستنائي المخمليّ، فذهبتُ إليها مباشرةً وقطّرتُ سطْرَ النبيذ الأحمر المتبقي في فمي. وحملتها مع الكأسَين إلى المطبخ حيثُ ألقيتُ نظرةً على أواني العشاء الموضوعة في الجرن وأضفتُ إليها الكأسَين. أمّا قارورة النّبيذ فوضعتها إلى جانب أختها الفارغة المنسيّة هناك على الكونتوار. التقطتُ من فوق الثّلاّجة خرقةً قطنيّةً كانت تُستعمل منشفةً. وفتحتُ صنبور المطبخ وبلّلتها بالماء. ثمّ عصرتُها واتّجهتُ بها إلى غرفة النّوم.

ألقيتُ نظرةً على أريادنا. كانت غارقةً في نومٍ عميقٍ، تتنفّس ببطءٍ، لا يكاد يُلحظ ارتفاع صدرها وانخفاضه على إيقاع تنفّسها. لم أدرِ كم مضى من الوقت وأنا مسمَّرٌ قربَ السّرير أنظر إلى وجهها الجميل. هذا الوجه البيضَويُّ سيغيب عنّي حتمًا منذ هذه اللّيلة، تمامًا كما غاب وجه سامي. أو بالأحرى كما غيّبتُه.

صعدتُ إلى السّرير واقفًا. تخطّيتُ الجسد النّائم نصف خطوةٍ، وجعلتُ قدميَّ تستقرّان بمحاذاة وركَيها من الجانبَين. حاولتُ أن أستوعب كلّ حركةٍ أقوم بها. وجدتني واقفًا فوق جسدها، مباعدًا قدمَيَّ. وهي ممدّدةٌ بين ساقيَّ، تتنفّس بانتظام. انحنيتُ عليها ثانيًا ركبتيّ قليلًا. وبخفّةِ ساحرٍ بسطتُ الخرقة المبلّلة بيديَّ، ثمّ بخفّة قاتِلٍ أرخيتُ ركبتيّ على جانبيْ خاصرة أريادنا، وأطبقتُ الخرقة على أنفها وفمها. وشرعتُ أضغط بكلتا يديّ، أضغط وأضغط بكلّ قوّتي. غامت الرؤية أمامي لحظتئذ. ولم يحضرني في الأثناء سوى مشهدٍ مبتورٍ من شريط طفولتي البعيدة، مشهدِ أبي وهو يُمسكُ بخناقي. يرفعني بكلتا يديه اللّتين تحوّلتا إلى أنشوطة تلفّ رقبتي. تأرجحتْ قدمايَ في الهواء لحظةً قبل أن تظهر أمّي في المشهد. سحبتْ ذراع أبي إلى أسفل بكلّ قوّتها فأفلتَني. وارتميتُ أرضا أتمرّغُ كعصفور ذبيح. هذا القلب الّذي كاد يتوقّف يومَها لن يهاب القتل. لقد قَتَلْتَ من قبل يا تُهامي. وإن لم تكن قاتِلًا بإرادتك. وها أنت تقتُل مرّة أخرى، وبلا رحمة.

انفتحتْ عيناها، وجحظتا عن آخرهما مُسجِّلتَين انفتاحًا قياسيًّا. عينان أدركتا متأخّرتَين أنّهما إزاء أسوإ رجلٍ عرفتاه على الإطلاق. كانت العينان تصرخان بحثًا عن نفَسٍ لإغاثة الرّئتيْن المطالبتَيْن بهواءٍ جديد. ثمّ اندلع أنينٌ مكتومٌ من جوف الحنجرة، أنينٌ موجوعٌ محتجٌّ. وسرعان ما

تغضّنت الجبهة، وانتفض الجسد تحتي بقوّةٍ، لكن هيهات أن يزحزح هذا الصّخر الآدميّ الّذي اعتلاه. لقد كنتُ لحظتها كتلةَ صخرٍ صلدة.

كنت قد أحكمتُ عليها سيطرتي بثقلي وركبتيّ ويديّ. ولم أتركها حتّى سكنتْ حركاتها. لم أبرحها حتّى صارتْ جثّةً هامدة. وأنا أنظر إلى الجثّة، احتدمت في رأسي صورٌ وأفكارٌ وخيالاتٌ مبعثرةٌ ومشوّهةٌ. فظللتُ لحظةً ضائعًا. واعترتني قشعريرةٌ باردةٌ عبرَتْ كياني، وشعرتُ برغبةٍ ملحّةٍ في الفرار، لكنّ تلك الرّغبة لم تدم إلّا ثوانيَ، إذ سرعان ما لملمتُ شتات أفكاري.

لحظَتَها فقَط غمرتني قشعريرة مُخدِّرة، وأطلقتُ سَراحَ تنهيدةٍ طويلةٍ خرجتْ مُترنِّحةً كما لو حبستُها في صدري دهرًا. لقد تملّكَني لحظتَئذٍ شعورٌ بارتِياحٍ غامضٍ، بصفاءٍ، بإشباعٍ. ولم أفهم طبيعة هذا الشّعور إلّا فيما بعد.

سوف أتذكّر لاحِقًا قول فرُويد على لسان نوال الهنّاوي ذاتَ مُقابلةٍ: «التحليل النفسيّ للجريمة يقول إنّها تُرتَكَبُ من أجل إشباعِ حاجةٍ مُلِحَّةٍ للعقاب، لكي يتخلّص مُرتكبُها من مشاعر الذنب الناتجة عن خطإٍ اقترفه في مرحلةٍ من مراحِل حياته، خاصَّة في الطفولة».

لكن، أيُّ خطإٍ أو ذنبٍ، من ذنوبي الكثيرةِ، كان دافعي الرئيسَ لأطلبَ العقابَ؟ أيّ خطإ ولَّدَ لديّ هذه الرّغبةَ اللّاشعوريّة في نَيْل عقابي؟ أَهُو دهْسُ ابني سامي بالسّيارة؟

بدا جليًّا، من خلال الارتياح والصّفاء اللّذينِ أعْقَبَا قتلي أريادنا، أنّ تلك الرغبة المازوشية القديمة، في نيل العقاب، قدْ تلاشَتْ من لاشُعوري.

إذ طفقتُ، بتركيزٍ وخفّةٍ، أطمِسُ معالمَ الجريمة وأنظّف مسرحَها. قلبتُ الجثّة على بطنها، وزحزحتها إلى طرف السّرير. ثمّ حشرتُ ذراعي اليمنى تحت بطنها، وسحبتُها بقوّةٍ لتستويَ فوق كتفي، فصار رأسها متدلّيًا على ظهري وساقاها أمامي. عندئذٍ، نهضتُ بصعوبةٍ مستندًا إلى السّرير. لكم كانت ثقيلة! سرتُ ببطءٍ وحرصٍ، رازحًا تحت ثقل الجُثمان. إنّها الجثّة الثّانية الّتي أحملها بعد جثّة سامي.

لم يكن ما أشعر به وأنا أحملها جديدًا عليّ. فلم يعد يربكني حملُ جثمان. إنّي أحمل عدَمًا ليس إلّا. ذهبتُ بها إلى الحمّام. ولمّا تجاوزت جرن المرحاض، سحبتُ السّتارة البلاستيكيّة، وجثوتُ على ركبتيَّ لأضع أريادنا برفقٍ على بلاطة الاستحمام البيضاء المربّعة الشّكل. إذ كنت حريصًا على ألّا يُصابَ جسد الجثّة برضوض. كانتْ موتة السّرير مثاليّةً، فانتفاض أطرافها بقوّةٍ كان سيترك جروحًا على جسدها لو خنقتُها على أرضيّةٍ صلبة. برفقٍ، نزعتُ عنها المبذل المفتوح العالق بذراعَيها. في تلك اللّحظة، تذكّرتُ لقطةً من فيلم «سايكو» تظهر فيها ماريون وهي تنزع مبذلها الحريريّ المزيّن بوُرَيقاتٍ صغيرةٍ، فيطلّ ظهرها الجميل ثمّ تنتقل الكاميرا لتصوِّر ساقَيها الشّمعيّتَيْن. أخذتُ المبذلَ الأسود وعلّقتُه على المشجب القريب من السّتارة البلاستيكيّة، فعَبَر أفقَ خيالي مشهدُ حلقات سِتارة الفيلم بالأبيض والأسود وهي تُنتزع بقوّةٍ من القضيب الأفُقيّ الّذي يحملها بعد السّحبة العنيفة بيد ماريون. كانت جثّة أريادنا جالسةً متّكئةً على الجدار تمامًا كما في لقطة الفيلم قبيل السّقوط النّهائيّ على أرضيّة الحمّام. نزلتُ لأضع يدي على التّبّان الورديّ، فاستقرّت عيناي على السّرّة، عندئذٍ، تبدَّى لي السّكّينُ، في خيالي، ينغرز في بطن ماريون الصّقيل، على تخوم السّرة.

نزعتُ تبّانَ الجثّة بصعوبةٍ، ورميته في سلّة الملابس غير المغسولة المركونة يسار مدخل الحمّام. وليُرى المشهدُ حيًّا، كان لا بدّ من أن يكون هناك بلَلٌ، أن يكون هناك ماء. أدرتُ محبس الماء السّاخن، فاندلق ماء الرّشّاش، واندلع معه هدير سخّان «جينكر»، وظهر لهبه الأزرق. ابتلّ شعرها الأشقر والتصق بجلد رأسها، فطابقت صورتُها لقطةَ الفيلم الّتي بدأتْ تتكرّر في رأسي بسرعةٍ تفوق إيقاع التّنقلات الهيتشكوكيّة في الشريط.

أصابني بلل الرّشّاش، ولم أكترث. مددتُ يدي إلى رفٍّ عليه صابونٌ وقواريرُ شامبو. أخذتُ قارورةً، ودلقتُ منها السّائل الأبيض الخاثر على رأس أريادنا فتلقّفته القطراتُ وحوّلته رغوةً سرعان ما انطلقتْ تهرول نحو بالوعة التّصريف هاربةً من جمود الجسد الميّت. ولمّا مددتُ يدي إلى محبس الماء لأوقف اندلاقه، سمعتُ صوت ارتطام. التفتُّ فوجدتُ الجثّة قد برِحتْ مُتّكأَها على الجدار وانكفأتْ على وجهها، فالتصق صدرها بأرضيّة الحمّام وظهَرَ منه الثّدي الأيمن، بينما انقلبتْ ذراعها اليمنى جانبًا وبرزتْ راحة كفِّها إلى أعلى. ويا لَدهشتي، إذ أنّ انكفاءَها ذاك كان محاكاةً دقيقةً لِلَقطة مشهد الحمّام الأخير في فيلم «سايكو» الّذي لطالما رشّحتُه ليكون أفضل أفلام هيتشكوك: كان نصفُ وجه جثّةِ أريادنا قد التصقَ بأرضيّة الحمّام، وشخصت عينها اليمنى في ذهولٍ، وتحت العين، من جهة الأنف، اعتصمتْ ثلاث قطرات ماءٍ بصِفتهنّ شاهدات زورٍ على موتِ الأمريكيّة اختناقًا في الحمّام.

تركتُ الحمّام بنيّة أن أعود إليه بعد الفراغ من مسح الغرفة والمطبخ من آثاري. ومن فوق الثّلّاجة، التقطتُ كيسَيْن بلاستيكيَّيْن رقيقَيْن

فارغيْن، أدخلتُ فيهما كفّيّ، وحزّمتهما عند المعصم باستعمال أسناني. ثمّ أخذتُ منشفةً ومسحت بها كلّ الأماكن الّتي شككتُ في أن أكون قد لمستها: مقبض الثّلّاجة، مسند كرسيٍّ، كونتوار المطبخ، الصّنبور، كأس ماءٍ كان فوق الكونتوار. بعد ذلك، التقطتُ من الجرن خمسةَ أطباقٍ وملعقتَين وثلاثَ كؤوسٍ صببتُ عليها الماء ومسحتها، وأعدتها إلى رفٍّ فوق الكونتوار كانت به أوانٍ نظيفة. ظهر لي في الرّفّ طقمُ سكاكينَ متوسّطة الحجم بمقابضَ خشبيّةٍ في علبةٍ بلاستيكيّةٍ مغلقةٍ، فأخذت من الطّقم سكّينًا وضعته بجيب جاكيتي الداخليّ، إلى جوار القرصَيْن الممغنطَين.

ووضعتُ زجاجتيْ النّبيذ الأبيض والأحمر الفارغتين في كيس القمامة الّذي كان خاويًا إلّا من بقايا أكلٍ وجبةِ العشاء: عظام دجاجٍ وقشور موزٍ ومعها عازلٌ طبّيٌّ مستعمل. ثمّ حملتُ الكيس، ومسحتُ مفتاح النّور بالمنشفةِ وأطفأتُ المصباح. في الرّدهة قرب مدخل البيت، وضعتُ الكيس، وذهبتُ بالمنشفة إلى غرفة النّوم. فعدّلت الفراش، وفصلتُ المدفأة عن الكهرباء، وبالمنشفة، مسحتُ المكتب والحاسوب بعنايةٍ ودقّةٍ متناهيتَيْن. ثمّ أخذتُ الكيس الكبير الّذي ملأته بدفاتر أريادنا وأوراقها وقصاصات صُحف ومفكّرة الأرقام. وقبل أن أمسحَ مفتاح النّور، أطفأتُ مصباح الغرفة.

وضعتُ كيس الأوراق بجوار كيس القمامة في الرّدهة، واتّجهت صوب صديقتي البوسطنيّة. كانت كما تركتُها، مُلصِقةً نصف وجهها بأرضيّة الحمّام وعينها اليمنى شاخصةٌ في ذهول. رفعتُ عنها عينيّ، ونقلتُهما إلى أعلى، صوب السّخان. ما زال «الجانكير» هناك يعلن حضوره بشعلته الزّرقاء الّتي لم تنطفئ منذ بدأتْ أريادنا استحمامَها فور دخولِنا.

انتبهتُ إلى أنّ دفّة نافذة التّهوية مفتوحةٌ. فوضعت رجلي اليسرى فوق خزّان المرحاض ومددتُ يدي إلى النّافذة وأغلقتُها بإحكام. ثمّ أخرجتُ من جيب الجاكيت السكّين، وأحدثتُ به ثقبًا في مدخنة الألمنيوم المتصلة بالسّخّان، وأعدتُه إلى جيبي. ولم أنسَ مسْحَ محبس المياه وزِرّ تدفُّق ماء المرحاض وقارورة الشامبو وأطراف السّتارة ومفتاح النّور، ثمّ رَمْيَ المنشفة في سلّة الغسيل. وقبل أن أخرج من الحمّام وأسحب بابه خلفي من دون أن أُطفئ النّور، مددتُ يدي المقفّزة (بالكيس الرّقيق) إلى محبس الماء وفتحتُه من جديدٍ، وخرجتُ تاركًا الرّشّاش يدلق قطراتٍ تُحدِث ذاك الصّوت الأليف الّذي سيظلّ سنواتٍ طويلةً مرتبطًا في ذاكرتي بمشهد كاتبةٍ عاريةٍ ميِّتةٍ خنقًا في الحمّام.

وقفتُ في الرّدهة غير بعيدٍ عن المدخل، وألقيتُ نظرةً أخيرةً إلى حيث تنام أريادنا نومتَها الأخيرة. كان هناك خطٌّ من الضّوء يرسم حدود العتبة تحت باب الحمّام. وعلى ضوء مصباح الرّدهة، اتّجهت صوب الباب الخارجيّ. مددتُ يدي إلى المفاتيح المتروكة في القفل أسحبها وأتفحّصها في الضّوء. كانت ثمّة نسختان من مفتاح الباب. جرّبتهما معًا في القفل فعمِلتا. فنزعت إحدى النّسختَين من الحزمة ودسستها في جيب سروالي، وتركتُ الثّانية في القفل. ألقيتُ نظرةً أخيرةً على الرّدهة المضاءة. ثمّ التقطتُ كيسَي الأوراق والقمامة، انتعلتُ حذائي، وخرجتُ من دون أن أنتزع المفتاح من فتحة القفل الدّاخليّة. أرسلتُ نظرةً حذِرةً مسحتُ بها الزّقاق المقفر، ثمّ سحبت الباب بيدي «المقفّزة»، وأخرجتُ نسخةَ المفتاح من جيب سروالي، أدرتُها في قفل الباب، وأعدتها إلى الجيب.

❃❃❃

ها هي القطع الأدبيّة الثّلاث جاهزة الآن. أخيرًا، غدت التّابلوهات الفسيفسائيّة الثّلاثة في متناول اليد، بعد أن رصفَ قطعَها الدّاخليّةَ ثلاثةُ فسيفسائيّين مقتدرين هم: جواد الأطلسيّ، وأريادنا نويل، ونوال الهنّاوي. لا شكّ في أنّ أنفَس القطع الثّلاث هي القطعة الوسطى، مخطوطة «ليالي وَلِيلي». إذ لم أقرأ بالمرّة شيئًا بهذا القدر من الواقعيّة والإثارة. إنّها كتابةٌ فريدةٌ بعينٍ أمريكيّةٍ بارعةٍ في النّفاذ إلى التّفاصيل. لكنّ ما أثارني فيها أكثر لمسةٌ ميتاسرديّةٌ فطنتْ إليها أريادنا نويل عندما جعلتْ شخصيّة جواد الأطلسيّ يشعر، أو يحدِس، أنّ هناك مَن يتلاعب بخيوط وجوده، وأنّه باتَ فريسة يدٍ روائيّةٍ تسلّطتْ على حياته فبدأتْ تغيّرها على نحوٍ مجنون. حتّى السّرنمة الغريبة الّتي أخذته إلى الموقع الأثريّ بدت له تدخُّلًا روائيًّا اجترحتْه مخيِّلةُ كاتبٍ مجنون!

القطع الثّلاث الآن بين يديّ. وكلّ ما ينبغي لي عملُه هو أن أؤلّف بينها وأرتِّب فصولها. قرأتها قطعةً قطعةً، ولوحةً لوحةً، فأربكتني التّقاطعات الّتي ألفيتُها بينها، وذاك التّجاسر الرّهيب الّذي لا يخطر على البال. ثمّ مزجتُ النّصوص الثّلاثة وأدخلتُ صوتي ساردًا مشاركًا، وساردًا أعلى وكاتِبًا في آنٍ، محافظًا على خصوصيّة كلّ رواية. ولم أغيّر فيها إلّا ما ندر، باستثناء أسماء بعض الشّخوص الّتي بدّلتُها.

سوف أستعير هنا صوت الفسيفسائيّ، صوت صانع الفسيفساء الموريّ، كما كتبه جواد الأطلسيّ، لأقول: أنا الفسيفسائيُّ أخطّ لكم هنا قطعةً أدبيّةً زُخرفتْ على أرض وَلِيلي. شخوص لوحاتي الفسيفسائيّة ما زالت تصرّ على العيش معي على نحوٍ واقعيٍّ. والأصحّ أنّها عاشتْ معي، تمامًا مثلما عاش خالقوها معي. وقد كنتُ، في أكثر من مرّةٍ، في مخطوطاتهم، على ألسنة سُرّادهم، واحدًا منهم. كنتُ شخصًا حبريًّا

ثقيلَ البأس بين ثنايا سرودهم، إلى أن انتشلتُني وبوّأتُني مقامَ السّارد الأعلى الّذي ينظر من نقطةٍ نائيةٍ، من عَلٍ، إلى أولئك الّذين أسكنوني عنوةً في نصوصهم.

ظللتُ أنظر إليهم بما استطعتُه من حيادٍ، من بُرج الكاتب، ومن برج السّارد الأعلى طبعًا، كما لو أنْ لا علاقة تربطني بهم.

تلاحقني شخصيّاتي الفسيفسائيّة في كلّ مكان، فتطالبني أحيانًا بأن أعيد إليها أسماءها الأولى الّتي بدّلتُها، وتشاركني لحظاتِ يومي كلّها. علاوةً على أنّها تبزغ في مناماتي وتلحّ بصفاقةٍ على أن تزاحم الأشياء بداخلي لتسرق حصّتها الوفيرة من اهتمامي.

كان عليّ أن أفتح ورشة عملٍ لأجل ترتيب قِطع الرّواية التّرتيبَ الّذي يليق، ورشةً فسيفسائيّةً روائيّةً أشتغل فيها على قطعٍ ثلاثٍ خُضتُ لأجلها تضحياتٍ لا تُخاض. كان لا بدّ من أن أجد طريقةً أسير على هَديها لِلَملمة أجزاء الرّواية وتنضيدها. ملأتُ صفحاتٍ من دفاتِري بالملاحظات حول النّصوص الثّلاثة الجاهزة. ثمّ مزجْتُ القطع الثّلاث مرتِّبًا أحداثها بما يضمن تكاملها. وضبطتُ الزّمن في بداية كلّ مقطع (باستثناء مقاطع رواية الفتى الموري). في إثر ذلك، وزّعتُ سرود النّصوص الثّلاثة على ستّة عشر فصلًا، وذيّلتُها بمُلحقٍ بصوتي، صوتِ الفسيفسائيّ، مع استهلالٍ ونهاية بصوتِ السارِدِ الأعلى الّذي بَوَّأتُني مقامَه. وحافظتُ على سرود المخطوطات الثّلاث كما كتبها أصحابُها، فلم أبدّل فيها إلّا ما رأيتُه ضروريًّا، ومن شأنه أن يخدم بناء الرّواية الجامعة الّتي عنونتها «الفسيفسائيُّ».

ومن سخريّة قدَر الحِبر أنّي عندما حُزْتُ مادّةَ ثلاثةِ نصوصٍ متقاطعةٍ وملتبسةٍ، عادتِ الكتابة تعانقُ أصابعي. فكتبتُ مقطعًا ذيّلتُ به مذكّرات نوال الهنّاوي، وملحقًا طويلًا بقلم الفسيفسائيّ الّذي كُنتُه في الرّواية. وأنا أكتبُ هذا المقطع (الّذي تقرؤونه الآن) وجدتُني أعيش مجدّدًا تجربةَ الكتابة كولادةٍ جديدةٍ، كشرارةٍ واعدةٍ التمعتْ في حياتي بِصفتي مبدعًا هجره شغف الحبر حينًا من الزّمن. كان من الجيّد أن أشعر مرّةً ثانيةً بذلك الشّغف، بتلك اللّهفة، بتلك الرّعشة الّتي تدفع بأصابِعي إلى تسلّق سماء التّخييل.

أقمتُ ما يُقارب شهرين في ورشتي الرّوائيّة أكتب وأُشطّب وأرتّب المقاطع. في الأثناء، عثرتُ على قُصاصتَيْن مهمّتَيْن في أوراق أريادنا، أضفتُ إليهما قصاصاتٍ أخرى من اختياري، وأخصّ بالذّكر إحدى قصاصات جريدة «الواجهة» الّتي تتبّعَت التّحقيق في موت الكاتبة الأمريكيّة نويل:

***حلّ لغز وفاة الكاتبة الأمريكيّة أريادنا نويل***

***(جريدة الواجهة - صفحة الأحداث - عدد الاثنين 5 فبراير 1996)***

**كشفت النّيابة العامّة لغزَ وفاة الكاتبة الأمريكيّة أريادنا نويل داخل بيتها المستأجر ببلدة زرهون. وقد عُثِرَ على جثّتها في الحمّام عشيّة الحادي والعشرين من شهر يناير الماضي. وبعد تسلُّم تقرير الطّبّ الشّرعيّ تبيّن للنّيابة أنّ الوفاة كانت بسبب توقُّف الأوكسجين عن الوصول إلى أنسجة الجسم. ومردّ ذلك استنشاقُ الضّحيّة أحادي أكسيد الكربون الّذي أنتجه سخّان الغاز.**

**وكانت النّيابة قد فتحتْ تحقيقًا في القضيّة، وأمرتْ بتشريح جثّة المتوفّاة الّتي كانت قد دخلت في مرحلة التّصبُّن. إذ تمّ التأكيد على أنّ الوفاة مرّ عليها نحو ثلاثة أسابيع قبل اكتشاف الجثّة.**

**وكان قسم الدّرك بزرهون قد تلقّى بلاغًا من صاحب البيت الّذي اشتمّ رائحةً عفِنةً من فرجة الباب، وذلك بعد أن تأخّرتِ المستأجِرة الأمريكيّة عن التّسديد وغابتْ غيابًا مفاجئًا. وعلى الفور، انتقلتْ أجهزةٌ من الدّرك ووحدةٌ من شرطة مكناس إلى المكان، حيث عُثِر على امرأةٍ تحمل جنسيّةً أمريكيّةً في منتصف العقد الثّالث من عمرها. ومن خلال التّحقيق الّذي قاده مفتِّشُ الشّرطة الممتازُ جلال الكتّاني المشهورُ بحلِّه قضايا عصيّةً حيّرتِ محقّقِي مكناس، فُنِّدَتْ مزاعم تعرّضِ الأمريكيّة للقتل. إذ تبيَّن عدم وجود أيّ أثر عنفٍ على الأبواب والشّبابيك، وعدم تسجيل أيّ بعثرةٍ لمحتويات البيت، فضلًا عن أنّ باب البيت الخارجي كان مغلقًا بالمفتاح من الدّاخل. وتمّ تحرير محضرٍ في الواقعة.**

قبل أن أدمج المخطوطات الثّلاث في أرضيّة روايتي الجامعة، بدأتُ أرسم تخطيطًا هندسيًّا في ذهني للشّكل الرّوائيّ الّذي أريد توليفه. في إثر ذلك، هيّأت التّابلوهات النّفيسة الثّلاثة (الّتي حصلتُ عليها جاهزةً) وراجعتها، ثمّ قطّعتها إلى فصولٍ قبل أن أركّبها بدقّةٍ فتتكامل الخطوط والزّخارف فيما بينها كما لو رُصَّتْ على لوحٍ واحد. وعندما استوت اللّوحة الفسيفسائيّة، نثرتُ قصاصاتِ الصحف بين تلافيف الرّواية. ثمّ بحثتُ عن اقتباساتٍ مناسبةٍ رصّعتُ بها مداخل المخطوطات الثّلاث. زيادةً على ذلك، طفق الفسيفسائيّ الّذي يسكنني يملأ الفراغات بين القطع بالحِبر. وانبرى لملء الفواصل ومدّ التّعالقات بين

الحكايات. وكآخر خطوةٍ، مسحتُ سطح اللّوحة الرّوائية الكبرى من الشّوائب.

هذه هي قصّتي. ليستْ سيرةً ولا كتابًا طُفيليًّا. إنّها قصّتي مع كُتّابِ نصوصٍ ثلاثةٍ أحببت أن أجمعهم في نصٍّ واحدٍ، في فسيفساءَ روائيّةٍ واحدةٍ جديرةٍ بأن تُقرأ بمتعة.

تركتُ مخطوطة الرّواية تختمر في حاسوبي مدّةَ حولٍ كامل. نعم، تناسيتُها مدّةَ سنةٍ بالتمام. ولمّا عدتُ إلى حوليّتي، قرأتها مرّاتٍ بعين قارئٍ محايدٍ. أجريتُ تصويباتٍ قليلةً على النّصّ. وبحلول شهر مارس عامَ 1997، بعثتُ بالمخطوط عبر البريد، مُرفقًا برقم هاتفي إلى دارِ نشرٍ مرموقةٍ بالرّباط. هي الدّار نفسها الّتي سبق أن راسلتُها سنواتٍ خَلَت بشأن روايتي الأولى فلمتكلّف نفسها كَرَمَ الرّدّ. هكذا هم النّاشرون. إنّهم أشخاصٌ يعاملونك دائمًا كطفلٍ يلعب بنصوصه أمام باب الدّار منتظرًا أن ينادوه لاحتضان نصّه النّاشئ. وعندما يقبلون نصّك، وتحقّق به نجاحًا، يقولون إنّهم صنعوك.

لم تمرّ على بعث المظروف الثّقيل سوى ثلاثةِ أسابيعَ، حتّى تلقّيتُ مكالمةً من مدير الدّار شخصيًّا. أخبرني خلالها بعد مقدّمةٍ انتقى كلماتها بعنايةٍ، أنّه ينوي نشر الرّواية وفق عقدٍ بيننا. وكانت فرحتي بانتصاري على الحبر كبيرةً، وتمنّيت لو كانت لينا معي لنحتفل.

# نهاية

كان قد التحق بقسم شرطة مكناس في نهاية عشريناته. ورُقِّيَ قبل ثلاث سنواتٍ إلى رتبة مفتّش شرطةٍ ممتاز. إنّه الرّباطيّ المدلّل. ذلك الّذي غيّره انضمامه إلى سلك الشرطة كثيرًا. فهو أحد خرّيجي معهد الشّرطة الملكيّ بمدينة القنيطرة، تخصُّص تقنيّ مسرح الجريمة.

مراد الشّرّادي الآن في منتصف ثلاثيناته. شابٌّ طويلٌ، ذو جسدٍ رياضيّ. بشرته قمحيّةٌ داكنة. عيناه بلون القهوة تتّقدان ذكاءً. اشتغل بعدّة قضايا محيِّرة، منها قضيّة الكاتبة الأمريكيّة الّتي ماتت في بلدة زرهون اختناقًا بغاز السّخّان. ميّزه من أبناء مهنته حُبُّ المطالعة. فقد عرف في سنٍّ مبكّرةٍ فضْلَ القراءة، فانبرى لها. كان يمضي وقت فراغه باحثًا عن الكتاب المناسب الّذي يستسيغ تفاصيله وحواراته وأفكار شخصيّاته. وكثيرًا ما أرجعَ نباهته في عمله إلى قراءة الرّوايات، ولا سيّما البوليسيّة منها. إذ قرأ بنهمٍ روايات آرثر كونان دويل، وأحاجي أجاثا كريستي، وتحقيقات الفرنسيّ موريس لوبلان ومناوراته مع لصِّه النّبيل أرسين لوبين. فضلًا عن أنّه قرأ لمارجيري ألنغهام، واكتشف متأخِّرًا سيدني شيلدون عرّابِ الرّواية البوليسيّة دون منازعٍ في العقود الأولى من هذا القرن. شغفَه شيلدون بتحقيقاته في أفلامه ورواياته الّتي تتبّعها بلهفة، وانطلق يبحث عن نصوصه الإنجليزيّة في مكتبات الرّباط ومكناس.

وهو خارجٌ من شقّته بحيّ حمريّة صباحًا، عرّج على المكتبة وسأل البائع عن روايات سيدني. فتأسّف الكتبيّ لغياب نصوص ذاك الكاتب عن

حديقته الورقيّة، ومدّ كفّه المبسوطة إلى الرّفّ الزّجاجيّ مقترحًا على زائره أن يطّلع على الباقة الجديدة من الإصدارات الّتي تعرضها المكتبة أوّلَ مرّة. اقترب مراد الشّرّادي بقامته الفارعة من الرّفّ الزّجاجيّ الّذي يعلوه ملصقٌ كُتِبتْ عليه عبارة «آخر الإصدارات» لتقع عيناه البنّيتان على روايةٍ جيّدة الإخراج أنيقة الغلاف. قرأ عنوانها: «**الفسيفسائيّ**» لصاحبها **عاصم الشّبيهي**.

أثاره العنوان الرّاقد في سماءٍ ترابيّةٍ. أسفله تتربع فسيفساءُ بديعةٌ تنحُتُ مَعالمَ امرأةٍ سمراء. سحب الكتاب من الرّفّ وتصفّحه. توقّف بالمصادفة عند صفحةٍ كتابتُها مغايرةٌ لبقيّة الصّفحات، كانت مكتوبةً بخطٍّ مضغوطٍ على شكل عمودٍ صحفيٍّ، فقرأ:

**«حلُّ لغزِ وفاةِ الكاتبة الأمريكيّة أريادنا نويل**

**(جريدة الواجهة - صفحة الأحداث - عدد الاثنين 5 فبراير 1996)**

**كشفت النّيابة العامّة لغزَ وفاة الكاتبة الأمريكيّة أريادنا نويل داخل بيتها المستأجَر ببلدة زرهون. وقد عُثِرَ على جثّتها في الحمّام عشيّة الحادي والعشرين من الشّهر الماضي. وبعد تسلُّم تقرير الطّبّ الشّرعيّ تبيَّنَ للنّيابة أنّ الوفاة كانت بسبب توقُّف الأوكسجين عن الوصول إلى أنسجة الجسم. ومردّ ذلك استنشاقُ الضّحيّة أحادي أكسيد الكربون الّذي أنتجه سخّان الغاز ..».**

وهو يقرأ، وقبل أن يصل إلى الأسطر الأخيرة من قصاصة الصحيفة المكتوبة بخطٍّ مضغوطٍ، كان جبينُه قد تغضّن قليلًا وارتسمَتْ علامات الحيرة والدّهشة على وجهه الوسيم.

**«.. ومن خلال التّحقيق الّذي قاده مفتِّشُ الشّرطة الممتازُ جلال الكتّاني المشهورُ بحلّه قضايا عصيّةً حيّرتِ المحقّقين، فُنِّدَتْ مزاعم تعرّضِ الأمريكيّة للقتل. إذ تبيَّن عدم وجود آثار تحطيمٍ على الباب والشّبابيك..»**

اعتمرتْ رأسه سحابةٌ من الذّهول: فثمّة تشابهٌ لا يُصدَّق بين خبر هذه القصاصة وواقعة موت كاتبةٍ أمريكيّةٍ ببلدة زرهون قبل سنتَين تقريبًا، كان هو المسؤول عن التّحقيق الجنائيّ فيها. ولكنّ المفتِّش هنا، في الرواية، يحمل اسمًا آخر. وكذا الضّحيّة الأمريكية لها اسمٌ غير ذلك الّذي يحفظه عن ظهر قلب!

اقتنى الرواية، وتوجّه بها إلى مقهاه المفضّل الواقع في أوّل جادّةٍ متفرّعةٍ عن الشارع الرئيس الّذي تتواجد فيه المكتبة. وباشَرَ قراءتَها بحماسٍ .

كانت مآذن المدينة الإسماعيليّة تُدلق أذان صلاة العشاء عندما انتهى مراد من قراءة الرّواية. شعر بوخزٍ في عينَيه وبِطَنينٍ يملأ رأسه. ومع ذلك ظلّ عاجزًا عن الإشاحة بنظره عن صفحات الرّواية. كان دوار الإعجاب بما قرأ يختلط لديه برهبة الجريمة الكاملة الوحيدة الّتي لم يجد رأس خيطها في مسيرته المهنيّة بصفته مفتّش شرطة. فهذا الكتاب يحكي تفاصيلَ جريمةٍ سبَق له أن حقّقَ فيها قبل سنتين!

خرج من المقهى يمشي بخطواتٍ وئيدةٍ، ورأسه يزدحِم بمشاهد التّحقيق الّتي ظلّتْ محفورة في ذاكرته: مشهدِ الماء المتساقط من الرّشّاش على الجثّة الّتي دخلتْ مرحلةَ التّصبّن، مشهدِ الباب الخارجيّ الأزرق الّذي كان مغلقًا من الدّاخل بالمفتاح، مشهدِ الثّقب الّذي أُحدِثَ في أنبوب مدخنة السخّان بأداةٍ حادّةٍ، طقمِ سكاكين المطبخ

الّذي كان ينقصه سكّينٌ واحدٌ، المِبذلِ المعلّق والمنشفة والتّبّان في سلّة الغسيل، مصباحَيْ الحمّام والرّدهة المضاءيْنِ، حاسوبِ الكاتبة الخالي من أيّ نصّ. بين يديه الآن رواية تكشف تفاصيل الجريمة الكاملة الوحيدة الّتي لم يجد رأسَ خيْطِها لمّا وقعتْ قبلَ سنتين ببلدة زرهون. سنتان تقريبًا مرّتا على الواقعة. سنتان ومراد يدوِّر في رأسه احتمالاتٍ مستحيلةً من دون أن يجد مؤشّرًا مفيدًا في التّحقيق.

سنتان مرّتا عليه وهو يستعيد هذه الصّوَر من دون أن يصل إلى فهم ملابسات قتْل الكاتبة الأمريكيّة آليس مور. في البدء، اتّجهت شكوكه إلى رفيق الأمريكيّة، المعلّم الشّابّ بمدرسة فرطاسة المدعوّ ناصرُ العيسى، ذاك الّذي كانَ يُرى معها في نزل وَلِيلي. استدعاه مراد إلى مفوّضية الشّرطة بحيّ حمريّة وحقّق معه. كلُّ ما قاله المعلّم الشّاب أنّه كان يلتقي آليس في النّزل ويرافقها في زياراتٍ معدودةٍ إلى الموقع الأثريّ ومكناس ومنتزه «الرّميلات» الغابويّ، مؤكّدًا أنّه لم يرَ بالمرّة بيتَ الأمريكيّة المُستأْجَرَ بزرهون بعد أن تركت النّزل الّذي لم تُقَضِّ فيه سوى أسبوعين.

أجرى مراد حينئذٍ تحرّياته حول المعلِّم الشّابّ فوجد أنّه تعيّنَ حديثًا في المدرسة، وأنّه حسَن السّيرة، وفوق هذا هو كاتبٌ واعدٌ له مؤلّفان لا يزال مراد يتذكّر عنوانَيهما: «عمى الأطياف» و»عشّ العنقاء». وهو يذكُر أيضًا أنّ روايته الأخيرة تأهّلت إلى القائمة النّهائيّة لجائزةٍ عربيّةٍ مرموقةٍ بالإمارات.

«ولكن.. ألا ترى أنّ هذا الكاتب الشّابّ بمواصفات شخصيّة جواد الأطلسيّ في الرواية؟» تساءل مراد مع نفسه، وتوقّف عن المشي

بمحاذاة عمود كهرباءٍ يسلِّط على جانبٍ من رصيفِ الجادّةِ المقفرةِ ضوءًا قويّا.

في تلك اللّحظة، بدا له التّشابه كبيرًا بين شخصيّة جواد الأطلسيّ وهذا المدعوّ ناصر العيسى. وحتّى المؤلَّفان المنسوبان إلى جواد الأطلسي («عمى الحبّ»، و«عشّ الدّبابير») بدوَا مشابهَين لـ«عمى الأطياف» و«عشّ العنقاء» اللّذين كتبهما ناصرُ العيسَى. هذا لا يعني إلّا شيئًا واحدًا يا مراد: أنّ عاصمَ الشّبيهي، مؤلِّفَ هذه الرّواية الّتي في يدك، كان يعرف الكاتب ناصر العيسى معرفةً كبيرةً. لكنّ عاصم الذّكيّ غيّرَ اسم المعلِّم الشّابّ، وحرَّفَ عنوانَيْ مؤَلّفَيه، وحافظ على كلّ تفاصيل حياته بما في ذلك علاقته الملتبسة بالكاتبة الأمريكيّة آليس مور (أريادنا نويل في الرّواية).

وهكذا فإنّ كاتِب مخطوطة «الفتى الموريّ» هو ناصر العيسى. هو إذَن من تعرّض للابتزاز الأدبيّ على يد شخصيةِ تهامي الإسماعيلي، ذاك الفسيفسائي. «لا شكّ أنّ الفسيفسائيّ الحقيقيّ لن يكون سوى صاحب هذه الرّواية، وهو عاصم الشّبيهّي نفسه»، استنتج مراد.

وأضاف بصوتٍ مسموعٍ:

- ينبغي أن يُردَّ نصُّ «الفتى الموريّ» إلى صاحبه. ينبغي أن تُفضَحَ هذه الحقيقة!

ما كان لمراد أن يصل إلى هذه الحقيقة لو لم يقرأ في الرّواية حلَّ لغزِ جريمةِ قتلِ آليس مور. صحيحٌ أنّ عاصم الشّبيهيّ كان أذكى من أن يذكر أسماء الشّخصيّات الحقيقيّة، بما فيها اسم الكاتبة البوسطنيّة الضحيّة

وِاسْم رفيقها الكاتب الشّابّ وِاسْم المفتّش، لكنّ تفاصيل الجريمة تُغني عن أيّ اسم. حتّى اسم الطبيبة النفسية لا شكّ أنّه مُستعار.

في يده الآن حلُّ اللغز القديم، لغزِ قتْل الكاتِبة الأمريكية. والمتّهمُ هو صاحِبُ الكِتاب. الرواية تَصف تفاصيلَ لن يكتبها سوى مبدعِ الجريمةِ، وهو نفسه سارق النّصوص الثّلاثة المشكِّلة لهذه الرّواية، ذلك الفسيفسائيّ، عاصم الشّبيهيّ.

كان قد ترك وراءه الجادّةَ الطّويلة المقفرة ودلف إلى الشّارع الّذي سلكه في الصّباح. مرّ بالمكتبة الّتي أهدته هذا الاكتشاف الثّمين رغم أنّه جاء متأخّرًا. كان بابها الحديديّ مسدلًا. وعلى الجدار، يمين الباب، رأى ملصقًا عليه توقيت عمل المكتبة. سجّل معلومات التّوقيت في ذاكرته. وعندما همّ بالانصراف ألقى نظرةً على ملصقٍ متوسّط الحجم كان مُثبتًا، بشريط لاصِق، يمينَ الباب المغلق. اقترب منه وقرأ. كان إعلانًا عن تنظيم حفل توقيعٍ:

**إعلان**

**تنظّم الخزانة الوسائطيّة محمّد المنّوني بمدينة مكناس، بتنسيقٍ مع جمعيّة أصدقاء الفنّ والثّقافة، لقاء تقديم رواية «الفسيفسائيّ» للكاتب المغربيّ المكناسيّ الأستاذ عاصم الشّبيهي وتوقيعها. وذلك يوم السّبت 27 دجنبر 1997، على السّاعة الخامسة مساءً.**

**الدّعوة مفتوحة للعموم**

سجّل مراد التّاريخ والتّوقيت بعنايةٍ في ذاكرته، وسارَ مع الشّارع وطيفُ ابتسامةٍ على شفتَيه. وقال بصوتٍ مسموعٍ كأنّه يردّ على سائلٍ متخيَّلٍ يستفسره عمّا إذا كان سيحضر حفل التّوقيع أم لا:

- طبعا سأحضر، ومعي الرّواية، وزوجٌ من الأصفاد.

عيسى ناصري
مكناس . مريرت . م إ زرهون

**جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد**

**الإلكترونية.©**

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

تحرير وتدقيق:

**▪ شروق مجدي ▪**

ترتيب وتصميم:

**▪ أشرف غالب ▪**

t.me/twinkling4

عيسى ناصري

# الفسيفسائي

هذه روايةٌ تُعلّقك منذ المطلع على مِشجب التّشويق، ثمّ تنساب بك في ثنايا السرد وتفرّعاته. تبدأ بحكاية محقّقٍ يقرأ روايةً عثر فيها أخيرًا على فكّ لغزِ جريمةٍ ظلّت تؤرّقه ردحًا من الزمن، فتخالها إذّاكَ روايةً بوليسيّةً، لكنّ عيسى ناصري سرعان ما يسحب من فمك الطُّعم، فتجد نفسك أمام روايات مضمّنة ومذكّرات وتقارير صحفيّة وأحلام وتهويمات ورؤى، تسافر بك في رحلة من التّشويق عبر ما يقارب ثمانية عشر قرنًا من وجود الإنسان على الأرض. تتفرّع مسارب السّرد فتحسبها تفرّقت في صحراء الوجود كالجداول التّائهة، حتّى لا شيء يجمع بينها، وإذا بها تجتمع تدريجيًّا في نهر الحكاية العظيم. يفرد أمامك الكاتب قطع فسيفساء جمعها من أمكنة وأزمنة متباعدة، ثمّ يشرع في ترصيفها قطعةً قطعةً حتّى تتشابك وتتناغم، لتشكّل جسد رواية «الفسيفسائيّ» ببراعةٍ نادرةٍ في السّرد الحديث.

وحالما تستوي لوحةُ الفسيفساء، تستيقظ في ذهنك الأسئلة حرّى، بعدما كانت ساكنةً في ثنايا الحكي. من أين تنهض الحريّة؟ من الذاكرة أم من الإرادة أم من تزاوجهما معًا؟ ومن منهما يحدّد الآخر وينحته، الفنّ أم الوجود؟ أليس ما يبقى من هذه الحياة قطعة فسيفساء تقولها وتسلم الباقي إلى النسيان؟ وما النسيان إن لم يكن قطعة فسيفسائك الضائعة أيّها القارئ؟

عيسى جابلي

ISBN:978-9938-979-37-1

t.me/twinkling4